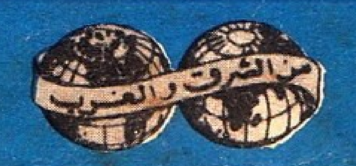



روايات عالمية

عاصفة فى الجنة

BEWARE OF PITY

٥٠ مليما



العدد رقم ٢٤٥



عاصفة في الجنة

قصة انسانية لم يسبق نقلها الى العربية

للكاتب النمسوي الكبير

ستيفان زفايج

ترجمة

عمر عبد العزيز أمين

مقـــدمة

هذه قصة سمعتها فى ظروف غير عادية ، وهاأنذا ارويها كما سمعتها ، دون أن ادخل على اسلوبها وأحداثها اى تغيير او تبديل.

فقد حدث ذات مساء ، بعد يوم حافل بالعمل والنشاط أنني انطلقت التمس بعض الراحة والسكينة فى احد المطاعم المعروفة خارج (فيينا) ، وكنت أعتقد أن هذا المطعم الذى كان يوما ما يزخر بنجوم المجتمع النمسوي ، قد فقد جدته وقل رواده ، ولكني ادركت خطئي حالما دخلته .. كان كالعهد به حافلا بالناس والحركة .. وما أن مررت بالمائدة الاولى حتى انبعث صاحبها واقفا وعلى وجهه دلائل الغبطة والبشر ، ودعاني الى مجالسته ..

ولم ارحب بالدعوة بمثل الحرارة التى وجهت بها ، لا لانني اضيق بالرجل وابغض مجلسه .. وانما لأنه كان من أولئك الفضوليين البسطاء الذين يلتصقون بالعظماء والمبرزين .. ويهوون جمع الأصدقاء والمعارف كما يهوى الصبيان جمع طوابع البريد .. ويتيهون كالصبيان فخرا وخيلاء بكل جديد يضيفونه الى مجموعاتهم ..

لم تكن لهذا الرجل الطيب متعة فى الحياة اعظم من ان يقول لجليسه كلما ذكر أمامه اسم معروف ان صاحب هذا الاسم صديقه ، وانه قابله يوم كذا ، وتحدث اليه فى هذا الشأن أو ذاك

وهو فضلا عن ذلك لا ينسى تاريخ ميلاد احد من النابهين والمبرزين واذا شهد مسرحية جديدة كان أول من يتصل بنجومها مهنئا بالنجاح الساحق ، حتى ولو كانوا من الفاشلين ..

صفوة القول ، انه كان رجلا طيبا لا يذكر للناس الا حسناتهم واسعد يوم فى حياته يوم يستطيع أن يضيف جديدا الى نماذجه البشرية ..

واحسست ان من الفلظة والقساوة أن أصد رجلا هذا ظرازه .. فقبلت دعوته على كره منى ، واننى اتناول طعامى واصطنع فى ذات الوقت الاصغاء الى ثرثرته التى لا تنتهى ، اذا به يكف فجاة عن الكلام وينبعث واقفا ليلقى بالتحية فى خشوع الى قادم جديد ..

كان القادم رجلا طويل القامة ، له وجه يلفت النظر ، ذلك أن طلعته الفتية كانت تتعارض تماما مع شعره الاشيب ، وكان فى مشيته واعتدال قامته ما ينبىء على الفور بأنه ضابط سابق ..

وقد رد القادم تحية جليسى فى شىء كثير من قلة الاكتراث ، ولم يكد هذا يستقر فى مقعده حتى قال لى فى همس :

ـ اتعرف من هو ؟ ..

ولما كنت أعلم أنه مفتون بالخوض فى سير الناس ، فقد اشفقت أن يسترسل فى ثرثرته ، واجبته فى فتور :

ـ كلا ..

ولكن فتورى لم يزده الا حماسة ، فقال فى همس وهو يحجب فمه بباطن يده :

ـ كيف ذلك ؟.. الا تعرف الكابتن هوفميلر ، البطل الذى أحرز وسام «ماريا تريزا» فى الحرب الكبرى ؟..

واذ لم يبهرنى هذا النبأ على نحو ما كان يرجو ، راح يسرد على فى اسهاب أعمال البطولة التى قام بها الكابتن هوفميلر فى الحرب الكبرى ، وكيف أنه أسقط بمفرده ثلاث طائرات للعدو ؟

وصمد مع نفر من جنوده لجحافل العدو فى قطاع خطير من قطاعات الجبهة ، وكيف قلده الامبراطور بنفسه ذلك الوسام الرفيع الذى لم يظفر به الا قلة من الأبطال ..

وبحركة لا ارادية أرسلت بصرى عبر الموائد الى حيث جلس البطل الذى يتغنى محدثى بأمجاده ، وتعلقت عيناى بعينيه لحظة قصيرة .. فاذا فى عينيه نظرة جفاء واستنكار ، وكأنى به يقول : اذن فقد كان هذا الثرثار يتحدث عنى !!

وأدار لى ظهره بحركة عدائية ، فغضضت البصر فى خجل ، وحرصت منذ تلك اللحظة على الا انظر الى ناحيته ..

وبعد قليل ، استأذنت جليسى فى الانصراف ، ولاحظت قبل ان أبرح المكان ، أنه انتقل على الفور الى مائدة البطل ، ليقدم له بغير شك صورة مشرقة عنى كالصورة التى قدمها لى عنه ..

***

هذا كل ما كان بينى وبين ذلك البطل فى تلك الليلة ، نظرة فضول منى ، ونظرة استنكار منه ، وكان ينبغى أن انسى كل شىء عن هذه المقابلة العابرة لولا أن شاءت المقادير أن تجمع بينه وبينى فى حفل صغير فى اليوم التالى ..

كان فى ثوب السهرة ، أكثر أناقة ووسامة مما رأيته فى المطعم ، وتلاقت أبصارنا ، وابتسمنا ، تلك الابتسامة الخفيفة ذات المغزى ، التى تمر وسط الزحام بين شخصين يجمع بينهما سر صغير يحرصان على كتمانه ..

عرفنى كما عرفته ، ولم نتبادل الحديث فى البداية ، ولكن كان من المستحيل أن تستمر هذه القطيعة .. فقد قامت بين المدعوين مناقشة حادة لم يكن ثمة مفر من أن يدلى فيها كل ذى رأى برأيه ..

ومن اليسير أن يدرك القارىء موضوع المناقشة متى علم اننا كنا فى سنة ١٩٣٧ ..

أن الذين يتصدون لتأريخ هذه الحقبة سوف يسجلون أن أوروبا كلها فى سنة ١٩٣٧ لم يكن لها حديث الا عن احتمالات نشوب حرب عالمية جديدة ..»

كان جو السياسة الدولية مشحونا بالكهرباء ، والناس فى مثل هذا الجو لا يتمالكون من التعبير عن مخاوفهم وآمالهم ..

وكان صاحب الحفل من كبار المحامين ، فهو رجل منطقى بحكم مهنته ، وقد استهل المناقشة بتوكيد النظرية المبتذلة القائلة بأن الجيل الحاضر يعرف الكثير عن الحرب ولن يساق اليها ببساطة وسذاجة كما حدث فى الحرب العالمية الأولى ، وانه اذا أعلنت التعبئة العامة فان المحاربين القدامى من أمثاله ، سوف يحولون أفواه المدافع والبنادق الى الجهة المضادة ، لأنهم تعلموا درسا من الحرب الأولى ويعرفون جيدا ماذا ينتظرهم ..

وقد ضايقنى ان يستبعد هذا الرجل المستنير احتمالات نشوب الحرب بمثل البساطة التى ينفض بها رماد سيجارته فى الوقت الذى تعمل فيه آلاف المصانع ليل نهار فى انتاج الأسلحة والمفرقعات والغاز الخانق ، فقلت محتجا : أن الانسان لا ينبغى أن يغلب امنياته على المنطق السليم ، وأن الوزارات والسلطات العسكرية التى تهيمن على شئون الحرب لم يغمض لها جفن طيلة هذه السنين ، واننا حين كنا نحلق فى سماء الأحلام والأمنيات ، انتهزت هذه السلطات فرصة السلام لتهيئة الرأى العام وتعبئة الشعوب لتكون على أهبة الاستعداد للحرب فى أية لحظة ..

صحيح أن أوروبا تمر بفترة هدوء ظاهرى ، ولكن الشعور العام قد عبىء الى أقصى حد بفضل وسائل الدعاية الحديثة ، واستطيع أن أؤكد أنه لن يرتفع صوت واحد بالمعارضة متى اذاعت مكبرات الأصوات نبأ اعلان « التعبئة العامة » ..

***

وكان من الطبيعى أن يقابل القوم رأيى هذا بالاحتجاج والاستنكار ، فان غريزة خداع النفس تغرى الناس بانكار الأخطار

التى يشعرون فى قرارة نفوسهم بوجودها .. كما أن تحذيري القـوم من عواقب تفـاؤلهم الرخيص ، كان خليقـا بأن يقـابل بالاستخفاف ، خاصة وهم يعلمون أن فى انتظارهم بالقاعة المجاورة مائدة حافلة بأشهى الوان الطعام والشراب ..

ولـكن لشد ما كانت دهشتى حـين رايت بطـل الأمس هو الوحيد الذى يقف الى جانبى ويشد أزوى ..

قال فى حـدة وحماسة : ان من العبث فى هـذه الأيام ان توضع ارادة البشر فى الاعتبار ، لأن الحرب القادمة ستكون حربا ميكانيكية ، ولن يكون الانسان الا جزءا من آلة الحرب ..

وضرب لذلك مثلا فقال انه فى الحرب الماضية لم يلق غير قلة من المحاربين كانت لهم ارادة ، وكان لهم راى قاطع فى تحبيذ الحرب او استنكارها ، لأن الجميـع سيقوا الى الجبهة سوقا ووجدوا انفسهم فجأة وسط دوامة رهيبة لا حول لهم فيها ولا قوة ..

ثم أستطرد قائلا

ـ دعونا لا نخدع انفسنا .. لو أن دولة ما فتحت اليوم باب التطوع لحملة عسـكرية فى ركن قصى من اركان الأرض لتقـدم آلاف الناس المتطوع دون أن يعرفوا لمـاذا يتطوعون .. قد يكون تطوعهم هربا من أنفسـهم او هربا من ظروف معينة ، ولـكنكم لن تجدوا من يسأل لمـاذا هذه الحملة !؟

ان معارضة الحركات المنظمة تتطلب من الشجاعة قدرا اعظم مما يتطلبه الانتظام فيها ، والسير مع التيار العـام ، والشجاعة التى اعنيها هنا هى الشجاعة الفردية التى بدات تتلاشى فى عصر التنظيم الآلى الذى نعيش فيه ..

لقد رايت فى الحرب نوعا واحدا من الشجاعة ، هو شجاعة القطيع .. الشجاعة التى يستلهمها الفرد من الجماعة ، ولو قد توفر انسان على دراسة هذا النوع من الشجاعة عن كثب لوجد انها تتألف من عناصر متناهية فى الغرابة ، ففيها قدر كبير من

القرون ؟ وقدر كبير آخر من الضجر واللامبالاة ، وقدر اكبر من الخوف .. نعم ، الخوف من التخلف عن المجموع ، والخوف من سخرية الآخرين ، والخوف من القيام بعمل فردى مستقل ، وأخيرا ، وهو الأهم ، الخوف من الوقوف في وجه تيار الحماسة العامة .. وقد اكتشفت بعد الحرب ، أن أكثر الذين اشتهروا بالبطولة فى جبهة القتال ، هم فى الواقع ابعد الناس عن الشجاعة ..

ثم استطرد وعلى شفتيه ابتسامة باهتة :

ـ ولست استثنى نفسى من هذه القاعدة

واعجبتنى صراحته ، وطريقته فى الكلام ، وشعرت برغبة فى الاتصال به ، والتحدث اليه .. ولكن مضيفتنا دعتنا فى هذه اللحظة الى قاعة الطعام ، فجلسنا حول المائدة متفرقين ، ولم تسنح لى فرصة لمحادثته الا عند ما انتهى الحفل ، وذهب كل منا لارتداء معطفه ..

قال لى وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ اعتقد اننا تعارفنا فعلا بطريق غير مباشر ، بفضل صديقنا المشترك ..

فأجبته وانا ابتسم كذلك :

ـ وأكثر من هذا أننا تعارفنا جيدا ..

ـ لا شك انه قدمنى اليك فى صورة أحد أبطال الاغريق ، وانه كان يتيه فخرا بوسامى ..

ـ ذلك ما حدث فعلا ..

ـ نعم .. انه فخور جداً بوسامى ، كما هو فخور بمؤلفاتك .

ـ الحق اننى قابلت فى الحياة من هو أسوا منه .. هل لديك مانع من ان أسير معك قليلا ؟..

وسرنا معا ، وفجاة تحول الىّ وقال :

ـ صدقنى ، انه ليس غرورا أن أقول لك ان شيئا لم يضايقنى

طوال عدة اعوام كما ضايقني هذا الوسام .. صحيح انني كدت أطير فرحا به حين منحته في ميدان القتال ، ذلك لأنني كنت جنديا ، وكنت وانا طالب بالكلية الحربية ، أسمع زملائي يتحدثون عن هذا الوسام بالذات كأنه أسطورة ، فهو من الاوسمة النادرة التي لا تمنح في اية حرب لأكثر من عشرة اشخاص ولك أن تتصور معناه بالنسبة الى ضابط صغير في الثامنة والعشرين من عمره .. كان معناه ان اقف أمام الفرقة كلها ، وجميع العيون تنظر باحترام واجلال الى الشيء الذي يتألق فوق صدري تألق النجم الساطع ، كان معناه أن اقف أمام جلالة الامبراطور شخصيا فيشد على يدي بيده .. ويوجه الى عبارات الثناء والتهنئة ..

ولكن مثل هذا الوسام ، كما تعلم ، لا قيمة له الا في دنيا العسكريين ، فلما وضعت الحرب اوزارها ، خيل الى ان من المضحك أن أدمغ طيلة حياتي بالبطولة ، لا لشيء الا لأنني تصرفت بشجاعة في موقف معين لمدة عشرين دقيقة .. وربما لم أكن أكثر شجاعة من آلاف آخرين ، ولكنني كنت احسن من الآخرين حظا حين لفت انظار رؤسائي ، وأهم من ذلك في مجال حسن الحظ انني خرجت من المعركة حيا .. على انه لم يمض عام حتى سئمت السير في الطرقات وكأنني تمثال حي ، والناس من حولي يحملقون الى الوسام فوق صدري ثم يرفعون أبصارهم الى وجهي ، وفي عيونهم مزيج من الاعجاب والرهبة .. لقد كان ضيقي بنظرات الناس وايماءاتهم أحد الأسباب التي حملتني على ترك خدمة الجيش بعد انتهاء الحرب ...

قال ذلك وأسرع في مشيته قليلا واستطرد :

ـ أقول أحد الأسباب ، لأنه كان هناك سبب رئيسي أهم .. أعتقد انك ستقدره حق قدره .. هذا السبب الرئيسي هو انني كنت شخصيا أرتاب في شجاعتي ...

كنت أدري من أولئك الغرباء الذين بهرتهم بطولتي ، بأن الرجل الذي يتوارى خلف الوسام هو أبعد الناس عن البطولة ..

وانه ليس فى الواقع الا احد الذين خاضوا غمار الحرب فرارا من مسئولياتهم وهربا من واقعهم .. فهو جبان اكثر مما هو بطل وطني ..

ولم اشعر بالراحة النفسية حقا ، الا عندما خلعت الزى العسكرى نهائيا ، وتخلصت من اسطورة البطولة المسجلة على صدرى ، وليس ما يضايقنى الآن مثل ان يخوض الناس فى ماضى الرائع وقد حدثتنى نفسى امس بأن انتقل الى مائدتك ، لكى اقول لذلك الثرثار أن يبحث عن انسان آخر سواى يتغنى بأمجاده .. بل لقد خطر لى ان افضل وسيلة لتكذيبه ، ربما كانت أن اسرد عليك قصتى بنفسى ، واحدثك عن المسالك الوعرة التى قادتنى الى البطولة ..

انها قصة قديمة جدا ، ولكنها تكفى للدلالة على ان الشجاعة قد لا تكون فى اكثر الأحايين الا مظهرا من مظاهر الضعف ..

والواقع ، انه ليس ثمة ما يمنعنى من أن اسرد عليك القصة فورا ، فان انقضاء ربع قرن على حوادثها ، يجعلك ، انت الكاتب القصاص ، احق بها منى ، فهل يتسع وقتك لسماعها ؟..

***

وقضينا بقية الليل فى الشوارع المقفرة من السابلة ، واصغيت الى قصته ، وها انذا ارويها بلسانه ، دون أن ادخل عليها من التغيير الا ما يحجب ابطالها الحقيقيين ..

عاصفة فى الجنة

بدأت القصة كلها بهفوة تورطت فيها بحسن نية ، هفوة تتصل بالذوق السليم وآداب المجتمع ، واعقبت الهفوة ، محاولة من جانبى لاصلاح ما فسد ، ولكنك حين تحاول اصلاح ساعتك وأنت فى عجلة من امرك ، فأكبر الظن انك ستفسدها نهائيا ، وما زلت حتى الآن ، برغم انقضاء كل هذه السنين ، لا استطيع أن اقرر بالضبط ، أين انتهت هفوتى ، وأين بدأت جريمتى .

كنت فى ذلك الوقت فى الخامسة والعشرين من عمرى ، ضابطا صغيرا بسلاح الفرسان ، ولا ازعم اننى كنت شغوفا بالجندية ، أو اننى تخيرتها فاخترتها مهنة لى ، ولكنك اذا كنت موظفا متوسط الحال ، ولديك من البنين والبنات ستة لا يكاد مرتبك يكفى لاطعامهم ، فانك لن تكلف نفسك عناء سؤالهم عن رغباتهم ، وانما تبادر الى دفعهم فى الطريق الى اية مهنة تخلصك من عبئهم فى اقرب وقت ، وكان اخى الاكبر قد اسرف فى القراءة واستذكار الدروس حتى اتلف بصره ، فارسله ابى الى احد الاديرة ليصبح قسا ، ولاحظ ابى اننى قوى البنية فالحقنى بالكلية الحربية .

ومنذ يضع الطالب قدمه فى الكلية الحربية ، تمضى حياته بطريقة آلية لا ارادة له فيها

انه يصبح فى رعاية الدولة ، التى تتناوله مراهقا فتصقله وتنشئه على ادق واحدث النظم والتقاليد العسكرية ، ثم تدفع به

الى الجيش ، وهناك يمر بمراحل معينة ، ويرقى بعد فترات مقررة وينتهى امره بالاستشهاد او التقاعد

كذلك لم أختر لنفسى سلاح الفرسان ، أكثر اسلحه الجيش كلفة وابرزها مظهرا ، واحفلها بأبناء الاسر النبيلة ، وانما اختارته لى زوج عمى ، وهى سيدة ثرية متحذلقة ، ابت على ، وانا احمل اسم اسرتها ، أن التحق بأى سلاح آخر غير سلاح الفرسان ، ولما كانت قد رصدت لى مبلغ مائة (كرون) مرتبا شهريا فاننى لم يسعنى الا النزول على ارادتها .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٣ صدرت الاوامر الى فرقتى بالسفر الى احدى المدن الصغيرة على الحدود الهنغارية ، ولا ضرورة لذكر اسم هذه المدينة ، فان مراكز الحاميات على الحدود تشبه بعضها بعضا كأزرار الثوب العسكرى ففى كل مدينة ثكنة عسكرية ، ومدرسة لركوب الخيل ، وميدان للعرض العسكرى ، ومبنى للضباط ، ثم بعض الفنادق والمقاهى والحانات ومحال الحلوى .

والحياة فى هذه المعسكرات تمضى على وتيرة واحدة مملة ، وفقا لانظمة ثابتة تتحكم فى كل ساعة من ساعات العمل ، اما اوقات الراحة فتكاد تخلو من كل متعة ، ذلك أن الوان الترفيه محدودة تفتقر الى الاثارة والتنويع ، ففى قاعة الضباط ترى الوجوه نفسها وتسمع الأحاديث نفسها . وفى المقهى ألعاب الورق والبليارد نفسها .

شىء واحد كان يميز هذه المدينة عن غيرها من مراكز الحدود ، هو أنها فى مكان وسط بين (فيينا) و (بودابست) ، والقطارات السريعة تقف فيها ، فكان فى استطاعة الضباط الاغنياء ، وما اكثرهم فى سلاح الفرسان ، أن يستقلوا قطار الساعة الخامسة الى (فيينا) فيقضون السهرة فى العاصمة المرحة ، حيث يختلفون على المسارح والملاهى ، وينغمسون فى شتى المغامرات ، ثم يعودون الى الثكنة بقطار الساعة الثانية صباحا .

ومن سوء الحظ ، ان مركزى المالى لم يكن يسمح لى بمثل

هذه المتمة ، فلم يمكن امامى سوى المقاهى ومحال الحلوى ؟ ولما كان لعب الورق يكلف كثيرا فى بعض الاحيان . فقد قنعت بلعب الشطرنج والبليارد .

واتفق ذات يوم فى منتصف شهر مايو سنة ١٩١٤ اننى قصدت الى احد محال بيع الحلوى لقتل الوقت فى لعب الشطرنج مع صديقى الصيدلى الوحيد بالمدينة .. ولم نكد نفرغ من اللعب حتى فتح الباب ، وهبت نسمة منعشة ترافقها صبية فاتنة سمراء البشرة ، سوداء العينين ؟ ترتدى ثوبا غاية فى الاناقة ..

ومرت بنا الحسناء ، دون ان تتلفت يمنة او يسرة ، ودون ان تحفل بنظرات الاعجاب التى امتلأت بها عيوننا ، وسارت بخطى ثابتة الى حيث كان صاحب المحل ، وطلبت كميات كبيرة من أجود وأغلى انواع الحلوى والشراب .

وادهشنى أن يحنى لها الرجل قامته باحترام شديد ، وان تترك زوجته مكانها أمام خزانة النقود لتقف بين يديها فى خشوع .

وبينما كان صاحب المحل يسجل مطالب عميلته الحسناء ؟ كانت هذه تتناول بأناملها بعض انواع الحلوى لتتذوقها ، دون أن تشعر بنا نحن المساكين الذين اشرأبت أعناقنا نحوها ..

ولم تحمل الفتاة شيئا بطبيعة الحال ، فقد اكد لها صاحب المحل فى ادب جم ان كل شىء سيرسل اليها فورا .

كذلك لم تدفع الحسناء ثمن ما طلبت كما نفعل نحن الآدميين البسطاء ، فكان من الواضح انها عميلة ليست كسائر العميلات .

وهمت الفتاة بالانصراف فهرول صاحب المحل الى البـاب ؟ وفتحه لها .. بينما نهض صديقى الصيدلى واقفا ، وحياها بأن احنى قامته باحترام شديد ، فردت الفتاة التحية بعظمة الاميرات .

وما ان غابت الفتاة وراء الباب ، مشيعة بأعظم مظاهر التوقير والاحترام ، حتى أقبلت على صديقى الصيدلى اسأله فى لهفة عن هذا الملاك الذى هبط علينا فجأة من السماء فهتف قائلا :

ـ احقا انك لا تعرفها ؟ انها الآنسة (ايلونا) .. ابنة اخت الهر كسفالفا .. لا شك انك تعرف آل كسفالفا ؟

وقد نطق بهذا الاسم ، كما ينطق باسم أحد الاباطرة . ونظر الى ، كأنما يتوقع ان اقول :

ـ آل كسفالفا ؟ آه .. طبعا ..

ولكنى كنت قد نقلت حديثا الى هذه المدينة ، ولم تتهيأ لى فرصة للتعرف على آلهتها وملائكتها ، ولذلك طلبت الى صديقى أن يزيدنى معرفة ، فحدثنى عن آل كسفالفا حديثا اجتزىء منه ما يلى :

قال : ان الهر كسفالفا هو اغنى رجل فى المنطقة كلها ويكاد يملك كل شىء فى الناحية .. المزرعة الواسعة المعروفة باسمه ، والقصر العظيم ذا الابراج والحدائق التى تطل على ميدان العرض ، ومصنع السكر القائم على الطريق الى فيينا . ومصنع الاخشاب فى « بروك » ، وعشرات من العمائر فى فيينا وبودابست.
واستطرد قائلا :

ـ من المحقق انك لم تكن تتوقع أن تجد بين ظهرانينا قوما بهذا الثراء .. انهم يعيشون كالملوك يقضون الشتاء فى قصرهم فى (فيينا) والصيف فى أكبر المصايف العالمية .. ولا يقيمون فى قصرهم هنا الا بضعة اشهر خلال الربيع ..

انك لا تستطيع أن تتصور حياة البذخ التى يحيونها . الكافيار من روسيا والشمبانيا من فرنسا والويسكى من اسكتلندا ، واطيب ما فى هذه الدنيا من متع ..
ثم اردف وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ ان بينى وبين الهر كسفالفا صداقة ومودة ، وانا اعلم انه يرحب بزيارة ضباط الحامية ، فهل اطلب اليه ان يدعوك الى احدى حفلاته ؟

ولم لا .. ؟

لقد سئمت هذه الحياة التى تمضى كلّ يوم على وتيرة واحدة واكاد اختنق فى هذه المدينة الريفية التى اصبحت اعرف كل ما فيها ومن فيها .. فأنا اعرف كل رجل وكل امرأة .. واعرف اولادهم .. وكلابهم ، بل واعرف عاداتهم ونزواتهم وملاهيهم والاماكن التى يختلفون اليها والنكات التى يرددونها ؛ فلماذا لا التمس التنويع فى التعرف الى لون جديد من ألوان الحياة .. ولماذا لا انغمس فى بيئة جديدة ، كتلك التى تنتمى اليها هذه السمراء الفاتنة ..

قلت للصيدلى ، وانا اتظاهر بقلة الاكتراث انني يسعدني التعرف على اسرة كسفالفا ..

ويبدو ان الرجل كان جادا أكثر مما توهمت ، فلم يمض يومان حتى جاءنى وهو منتفخ الاوداج ، وقدم لى بطاقة انيقة كتب عليها اسمي بخط دقيق ، وقد جاء فيها ان الهر كسفالفا يسره ان يدعو السيد الضابط انطوان هوفميلر لتناول العشاء فى قصره فى الساعة الثامنة من مساء يوم الاربعاء التالى ..

واقبلت الامسية الموعودة التى انتظرتها بفروغ صبر ولكنها بدأت بداية لا تبشر بالخير ، ولو كنت ممن يؤمنون بالخرافات ويتطيرون ولو قليلا لأعتبرت ما حدث على تفاهته باعثا على التشاؤم ونذيرا بشر مستطير ..

ذلك أننى ما كدت افرغ من ارتداء افضل ثيابى واحمل قفازى الأبيض الجديد واقف امام المرآة لاضع اللمسات الاخيرة فى أناقتى ، حتى سمعت طرقا بالباب ، واذ الطارق أحد جنود الحامية وقد جاء ينبئنى بأن الضابط المنوب صديقى الكابتن شتاينهوبل ، يرجونى اللحاق به على وجه السرعة الى قاعة الحراس .

ويبدو ان اثنين من جنود سلاح الفرسان أسرفا فى الشراب ، وشجر بينهما خلاف فضرب أحدهما الآخر بمؤخر بندقيته ضربة أصابت رأسه والقته ارضا والدم ينزف من انفه وفمه ..

ولم يدر القوم هل أصيب الجندى بكسر فى الجمجمة أو

بارتجاج فى المخ ، فان الطبيب كان قد ذهب الى فيينا فى اجازة ؟
وبحث شتاينهوبل عن قائد الحامية ولم يجده ، فارسل فى طلبى لمعاونته فى اجراء التحقيق ، ريثما يبحث هو عن طبيب لاسعاف المصاب ..

وكانت الساعة قد اوفت على الثامنة ، ولا بد من نصف ساعة على الأقل ، قبل ان أفرغ من تسجيل الحادث ، واثبات أقوال الشهود ، وتقرير نوع الاصابة ..

هكذا شاء القدر ان يقع هذا الحادث فى تلك الامسية من دون الأمسيات جميعا ..

ولم اكف طول الوقت من التطلع الى عقارب الساعة فى قلق وفروغ صبر ..

على اننا تعلمنا فى حياتنا العسكرية أن نضع الواجب فى المحل الاول قبل الاعتبارات الشخصية مهما تبلغ خطورتها ، وقد كان من المستحيل على أن البى الدعوة فى موعدها المحدود دون الاخلال بواجبى فلجات الى التصرف الوحيد الممكن فى ذلك الموقف التعس وهو ان ابعث الى آل كسفالفا برسالة مع احد الجنود اعتذر فيها عن اضطرارى الى التخلف بعض الوقت لظروف طارئة خارجة عن ارادتى الخ الخ ..

ومن حسن الحظ ان الحيرة والاضطراب فى الثكنة لم يستمرا طويلا فقد ظهر قائد الحامية فجاة ومعه طبيب لا ادرى من اين جاء به وحينئذ فقط استطعت التسلل الى الخارج .

على اننى فوجئت بعقبة جديدة لم تكن فى الحسبان ، ذلك أن الميدان الذى كان عادة يزخر بالمركبات ، لم تكن به فى ذلك المساء اية مركبة ، فانتظرت فى قلق وفروغ صبر حتى جاءنى احد الجنود بعربة اقلتنى الى القصر ..

ووصلت فى منتصف الساعة التاسعة بدلا من الساعة الثامنة .. فاستقبلنى كبير الخدم فى بزته الأنيقة وقفازه الابيض ، ولابد

ان تخلفي عن الموعد كان السبب فيما لاحظته من حيرته وارتباكه .

وقادني الرجل الى قاعة الاستقبال، وهي قاعة فسيحة تسبح في فيض من الأنوار الساطعة المنبعثة من ثريات لم أر أجمل منها ، وتتدلى على نوافذها الاربع ستائر من الحرير الأحمر الموشى بالذهب ..

كانت أفخم واروع قاعة استقبال وقع عليها بصري ولكنها كانت للأسف خالية تماما ، في حين كانت تنبعث من القاعدة المجاورة ضحكات المدعوين ، ورنين الكئوس ..

اذن فقد سبقني القوم الى مائدة الطعام ..

ووقفت محجما ، مترددا ..

كان الموقف يبعث على الضيق والحرج ، ولكني واجهته بجلد وثبات ، وما أن فتح كبير الخدم باب قاعة الطعام على مصراعيه واعلن قدومي حتى ضربت الأرض بكعب حذائي كما تعودنا نحن العسكريين أن نفعل في حضرة رؤسائنا ، ثم أحنيت قامتي باحترام تحية للقوم ، وعندما رفعت رأسي ، رأيت عشرات العيون تتطلع في دهشة وفضول الى ذلك الضيف الغريب الذي جاء متأخرا ..

وعلى الفور ، نهض عن المائدة رجل متقدم في السن ، لاشك أنه صاحب القصر ، فوضع الفوطة جانبا ، وأقبل على مرحبا .

كنت أتوقع أن أجد في الهر فون كسفالفا رجلا من اغنياء الريف الهنغاري ، ضخم الجسم ، مستدير الوجه ، كث الشاربين ، تنبيء بدانته وتورد وجنتيه عن الحياة السهلة الناعمة التي يحياها ولكني وجدته على عكس ذلك تماما ، رجلا نحيفا ، مقوس الظهر قليلا تطل من نظارته السميكة عينان مكدودتان ، وينتهي وجهه النحيل بلحية قصيرة .. ويكاد مظهره يوحي بأنه من اساتذة الجامعات ..

واستقبلني الرجل في أدب ولطف ، ولما هممت بالاعتذار

قاطعني قائلا انه الذي يجب ان يعتذر ، فانه يعرف تماما ان وقت الضباط ليس ملكا لهم ، وانه كان لطفا مني وكرما ان ابعث اليه برسالة اعتذار ؛ ولولا انه لم يكن على يقين من موعد قدومي ، لما انتقل بضيوفه الى قاعة الطعام قبل حضوري ، اما الآن فيجب ان اجلس الى المائدة فورا ..

ثم استطرد قائلا :

ـ سأقدمك الآن الى ابنتي ، اما باقي المدعوين فسأقدمك اليهم فيما بعد ..

وهنا رأيت فتاة في العقد الثاني من عمرها ، نحيفة رقيقة مثله ، ترفع وجهها الشاحب وتنظر الى في خجل وحياء ، فانحنيت لها محييا ، وحييت باقي المدعوين بانحناءة اخرى ..

ومرت بي دقيقة او دقيقتان ، احسست فيهما بارتباك شديد ، ذلك انني لم اجد بين المدعوين ضابطا واحدا من ضباط الفرقة ، ولم ار وجها واحدا اعرفه .. كان المدعوون جميعا من الموظفين وكبار الملاك ومعهم زوجاتهم وبناتهم ، فكيف سأجد الجرأة ، انا الشاب الخجول الذي يعيش بمعزل عن المجتمع ، على التحدث الى هؤلاء الغرباء ؟! .

ولكن من حسن الحظ ان مضيفي اجلسني بين اجمل امراتين حول المائدة ، احداهما ابنة اخيه السمراء الفاتنة ، التي لاحظت بغير شك نظرات الاعجاب التي حدجتها بها في محل الحلوى ، لانها ابتسمت لي بلطف كما تبتسم لصديق قديم ، والثانية فتاة بولونية تميل الى البدانة ولكنها لا تخلو من الفتنة .

وخيل الى ، وانا اتناول اشهى الوان الطعام والشراب من افخم الصحاف والآنية في ذلك الجو المفعم باسباب البهجة والمرح ، والى يميني فتاة ساحرة العينين ، صارخة الانوثة ، والى يساري ثانية حسناء ، تتحدث برطانة محببة ، ومن حولنا جيش من الخدم في حللهم الزاهية وقفازاتهم البيضاء يتتابعون بصحاف الطعام من كل نوع ، وقناني الشراب من كل لون ، واطيب الفاكهة

فى سلال من الفضة ، تخيل الى وسط هذا كله ، اننى اعيش حلما ممتعا لم يرق الى مثله خيالى فى نوم او فى يقظة ..

بارك الله فى صديقى الصيدلي .. لقد صدق حين قال ان آل كسفالفا يعيشون عيشة الأمراء ..

ولا ادرى هل هى الخمر التى حلت عقدة لسانى وأذهبت عنى الخجل ، أم هى الضحكات المرحة الممتزجة برنين الكئوس والبسمات الفاتنة والعيون الساحرة المتألقة .. كل ما اذكره هو اننى احسست فجأة بالانطلاق والتحرر ، فلم تمض لحظات حتى كنت اتحدث واضحك مع جارتى الفاتنتين ، واتفق أكثر من مرة أن مست يدى ساعد (ايلونا) البض ، ولكن لم يبد عليها قط انها استاءت أو تحرجت ..

وكان يخالجنى طول الوقت شعور مبهم بأن هذا الفردوس الساحر لا يزال ينقصه شيء .. شيء يحرر روحى من اسارها ، وينقلنى تماما الى عالم الأحلام والخيال . ولم البث ان عرفت هذا الشيء الذى تظمأ اليه نفسى ، حين فتح كبير الخدم باب القاعة على مصراعيه ، وسمعت نغمات موسيقى راقصة هادئة حالمة ذات الموسيقى التى يهفو اليها قلبى ، تنبعث من غرفة مجاورة لقاعة الاستقبال ..

حقا ان آل كسفالفا يعيشون فى قصر مسحور ، بحسبك فيه أن تحلم بأى شيء فيتحقق حلمك على الفور ..

***

وغادرنا قاعة الطعام ازواجا ، فقدمت ساعدى لأيلونا ، وسرنا معا الى قاعة الاستقبال ، وهناك وجدت كل شيء فيها قد تغير وضعه ، فالموائد قد رفعت ، والمقاعد قد وصت على طول الجدران والأرض الخشبية قد صقلت حتى اصبحت كالمرآة .. صفوة القول أن القاعة تحولت كأنما بسحر ساحر ، الى حلبة رائعة للرقص ..

واستمرت الموسيقى ترسل نغماتها الراقصة الساحرة ..
فنظرت الى أيلونا ، وفهمت الفتاة وضحكت وقالت عيناها : نعم ..

وما هي الا لحظة ، حتى كنت أدور بها في الحلبة ، وحذا الشباب حذونا ؟ أما المتقدمون في السن فقد قنعوا بالجلوس وتجاذب أطراف الحديث ..

وكنت أحب الرقص ، وأكثر من ذلك انني اجيده ، ولا اذكر انني رقصت طيلة حياتي خيرا مما رقصت في تلك الليلة ..

كنت أسبح بزميلتي بين الراقصات والراقصين بل كنت احلق بها في السماء ولا اكاد اشعر بوجود احد سوانا ..

ثم دعوت جارتي البولونية الى الرقصة التالية ، والملئ بجمال صدرها ، وعبير شعرها ..

كان كل شيء رائعا .. واحسست بسعادة لم أحس بمثلها منذ سنوات عدة .. حتى وددت لو استطيع أن اعانق كل انسان ، وأن اقول كلمة طيبة لكل من تقع عليه بصري ..

وهكذا انطلقت أرقص وامرح حتى صرفتني النشوة والسعادة عن الاحساس بالوقت ، ثم فجأة ، حانت مني التفاتة الى ساعة مثبتة بالجدار ، فألفيتها منتصف الحادية عشرة وفطنت فجأة كذلك الى أنني رقصت أكثر من ساعة مع خمس أو ست سيدات ، وكنت من الغباء بحيث نسيت ابنة صاحب الدار ..

وسارعت الى تدارك هذا التصرف الذى ينطوى على فساد الذوق ، ولشد ما هلعت ، حين وجدت أنني لا أكاد أذكر وجه الفتاة .. كل ما انطبع في نفسي عنها حين أحنيت لها قامتي تحييا في قاعة الطعام انها مخلوقة نحيفة رقيقة ..

ترى اين هي الآن ؟ وكيف أجدها بين عشرات الفتيات ؟..

واجلت البصر في قلق بين النساء والفتيات الجالسات حول الحلبة ، ولم أجد فيهن من تشبهها ؟ وأخيرا انطلقت الى الغرفة

الثالثة حيث يعزف الموسيقيون وراء حاجز صينى انيق الصنع ؟ لوجدتها هناك بجسمها الناحل ووجهها الشاحب جالسة بين سيدتين متقدمتين فى السن ، وراء طاولة خضراء عليها باقة من الورود ...

كانت منصرفة بكل حواسها الى سماع الموسيقى ، وكان اهم ما لفت نظرى ، الفارق الكبير بين نضارة الورود وشحوب وجهها ..

ولم الاحظ شيئا غير ذلك ، وحمدت الله على أننى وجدتها فى الوقت المناسب لتدارك الفلطة التى تورطت فيها ...

تقدمت منها ، وأحنيت لها قامتى فى احترام ، ودعوتها للرقص :

ويبدو ان الدعوة كانت مفاجأة لها ، لأنها بهتت ونظرت الى فى دهشة وعجب ، وانفرجت شفتاها كأنها تهم بالكلام ، ولكنها لم تات باية حركة توحى بأنها ستنهض لمراقصتى ...

ترى .. ألم تفهم ما اعنى ؟..

واحنيت لها قامتى مرة اخرى وقلت :

ـ هل تسمحين لى بمراقصتك يا آنستى العزيزة ؟..

وحينئذ حدث أمر مخيف ، فقد دفعت الفتاة راسها وكتفيها الى الوراء فجأة كأنما لتتقى صفعة توشك أن تهوى على وجهها .

وصعد الدم الى وجنتيها الشاحبتين ، وانطبقت شفتاها بعنف ، وحدجتنى عيناها بنظرة ذعر وهلع لم أر لها من قبل مثيلا .

ثم سرت بجسدها رعدة شديدة ، ومدت يديها الى المائدة بحركة عنيفة زلزلت آنية الورد .. وفى ذات الوقت سقط من مقعدها شىء لعله من الخشب أو المعدن وأحدث ضجة استرعت الانتباه ..

واستمرت الفتاة ممسكة بحافة المائدة ، كأنها تتعلق بها ، وجسمها كله يرتجف بشدة ، ثم انفجرت فجأة تئن وتبكى ..

وفي الحال ، تخفت اليها السيدتان اللتـان كانتا تجالسانها ، فامسكتا بها ، وراحتا تربتان على ظهرها ، وتلاطفانها ، وتخلصان أصابعها المتشبثة بحافة المـائدة ..

واسترخت الفتاة في مقعدهـا ، ولـكنها ظلت تبـكي بحرقة وبصوت مسموع ، بحيث لو كفت الموسيقى عن العزف لسـمع المدعوون جميعا صوت بكائها ..

يا الهي ماذا حدث ؟ وما معنى كل هذا ؟..

ووقفت في مكاني مذهولا مشدوها لا يـكاد تفكيري يهديني الى سبب واجد لهذه الثورة العصبية العارمة ..

وكأنما احست الفتاة بالخجل فدفنت راسها في المـائدة ، ولـكنها لم تكف عن البـكاء :

قلت بلسان متلعثم

ـ معذرة .. انني ..

ولم اكمل عبارتي ، فقد كانت السيدتان في شغل عني بتهدئة الفتاة ، والفتاة لا تكف عن النشيج ، فنكصت على عقبي ، وقصدت الى قاعة الاستقبال وانا أشد ما أكون حيرة ودهشة ..

كان راسي يدور ، فاستندت الى باب القاعة لامنـع نفسي من السـقوط ..

لابد انني اسرفت في الشراب ، وارتكبت خطأ جسيما ، والا فما معنى هذا كله ؟ ..

وكفت الموسيقى عن العـزف ، وتفرق الراقصون ورافق مدير البوليس (أيلونا) الى مقعدها بعد أن راقصها ، فهرولت نحوها ، وأمسكت بساعدها في شيء من الخشونة ، وانتحيت بها جانبا وأنا اهتف

ـ انني أطلب معونتك .. اوضحي لي الموقف بحق السماء..

ولعلها ظنت في البـداية انني اريد أن اخـلو اليهـا ، لاطري جمالهـا وفتنتها ، أو لاطارحهـا الحب ، ولابد أن اضطرابي كان

شديدا ومفزعا لأنها ما كادت تنظر الى وجهى حتى قطبت حاجبيها وتلاشت النظرة الحالمة من عينيها ..

وبانفاس لاهثة ، انطلقت اسرد عليها ما حدث ، ولشد ماكانت دهشتى حين رايتها تنظر الى فى هلع وتصيح :

ـ هل جننت ؟ الم تكن تعلم ؟ ألم تر ؟..

ـ اعلم ماذا ؟ اننى لا اعلم شيئا .. وهذه اول زيارة لى ..

ـ ولكن لاشك انك لاحظت ان اديث عرجاء ؟ ألم تر ساقيها الكسيحتين ؟ ألم تر انها لا تستطيع ان تخطو خطوة بغير عكازتيها ؟ كيف طوعت لك نفسك أن تدعوها للرقص ايها الو ..

وملكت نفسها بسرعة ، وامسكت عن اتمام الكلمة الجارحة واستطردت

ـ يا الهى .. هذا مخيف ، يجب ان اذهب اليها فورا ..

فأمسكت بساعدها ، وهتفت فى يأس :

ـ صبرا لحظة ... اتوسل اليك أن تبلغيها اعتذارى .. فاننى لم اكن اعلم ، لم يكن ممكنا أن أعلم ، فاننى لم أرها الا لحظة قصيرة امام مائدة الطعام .. ارجو ان توضحى لها ..

ولكنها لم تسمح لى باتمام عبارتى ، وجذبت ساعدها من يدى فى غضب ، وهرولت الى الغرفة الأخرى ..

وشعرت فجأة بجفاف فى حلقى وخيل الى أن كل شيء يدور حولى وأن الضحكات المرحة التى تتجاوب أصداؤها فى قاعة الاستقبال لم تعد تطاق ..

والح على خاطر واحد بعد بضع دقائق سيعلم الجميع ما حدث .. بعد بضع دقائق سأكون هدفا لنظرات السخرية والاحتقار والاشمئزاز ، وسينظر الى القوم من قمة راسى الى اخمص قدمى ويشيحون عنى بوجوههم وغدا صباحا ستكون فعلتى موضوع حديث أهل المدينة جميعا .. سيتندرون بها فى البيوت والمقاهى .. وسيصل نبؤها حتما الى زملائى الضباط وتكون الطامة الكبرى ..

وحانت مني التفاتة ، فرأيت والد الفتاة يشق طريقه بين المدعوين وعلى وجهه دلائل القلق والانزعاج ... أتراه قد علم بما حدث ؟ أتراه يبحث عني ؟ .. كلا ... كلا .. انني ارحب بأي شيء وبكل شيء ... الا أن القاه الآن ...

وشعرت فجأة بخوف منـــه ... ومن الجميع .. وبحركة لا ارادية ، يممت شطر الردهة المؤدية الى الباب الخارجي ...

وسألني كبير الخدم بمزيج من الدهشة والاحترام :

ـ هل اعتزم سيدى الضابط الرحيل عنا بهذه السرعة ؟..

فأجبتـــه :

ـ نعـــم ...

وما ان نطقت بهذه الكلمة حتى وددت لو استطيع استردادها .. فقد ادركت على الفور ، انني سأرتكب غلطة غبية اخرى أفدح من الاولى بالفرار بهذه الطريقة التي تنطوي على الجبن والنذالة .

ولــكن التراجع كان مستحيلا بعـــد أن قدم لى معطفى ، وتقدمنى الى الباب الخارجي ...

وهكذا وجدت نفسى فجأة خارج ذلك البيت الغريب الملعون والريح الباردة تلفح وجهى الذى يضـــطرم خجـلا ، وقلبى مثقل بالحزن والألم ، وانفاسي تتردد متقطعة كمـــا لو كنت اوشك على الاختناق ...

***

هذه هي الغلطة التعسة التي كانت بداية القصة كلها ...

وحين انظر الآن ، بعـــد انقضاء كل هذه السنين ، الى هـــذا الحادث البسيط الذى جر فى اعقـــابه سلسلة من الـكوارث ، لا يسعنى ، انصافا لنفسي ، الا ان اؤكد انني انما تورطت في تلك الغلطة التعسة بحسن نية ، وان اى انسان مهما أوتى من الذكاء واللباقة وقوة الملاحظة قد يدعو احدى الفتيات الى مراقصته دون أن يعلم انها كسيحة ..

ولكني من فرط حيائي واضطرابي واحساسي بالضيق والحرج ، خيل الى فى ذلك الوقت أن ما فعلته ليس مجرد خطأ بسيط ، ولكنه جريمة ، وجريمة بشعة فى حق الانسانية والتقاليد والذوق السليم .. كما لو كنت ضربت طفلا بريئا بسوط ..

وقد كان من الممكن تدارك الموقف بقليل من اللباقة وسرعة الخاطر ولكنى زدته تعقيدا حين فررت كالمجرم دون أن أقوم باية محاولة للاعتذار ..

وليس فى استطاعتى أن أصف حالتى النفسية والعقلية وأنا واقف أترنح خارج القصر ..

كانت الأنوار الكهربية لا تزال تسطع ، ولكن الموسيقى كفت من العزف .. ولا شك أن الموسيقيين كانوا يلتمسون بعض الراحة ، غير أن ذهنى المضطرب صور لى أن القوم انما كفوا عن الرقص بسببى ، وان الجميع قد خفوا الى الفتاة المنكودة الطالع للترفيه عنها ، وان المدعوين جميعا لا حديث لهم الآن الا عن ذلك الماجن السخيف الذى دعا فتاة كسيحة للرقص ، وما أن أرضى مزاجه السقيم بهذه الدعابة السمجة حتى أطلق ساقيه للريح ، كما يفعل أى نذل ..

وغدا ، سيعلم أقرانى وأصدقائى فى الثكنة بما حدث .. وتخيلت صديقى الثرثار (فيرنز) مقبلا على ، وفى عينيه نظرة احتقار وشماتة وهو يبادرنى بقوله : ماذا فعلت بالأمس يا أنطوان؟ لقد جلبت العار للفرقة كلها ..

ولسوف يستمر التنكيت والتبكيت شهورا طويلة .. هكذا تجرى الأمور فى مجتمعنا نحن ضباط الحامية ، لا يكاد أحدنا يتورط فى حادث حتى يجتره زملاؤه طيلة العشرة أو العشرين عاما التالية ..

انهم ما زالوا الى اليوم ، يتشدقون بحادث فريد وقع للكابتن وولنسكى منذ ستة عشر عاما .. فقد عاد هذا الضابط من فيينا

ذات ليلة وراح يحكي لزملائه وهو منتفخ الأوداج غرورا وخيلاء كيف أنه تعرف على الكونتس (ت) نجمة المجتمع النمسوى وكيف أنه قضى معها الليلة نفسها فى شقتها الأنيقة ..

وبعد يومين ، أذاعت الصحف قصة خادمة جريئة طردتها الكونتس (ت) من خدمتها ، فانتحلت الخادمة اسم سيدتها ، واحتالت على بعض المتاجر ، وانغمست فى عدد من المغامرات الغرامية باعتبارها الكونتس ..

ان من يضع نفسه موضع السخرية أمام الفرقة مره واحدة ، يظل كذلك الى الأبد .. فلا نسيان ولا مغفرة ..!!

وهكذا خيل الى فى تلك الليلة ، أن الانتحار أهون الف مرة مما تخبئه لى الأيام القلائل التالية ..

ولست أدرى كيف بلغت غرفتى ، كل ما أذكره إننى القيت بنفسى على الفراش دون أن أخلع ثيابى .. وحاولت استعراض الحوادث فى هدوء وسكينة ..

ولكن الظلام تربة صالحة لأعجب التصورات والاوهام ، وكما ينمو النبات المتسلق على غير هدى فى الغابات الاستوائية ، كذلك تنمو وتتضخم وتتفرع الافكار والمخاوف فى ظلام الليل وهدائه ، فتتوالى الأوهام فى الذهن المكدود ، وتطارد بعضها بعضا ..

وقد صور لى الوهم أننى اصبحت انسانا منبوذا يسخر منه زملاؤه ، وينفر منه الناس انسانا لا يجرؤ على مغادرة غرفته ، ولا يستطيع السير فى الطرقات ، خشية أن يلقى أحداً ممن شهدوا جريمته ..

وغلبنى التعب ، فغفوت اغفاءة المحموم ، واستيقظت وأنا أتصبب عرقا ، وكان أول ما رأيته وتخيلته ، صورة ذلك الوجه الشاحب المتشنج ، والشفتين المرتجفتين ، واليدين القابضتين على حافة المائدة .. بل وخيل الى اننى أسمع صوت سقوط العكازتين ..

ولكن من حسن الحظ أن الشمس كانت قد بزغت فسمعت وقع خطى فى الردهة اما غرفتى . وجلبة عربات النقل فى الشارع ،

ومع ضوء النهار ، تستقيم أفكار المرء وتصبح اكثر وضوحاً وواقعيـة ..

قلت لنفسي : لعل الموقف ليس من السوء كما تصورته ، وربما لم ير الحادث الا قلة من المدعوين .. وطبيعي أن الفتاة المسكينة هي أول من تأثر به .. وليس شك في أنها لن تنساه ولن تغفر لي مدى الحياة ..

وخطر لي خاطر فجائي ، فوثبت من فراشي ، واصلحت من هندامي وهبطت درج السلم وثبا واجتزت فناء الثكنة دون ان احفل بتحية الجنـود الذين انتشروا في المكان انتظـارا لطابور الصباح ، وما هي الا لحظات حتى كنت في طريقي الى الشـــارع الرئيسي حيث يوجد اكبر حانوت لبيع الزهور .. وقد غاب عني من فرط حماستي للخاطر الذي طرأ لي ؛ ان الحوانيت لا تفتح ابوابها في منتصف الساعة السادسة صباحا ، ولـكن من حسن الحظ أن السيدة جرتنر كانت تتجر في الخضر والزهور في وقت معا ، وقد وجدت بباب الحانوت عربة تفرغ شحنتها من الطاطس وكان لابد لي من عذر يبرر وجودي في ذلك الوقت المبكر فقلت للسيدة انني نسيت أمس أن اليوم هو عيد ميلاد شخص عزيز علي ، ولمـا كان عملي سيشغلني بقية النهـار ، فانني اريدها أن تعد باقة من اجمل زهورها ، وتبعث بها فورا الى العنوان الذي ساذكره لها ..

فسألتني : اتعقد الزهور في باقة .. أم تضعها في سلة جميلة انيقـة ؟ ..

فاجبتهـــا !

ــ بل ضعيها في اجمل سلة عندك ..

وكان معنى ذلك انني سادفع كل ما بقي معي من نقود ثمنـا للزهور والسلة .. ولكن ذلك لا يهم .. انني ارتكبت خطأ يجب التكفير عنه ، وكلما ارتفع الثمن ، كان التكفير أوفى وأتم ..

وسألتني عن اسم الشخص الذي ستبعث إليه بالزهور ..

فأجبتهـــا :

ـ الآنسة اديث فون كسفالفا ..

فهتفت في خيلاء :

ـ آه ... نعم ... نعم .. انهم خير عملائي . الا تريد أن ترفق الزهور بكلمة تهنئة تحمل اسمك ؟ ...

ـ طبعـا ...

وتناولت احـدى بطـاقاتي وكتبت عليها هاتين الـكلمتين : « مع الاعتذار » ...

ولـكن لا .. هذه غلطة جديدة ... تذكرها بغلطتي الأولى... فلماذا انكأ الجرح ؟ . هل أكتب اليها « مع عظيم الأسف » ؟ .. كلا .. من الخير الا اكتب شيئا على الاطلاق .

قلت محدثا السيدة :

ـ بحسبك أن تضعي بطاقتي مع الزهور ...

وتنفست الصعداء ، وعدت أدراجي الى الثكنة حيث تناولت قدحا من القهوة واشتركت في طابور الصباح ، واضطلعت بسائر واجباتي العسكرية بحماسـة غير مالوفة ، على أمل ان يصرفني العمل عن التفكير في حوادث الأمس ...

وحول الظهر لحق بي تابعي وأنا أهم بالانطـلاق الى قاعـة الطعام ، وقدم لي رسالة زرقاء مستطيلة ، تفوح منها رائحة عطرية منعشة ، وقد كتب اسمي وعنواني علىغلافها بخط نسائي دقيق .

وفضضت الرسالة بسرعة وقرات فيها :

« شكرك من كل قلبي ياسيدي الضابط العزيز ، على الزهور البديعة التي أهديتنيها ، والتي وجدت فيها وما أزال أجد متعـة لعيني ، وراحة لنفسي ، فهلا تفضلت بتناول الشاي معنا بعد ظهر أي يوم يلائمك ؟ ...

لا ضرورة لتحديد موعـد ، فسوف تجدني في البيت في كل وقت ، لانني ـ مع الأسف ـ لا ابارحه أبدا » ..

«اديث»

وتذكرت الأنامل الرقيقة التى كتبت هذه الرسالة حين تعلقت بحافة المائدة ، والوجه النحيل الشاحب حين احتقن غضبا وانفعالا وامدت تلاوة الرسالة مرة ثانية .. وثالثة ..

فقد كتبتهـــا صاحبتها ببراعة عظيمة ، فمرت بهفوتى مرور الــكرام واعربت عن صفحها عنى واستعدادها لمقابلتى والمحت فى ذات الوقت الى علتها بلباقة وكياسة . وهل كان من الممكن ان تعبر من ذلك كله بعبارة أنبل وأكرم من قولها « لا ضرورة لتحديد موعد » فســوف تجــدنى بالبيت فى كل وقت ، لأننى — مع الاســف — لا أبارحه أبدا » ..

وتنفست الصعداء ، وخيل الى كأن عبئا ثقيلا أزيح عن صدرى وشعرت كما يشعر المتهم الذى يتوقع الحكم عليه بالســجن المؤبد ، فاذا القاضى يحكم بالبراءة .

***

الآن ، لن يجرؤ أحد على ان يعيرنى بفساد الذوق ، واذا أوتاما خبيث ان يلمح الى حادث الأمس بقوله : وكيف تجرى الأمور الآن فى قصر آل كسفالفا ؟ استطعت أن أجيبه فى اطمئنان : « انهم قوم كرام ، وسأتناول الشاى معهم غدا » ..

***

كانت المسافة بين الثكنة والقصر لا تستغرق أكثر من نصف ساعة سيرا حثيثا على الأقدام ، فبعد مسيرة خمس دقائق وسط شوارع المدينة ، يجد الانسان نفسه بين الحقول فى الطريق الزراعى المؤدى الى ساحة العرض وهو طريق تعرف جيادنا كل شبر فيه .

وعند منتصف المسافة تقريبا بين الثكنة وساحة العرض ، يتفرع طريق جانبى تحف به أشجار الكستناء ، ويمتد بمحاذاة غدير رقراق الى حيث يوجد قصر آل كسفالفا ..

ومن عجب ان القصر ما كاد يتراءى لى بأسواره الحديدية وجدرانه البيضاء ، حتى تبخرت شجاعتى ، كما يحدث لمن يذهب

الى عيادة طبيب الاسنان ، فلا يكاد يصل الى بابها حتى يبحث عن عذر يبرر به ارجاء الزيارة .

والواقع انه لم يكن هناك ما يحتم ان تكون الزيارة فى ذلك اليوم بذاته .. ثم ان رسالة الفتاة كان فيها فصل الخطاب ، فلماذا لا انفض يدى من الامر كله واعتبره منتهيا ؟ .
وابطأت فى مسيرى ....

ان الانسان يطيب له دائما ان يكسب مزيدا من الوقت قبل الوصول الى هدف لا ترتاح إليه نفسه ، وهكذا خطر لى ان اقوم بجولة حول القصر ، فعبرت الغدير وسرت فى الحقول بمحاذاة الاسوار

كان القصر مشيدا بالحجارة على الطراز النمسوى القديم وهو يتألف من طابقين ، ويفصله عن الأسوار فناء واسع تحيط به مبان منخفضة لا شك أنها تضم مساكن الخدم والأتباع وحظائر الجياد والمركبات ....

والقصر من الخارج يختلف تماما عنه من الداخل ، فقد خيل إلى يوم دعيت اليه انه « فيلا » عصرية شيدت على الطراز الحديث ولكنى الفيته من الخارج لا يختلف كثيرا عن قصور كبار الملاك فى بوهيميا . شىء واحد كان يتميز به عن أمثاله هو ذلك البرج المربع الضخم الذى يناطح السحب وتذكرت اننى كثيرا ما لمحت هذا البرج من ميدان العرض ، فحسبته برج احدى الكنائس القديمة ..

***

وانتهى طوافى حول القصر ، وعدت أدراجى الى بابه الحديدى الكبير ، وهناك جمعت اطراف شجاعتى ، وتناولت المطرقة النحاسية الضخمة التى تؤدى فى هذه القصور القديمة وظيفة الأجراس .. وقرعت الباب ، وما هى الا لحظات حتى أقبل كبير الخدم واستقبلنى دون أن تبدو عليه دلائل الدهشة لزيارتى غير المتوقعة بل انه لم يتناول البطاقة التى قدمتها اليه ، وانما

انحنى قامته فى ادب ودعانى الى الدخول ، حما يشعر بانه كان يتوقع هذه الزيارة ..

وتقدمنى كبير الخدم الى قاعة الاستقبال ، وهناك طلب الى الانتظار قليلا .. وقال :

ـ ان الآنستين ما زالتا فى غرفتهما ، ولكنهما ستأتيان بعد دقائق ..

ووقفت فى قاعة الاستقبال اتأمل اللوحات الفنية الثمينة التى لم يتح لى رؤيتها فى الزيارة الأولى ، وسمعت فى الفرفة المجاورة همسا ووقع أقدام كثيرة ، وحركة مقاعد وموائد تنقل من مكانها او يعاد تنظيمها ، ومرت بجسدى رعدة شديدة حين خيل الى اننى سمعت كذلك دبيب العكازين ..

واخيرا فتح باب فى الجدار القائم بين قاعة الاستقبال والغرفة المجاورة ، ودخلت أيلونا ..

قالت ترحب بى :

ـ اهلا بك وسهلا يا سيدى الضابط ..

وقادتنى توا الى الفرفة المجاورة ..

وهناك ، فى نفس الركن ، وعلى نفس المقعد ، وأمام نفس المائدة ، جلست الفتاة الكسيحة وقد وضعت على ركبتيها غطاء من الفراء الأبيض الثمين أخفى ساقيها ..

كان من الواضح أنها تحرص على الا تذكرنى بالحادث ..

وحيتنى اديث بابتسامة رقيقة ومدت لى يدها عبر المائدة ..

ثم ساد بيننا صمت محرج ، ولم يجد أحدنا كلمة تذيب الثلج ..

وأخيرا القت أيلونا سؤالا بدد الصمت الخانق ..

قالت تحدثنى :

ـ ماذا تفضل يا سيدى الضابط .. القهوة أم الشاى ؟..

فاجبت :

ـ أيهما تريدين ؟ ..

ـ ارجو أن تطرح الكلفة جانبا .. أيهما تفضل ؟..

ـ القهوة اذن ..

وهكذا استطاعت أيلونا بلباقتها أن تلطف التوتر ، ولكنها كانت قاسية أشد القسوة حين غادرت الغرفة فورا لتأمر باعداد القهوة والشاي ، وتركتني وحيدا مع ضحيتي ..

واصبح لزاما على أن اقول شيئا ، أى شيء يبدد الصمت .

واشفقت في ذات الوقت ان انظر نحوها حتى لا تظن انني اتأمل الغطاء الذي يحجب ساقيها الكسيحتين ..

ويبدو انها لاحظت ارتباكي ، فخفت الى نجدتي ، وفتحت باب الحديث الذي استعصى على بقولها :

ـ الا تتفضل بالجلوس يا سيدى الضابط ؟.. ولماذا لا تخلع سيفك ؟ سيكون بيننا سلام ، اليس كذلك ؟ ضع السيف على المائدة .. أو على حافة النافذة ..

وكانت تتكلم بحدة وانفعال ، وبالطريقة العصبية التي لاحظتها في مقابلتنا الأولى ..

ونظرت حولي باحثا عن مقعد ، ولاحظت الفتاة انني مازلت مرتبكا ، فخفت لنجدتي مرة أخرى ..

قالت :

ـ يجب أن اكرر لك الشكر على هذه الزهور الرائعة ، انظر كم هي بديعة في الآنية .. واظن .. واظن انني يجب أن اعتذر كذلك عن ثورتي الحمقاء .. حقا ، ان سلوكي كان مخجلا ، واؤكد لك انني لم يغمض لي جفن في تلك الليلة من فرط الخجل ، اما انت فكان تصرفك مهذبا وبريئا ، ومن المحقق انه لم تكن لديك اية فكرة ..

والواقع ..

وضحكت فجاة ضحكة عصبية ثاقبة واستطردت :

ـ والواقع انك ادركت تماما ما كان يدور بخلدي .. لقد جلست هنا خصيصا لأشاهد الراقصين ، وجئتني انت في ذات اللحظة التي تمنيت فيها لو استطيع الاشتراك في الرقص ..

انني مفتونة بالرقص ، واستطيع قضاء الساعات الطويلة في

مراقبة الراقصين ؟ أستطيع أن أراقبهم الى أن ينبض جسدي يمثل حركة من حركاتهم ، وحينئذ أحس بأنني أنا التي ارقص واتمايل وأدور ..»

لقد أحببت الرقص واجدته منذ الصغر ، وكل أحلامي الآن تتركز في الرقص ، واحسب ان الله كان رحيما بأبي يوم ابتلاني بهذا المرض الذي اقعدني ، ولولا ذلك لهربت من البيت لأعمل راقصة ..»

وبهذه المناسبة اقول لك ، لأبين لك مدى حماستي واهتمامي بالرقص ، انني أجمع صور كبار الراقصات ، امثال سهاريت وبافلوفا وكارسافينا .. ومجموعتي من الصور تمثلهم في جميع ادوارهم ومواقفهم .. صبرا لحظة .. سأريك اياهم .. ان الصور في ذلك الصندوق الصغير بالقرب من الموقد .. ذلك الصندوق الصيني الأسود .. كلا .. كلا .. كلا .. هناك ، الى يسار المكتب .. يا الهي .. انك بطيء كالسلحفاة .. نعم .. هذا هو الصندوق ..»

وكانت تتكلم بسرعة وحدة وفروغ صبر ، فناولتها الصندوق .. وعدت الى مكاني ..

ففتحته وقالت :

ـ انظر الى هذه الصورة .. انها أحب الصور الى .. وتمثل بافلوفا في دور البجعة .. سيكون اسعد يوم في حياتي ، يوم أستطيع أن أرى بافلوفا واتعقبها الى كل مكان تذهب اليه

وفي هذه اللحظة ، فتح باب الغرفة ببطء ، فأقفلت اديث الصندوق بحركة من يضبط متلبسا بجريمة ، وهمست بلهجة الآمر

ـ حذار ان تتفوه أمام الآخرين بكلمة واحدة مما ذكرته لك .. حذار ..»

وظهر بالباب الخادم الأشيب الذي فتحه ، وجاءت في اثره ايلونا وهي تدفع امامها عربة صغيرة عليها أقداح الشاي والقهوة وصحاف الفاكهة والحلوى ..

وملأت ايلونا الأقداح ثم جلست على مقربة منا وعندئذ فقط احسست بالطمأنينة وعادت الى ثقتى بنفسى ..

ودار بيننا حديث طريف عن القطط ، اثاره القط الفارس الضخم الذى تسلل مع عربة الشاى وقبع فى هدوء تحت مقعدى.
وبعد هذا الحديث ، تعرضت لوابل من الأسئلة : متى تخرجت من الكلية العسكرية ؟ وكم مضيت فى هذه المدينة ؟ وهل تذهب كثيرا الى فيينا ؟ الخ ..
وسرعان ما صفا الجو ، وزال التوتر ، وجرى الحديث سهلا طبيعيا كما تجرى الأحاديث بين الأصدقاء ..
واستجبت لنفسى أن اتأمل الفساتين عن كثب ، وان أقارن بينهما ..
كان الاختلاف بينهما تاما ، فايلونا شابة ناضجة صحيحة الجسم ، صارخة الأنوثة ، بينما تبدو أديث الى جانبها مراهقة فى السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها ، نحيفة عليلة ..
الأولى ساحرة فاتنة كل ما فيها يغرى بمراقصتها وتقبيلها ؟ والثانية طفلة مريضة مدللة ، تريد من يلاطفها ويحميها ويرفه عنها ..

والواقع .. ان كل شىء فى اديث ، كان ينم عن القلق الغريب الذى يغرى جسدها ...
ان قسمات وجهها لا تهدأ على حال ، وحدقتاها تتحركان فى محجريهما باستمرار كالزئبق فى يد الأشل ، انها تنظر الى اليمين تارة والى اليسار تارة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضطجع الى الوراء كمن خارت قواه .. وهى تتكلم بسرعة ، وبطريقة عصبية دون أن تتريث لتلتقط أنفاسها ..

ترى هل عوضتها الطبيعة عن الجمود الذى فرضه عليها المرض قلقا دائما وحركة دائبة ؟..
ــ ربما ... !

***

واستمرت الجلسة ساعة أو بعض ساعة ، وفجأة رأيت شخصا يدخل من قاعة الاستقبال وهو يمشي في حذر كأنما يخشى أن يزعجنا ..

كان القادم هو الهر فون كسفالفا .. وقد هتف بي حالما رآني اهم بالوقوف تأدبا :

ـ أرجوك أن تبقى حيث أنت ..

وانحنى فوق ابنته وطبع على جبينها قبلة سريعة ثم تناول احد المقاعد في حذر شديد ، وجلس عليه في هدوء دون أن يحول عينيه عن وجه أديث ..

ومن عجب ان جو الغرفة غشيته في الحال سحابة حزن واسى ، ذلك ان الرجل لم يكف لحظة عن اختلاس النظرات الى وجه ابنته ، وفي عينيه مزيج عجيب من القلق والحزن والحنان والأمل .. ولعله احس اخيرا بالصمت الذي ران علينا منذ قدومه ، لأنه حاول وصل ما انقطع من حديثنا فسألني عن فرقتي وقائدها ، وعن القائد السابق للحامية الذي نقل الى وزارة الدفاع ، وخيل الى أنه يحرص أشد الحرص ـ لسبب لم افهمه ـ على أن يشعرني بأنه وثيق الصلة بجميع الضباط العظام في الجيش ..

وعندما فكرت في الانصراف وهممت به ، فتح باب الغرفة ودخل كبير الخدم في هدوء ودون أن نسمع له خطى كما لو كان حافي القدمين ..

واقترب الرجل من أديث وهمس في اذنها كلاما ، فثارت الفتاة على الفور وصاحت :

ـ دعه ينتظر .. كلا .. كلا .. دعه يذهب عني اليوم ، فلست بحاجة اليه ..

وشعرنا جميعا من ثورتها وعنفها بحرج شديد ، وخيل الى انني اطلت الزيارة أكثر مما ينبغي ، فنهضت واقفا لاستأذن في الانصراف ، ولكنها صاحت بي ، على نحو ما صاحت بالخادم :

ـ كلا .. ابق ..

وكانت فى لهجتها واسلوبها خشونة شــعر بها ابوهــا فقال يؤنبها فى رفق

ـ اديث .. !!

ويبدو ان الفتاة احست من صوت ابيها ، ومن دلائل الحرج والاستياء التى بدت علي ، انها تجاوزت كل حد ، لانها تحولت الى فجاة وقالت :

ـ ارجو المعذرة ، ولــكن كان فى استطاعة جوزيف ان يتريث قليلا بدلا من ان يقتحم علينا الغرفة على نحو ما فعل .. لقد جاء يذكرنى بعذاب كل يوم .. جاء يذكرنى بجلســة التدليك الذى أمر به طبيبنا العــزيز .. التــدليك ! ! كلام فارغ .. وعــذاب لا فائدة منه ..

ونظرت الى ابيها متحدية كأنه المسئول عما تعانى فقال الرجل فى خجــل

ـ ولكن يا ابنتى العزيزة .. هل تظنين أن الدكتور كوندور...

على انه لم يتم عبارته ، فقد رأى شفتيها ترتجفان وتنذران بعاصفة مخيفة كالعاصفة التى شهدتها فى تلك الليلة المشئومة .

ولــكنها سيطرت على غضبها فجاة واحمر وجهها ، وقالت فى رضوخ ودعة

ـ حسنا .. سأذهب اذن وان كنت لا أومن بالنتيجة ..

معذرة يا ســيدى الضابط ، ارجو ان تعود لزيارتنا فى وقت قريب ..

فأحنيت لها قامتى وهممت بالانصراف ، ولــكنها غيرت رأيها مرة اخرى وقالت :

ـ كلا ابق مع ابى حتى انصرف ..

قالت ذلك بأســلوب أقرب الى التهديد ، ثم تناولت ناقوسا صغيرا دقته بحركة عصبية ، وقــد لاحظت فيما بعد ان هناك نواقيس كثيرة مماثلة وضعت خصيصا على جميــع الموائد حتى يتسنى لها دعوة الخدم فى اية لحظة ..

وعلى رنين الناقوس ، دخل كبير الخدم مهرولا فقالت له بلهجة الآمر :

ـ ساعدني على النهوض ..

وقذفت بالفراء الأبيض الذي يغطي ساقيها ، وفي هذه اللحظة انحنت أيلونا فوقها وهمست في اذنها كلاما ولكن الفتاة صاحت في ضجر وغضب :

ـ كلا .. سيساعدني جوزيف على النهوض .. وسأسير وحدي بعد ذلك ..

***

وما حدث بعد ذلك كان مخيفا ومؤلما ، فقد امسك بها جوزيف من تحت ابطها ورفعها ، واسندت الفتاة يديها على مقعدها وانتصبت واقفة ، ورمقتنا بنظرة تحد شملت كل واحد منا ، ثم تحسست مكان عكازيها وتوكأت عليهما وهي تزم بشفتيها ، وبدأت بعد ذلك تدب على الأرض دبيبا منتظما وتقدم رجلا وتؤخر اخرى وتتمايل بكل جسدها ذات اليمين وذات اليسار ، والخادم من ورائها باسط يديه ليتلقفها اذا انزلقت أو انهارت ، ومع كل خطوة تخطوها كنت اسمع جرير شيء من المعدن أو الجلد أو منهما معا ، فأدركت ، دون أن اجرؤ على النظر الى ساقيها ، أن كعبيها مشدودتان الى نوع ما من الأجهزة لمساعدتها على السير ..

واحسست وانا اشهد هذه التجربة المؤلمة كأن اصابع من الثلج تقبض قلبي ، لأنني ادركت على الفور انها رفضت كل مساعدة .. ورفضت أن تنقل على مقعدها ذي العجلتين لكي ارى ، انا بصفة خاصة ولكي يرى الجميع انها كسيحة ولكي نتألم لها نحن الذين نستمتع بنعمة الصحة ، كما تتألم لنفسها ..

وقد ادركت من هذا التحدي ، كما لم ادرك من ثورتها في المرة السابقة ، مدى ما تعانيه المسكينة من علتها وعجزها ..

وبعد فترة من الوقت ، كانت اطول من دهر ، وصلت الى

الباب وغادرت الغرفة ، وظل دبيب عكازيها ، وصوت انفاسها اللاهثة يتضاءل بالتدريج حتى تلاشى تماما ..

وحينئذ فقط وجدت الجراة على ان ارفع راسى واجيل البصر حولى ، فرايت الأب قد تسلل الى النافذة وراح ينظر منها الى شيء ما ، أو الى لاشيء ..

وساد الغرفة سكون عميق .. حتى تحول الرجل أخيرا عن النافذة واقبل نحوى وهو يترنح كمن يسير على ارض ملساء .. قال :

ـ ارجو ان تغفر لها يا سيدى الضابط ، فانك لا تعلم كم قاست طيلة هذه السنين .. وكم جربت من أنواع العلاج ..

ان لها كل الحق فى أن تفقد صبرها ، ولكن ما حيلتنا ؟ أليس من واجبنا ان نجرب كل وسيلة ؟ ! ..

وكان يتكلم دون أن ينظر الى ..

كانت عيناه تحدقان من وراء نظارته الى آنية السكر ، وقد تناول منها قطعة راح يقلبها بين اصابعه ويحملق فيها بعينين شاردتين ثم يردها الى مكانها ..

واستطرد قائلا وكأنه يتحدث الى قطعة السكر

ـ ليتك فقط رأيتها قبل ان تنزل بها هذه الكارثة .. كانت تصعد درج السلم وتهبطه وثبا ، ولا تكف عن الحركة طول النهار ، ولما بلغت الحادية عشرة كانت تطوى المزرعة على ظهر جوادها ولا يستطيع احد اللحاق بها كنت وزوجتى المسكينة نحبس انفاسا خوفا من عواقب جراتها وحيويتها المتدفقة ، لم يكن ينقصها الا الأجنحة لكى تطير .. الى أن اصابتها هذه الكارثة من دون الناس أجمعين ..

وتنهد الرجل واستطرد :

ـ ومع ذلك ، ورغم كل ما اصابها ، فانه ليس ايسر من اسعادها وادخال السرور على نفسها .. انها كالأطفال تفرح بأى شيء ، وتغرق فى الضحك لابسط النكات .. كنت اتمنى لو

انك رأيتها حين جاءتها سلة الزهور التى بعثت بها اليها ، كنت اتمنى لو انك رأيت مبلغ فرحها بعد أن اطمأنت الى أن سلوكها لم يخدش شعورك ! !

انها مرهفة الحس الى أبعد حد ، وانا واثق من ان احدا لا يتألم من نوراتها كما تتألم هى ، ولكن كيف لمثلها أن تسيطر على اعصابها ؟ . كيف لمثلها ان تصبر على ما ابتلاها الله به ، اكثر مما صبرت ؟ ..

معذرة يا سيدى الضابط ، فما اردت أن ازعجك بمتاعبنا ، كل ما اريده هو الا تظن بها سوءا ، وان ...

ولا ادرى كيف واتتنى الشجاعة للاقتراب من الرجل ؟ ولكني وجدت نفسى فجأة اتناول يده واضغطها بين يدى ... دون انطق بكلمة واحدة ..

ونظر الرجل الى فى دهشة ، واغرورقت عيناه بالدموع ..

واحسب أننى لم أكن اقل منه تأثرا ، لاننى لم اطق البقاء لحظة أخرى ..

***

وفى صباح اليوم التالى ، خرجت على رأس فرقتى فى الطريق الى ساحة العرض للقيام بتمرينات الصباح

وكنت احب ركوب الخيل واجيده ، وأجد متعة فى استقبال نسمات الصباح المشبعة بالندى ، وتنسم رائحة الحقول والنبات فى الصباح المبكر ، فلكزت جوادى ، وانطلقت به أسابق الريح ، وسائر الجياد من خلفى تضرب الأرض بسنابكها فى حركة منتظمة كانغام الموسيقى ..

وفجأة ، حانت منى التفاتة فرأيت القصر وبرجه الشاهق الأبيض والأشجار الباسقة التى تحيط به ، وومض فى ذهنى خاطر عجيب صدمنى كأنه رصاصة مسدس ، وقلت لنفسى ، من أدراك انه لا يوجد الآن فى هذا القصر شخص يراك .. شخص خدشت شعوره بهوايتك للرقص ، وهانتذا تخدش شعوره مرة اخرى

بهوايتك ركوب الخيل .. شخص محطم كسيح يؤلمه أن يراك تمرق امامه كالطير الطليق ..

واحسست بالخجل من نفسى ، ومن حريتى ، ومن صحتى الموفورة ، وجذبت عنان الجواد .. وسرت به الهوينا ، وحذا الجنود حذوى على كره منهم ..

كان من الغباء ان احاسب نفسى هذا الحساب العسير ، فان من العبث أن ينكر الانسان على نفسه احدى المتع ، لا لشىء الا لأن بعض الناس قد حرموا منها ، ومن العبث أن يرفض الانسان السعادة ، لأن فى الدنيا بعض الأشقياء ..

ان وراء الجدران ، فى البيوت والمستشفيات وفى المناجم والمكاتب ، فى كل لحظة من الليل والنهار ، آلاف من الناس يتألمون ويشقون ويكدحون ويتضورون جوعا ولن يرفه عن أى واحد من كل هؤلاء ان يشقى انسان نفسه بلا مبرر .. ولو قد تخيل كل انسان ما فى الدنيا من الوان البؤس والشقاء لهجر النوم الجفون وتلاشت الابتسامات عن الشفاه ..

ولكن ما يمض الانسان ، ويقض مضجعه ، ليس الشقاء الذى يتخيله ، وانما الشقاء الذى يراه بعينه ويلمسه بيده .. ولقد رايت بعينى ولمست بيدى فى هذا القصر فتاة كسيحة تدب على الأرض بعكازيها ، فأشفقت عليها من ان ترانى أنعم بالصحة والمرح والسعادة وهى الشقية بعلتها ، الحبيسة فى مقعدها ..

وهذا الشعور بالشفقة والعطف كان شيئا جديدا بالنسبة الى .. شيئا مثيرا مقلقا فى وقت واحد ، شيئا حذرتنى عزيزتى من قبوله والاستسلام له ..

قلت لنفسى بحسبك ما حدث .. لقد اعتذرت لها وانتهى الأمر ..

ولكن صوتا آخر فى أعماقى هتف بى : بل اذهب اليها مرة أخيرة .. عسى ان ترفه عنها وتؤنس وحشتها ..

وقالت غريزة الحذر : دعها وشأنها ، ولا تفرض نفسك عليها ..

احذر هـذه العواطف الرخيصة ، ولا تورط نفسك فيما لا شأن لك به ..... »

ومن عجب أن القرار انتزع مني دون أن يكون لي فيه رأى ؛ فقد وجدت على مائدتي بعد بضعة أيام رسالة من فون كسفالفا يدعوني فيها لتناول العشاء على مائدته في مساء الأحد التالي ؛ وجاء في الرسالة أن جميع المدعوين سيكونون من الرجال ،وسيكون بينهم الكولونيل فون هالدر ، من وزارة الدفاع .. وأن ابنته وايلونا سوف يسرها كثيرا أن ألبى الدعوة .. الخ .

وأقول الحق ، ان هذه الدعوة ملأتنى فخرا ، فليس من المألوف أن يظفر ضابط صغير خجول مثلى بمجالسة ضابط عظيم كالكولونيل فون هالدر

واذا دلت هـذه الدعوة على شيء ، فانما تدل على أن كسفالفا يسعى بلباقة الى توثيق الصلة بينى وبين بعض ذوى النفوذ ..

ولم أندم على أننى قبلت الدعوة دون تردد ، فقد كانت السهرة ممتعة حقا ، وفيها بذل كسفالفا جهدا واضحا للفت الأنظار الى ؛ ولأول مرة في حياتي وجدت ضابطا عظيما يتحدث الى في غير كلفة ويسألني عن فرقتي وعما اذا كنت سعيدا في عملي ، ويطلب الى الا اتردد في الاتصال به في أى وقت اذا احتجت لمعونته .

وقد حفلت المائدة في هذه المرة أيضا بألوان من الطعام لم أكن أعرفها الا سماعا ، وتمنيت لو شهد بعض زملائى الضباط الذين طالما تشدقوا بسهراتهم في مطاعم فيينا هذه المأدبة لكى يتواروا خجلا ، نعم ليتهم يروننى وسط هذه النخبة المختارة من المواطنين ويرون الكولونل فون هالدر وهو يشرب نخب صحتى

***

وانتقلنا بعد الطعام الى قاعة الاستقبال حيث قدمت لنا القهوة والسيجار الفاخر .

وانتهز كسفالفا فرصة انصراف القوم الى الحديث واقترب منى وسألنى في همس أيهما أفضل ، لعب الورق مع الرجال ، أو الحديث

مع الفتاتين ، فاعتذرت عن اللعب لسببين ، أولهما انه لا يخلق بى أن اغامر مع ضابط عظيم فى وزارة الدفاع ، اذا ربحت نقوده استاء ، واذا ربح خسرت نقودى ، وثانيهما أننى لم أكن أملك سوى عشرين كورونا هى كل مابقى لى من مرتبى ..

وهكذا جلست مع الفتاتين . بينما راح القوم يلعبون الورق .. ما أضفى على كل شىء حولى جمالا وروعة ، كل ما أعلمه ، ان الفتاتين بدتا لناظرى فى تلك الليلة أشد فتنة مما رايتهما فى أى وقت مضى .. فلم تكن أديث سقيمة شاحبة اللون كالعهد بها .. وانما كانت موردة الوجنتين بادية المرح .. أما ايلونا ، فقد خيل الى من تألق عينيها انها أسرفت فى الشراب ، وكانت كلما ابتسمت ودفعت براسها الجميل الى الوراء ، حدثتنى نفسى بأن أهوى على فمها تقبيــلا

كان كل شىء حولى يغرى بالمرح والسعادة ، فطرحت الخجل جانبا ، وانطلقت أسرد على الفتاتين طرائف من الحياة العسكرية ، وضحكت أديث من كل قلبها ، ضحكات لا صناعة فيها ولا رياء .. كان جميلا أن يراها الانسان حين تنسى علتها .. انها تبدو حينئذ على سجيتها .. مرحة وديعة ، طيبة القلب ، سريعة الخاطر .

ووسط هذا المرح والمجون ، كان يخالجنى طول الوقت شعور غامض بأن هناك عينين ترقبانني من وراء نظارة ذات اطار ذهبى .. وبأن فى هاتين العينين نظرة تنم عن السعادة والرضا .

كانتا عينى كسفالفا ، وحدث مرة انهما تعلقتا بعينى لحظة ، فغمز باحدى عينيه ، واشرق وجهه بابتسامة قل أن تراها الا على وجه انسان ينعم بسماع نغم من أحب الانغام الموسيقية الى نفسه

***

وانتهت السهرة ، وشدت اديث وايلونا على يدى بحرارة كما لو كنت صــديقا قديما عزيزا عليهما ، وأبيتا على الانصراف قبل أن أعدهما بالزيارة فى اليوم التالى او الذى يليه ..

وتناولت معطفي ، وهممت بارتدائه ، وحينئذ شعرت بمن يمد يده لمساعدتي ، وذهلت حين وقع بصري على كسفالفا

لم يكن من المألوف أن يقوم شيخ نبيل مثله على خدمة شاب تافه مثلي ، ولاحظ الرجل دهشتي وارتباكي فقال في صوت خافت :

– ياعزيزي الضابط ، انك لا تستطيع أن تتصور كم اسعدني أن ارى ابنتي تضحك من كل قلبها ، كما كانت تضحك فيما مضى .. بارك الله فيك ..

وربت على كتفي في مودة وحنان ، بينما كانت في عينيه نظرة تعبر عن الشكر وعرفان الجميل ..

***

لم استسلم للنوم بسهولة في تلك الليلة .. وقضيت وقتا طويلا في التفكير فيما قاله كسفالفا ..

كانت تلك أول مرة في حياتي يقال لي فيها انني ذو فائدة لانسان ما على وجه الأرض ، وبهرني ان اكون ، انا الضابط الصغير ، الذي لا حول له ولا قوة مصدرا لسعادة لم يجدها الرجل الغني فون كسفالفا ، عند أي انسان آخر من اصدقائه ومعارفه الكثيرين .

وقلت لنفسي ، اصحيح أنني املك القدرة على اسعاد الآخرين ؟؟ وانني اذا ذهبت لقضاء بعض الوقت في حديث مع فتاة كسيحة معذبة توردت وجنتاها ، وعادت الابتسامة الى شفتيها ، وغمرت السعادة بيتا كان يسوده الحزن والكآبة ؟

وبعد ، ماذا فعلت من أجل هؤلاء الناس لكي أستحق صداقتهم وثقتهم وامتنانهم ؟

كل ما فعلته انني ابديت قليلا من العطف ، ونعمت في ذات الوقت بسهرتين رائعتين ..

اذن ما أضيع الوقت الذي تعودت ان اقضيه في السمر ولعب الورق بالمقهى !.

ماذا يضيرني لو قضيت بعض هذا الوقت مع الفتاة المريضة المسكينة وقريبتها ؟

وصحت عزيمتي على ذلك واحسست بسعادة لا حد لها ..

والواقع ان الانسان لا يشعر بأن لوجوده معنى ، الا اذا احس بأن لوجوده قيمة عند الآخرين ..

* * *

وكان انني اكثرت من التردد على قصر آل كسفالفا خلال بضعة الأسابيع التالية ، فكنت اقضى فيه عصر كل يوم وشطرا كبيرا من السهرة

ولم تلبث هذه الزيارات وما يتخللها من مرح وأحاديث ودية ان أصبحت عادة محببة تهفو اليها نفسي ، ولكنها عادة لاتخلو من خطر .

ذلك أنه ليس ما يغزى شابا قاسى مرارة الوحدة وقسوة الحرمان خلال السنوات العديدة التى قضاها فى الكليات العسكرية مثل أن يجد نفسه فجأة فى بيت يزخر بأسباب النعمة والرفاهية ويحفل بكل ما حرم منه طيلة حياته

كنت كلما فرغت من عملي ، حوالى الساعة الخامسة ، قصدت الى القصر ، ولا أكاد أصل الى بابه وارفع المطرقة ، حتى يفتح جوزيف الباب وكأنه كان يرقب قدومى من خلال ثقب خفى ..

وكان من الواضح ان الجميع يتسابقون الى اكرامى ويحرصون كل الحرص على أن يشعرونى بأن البيت بيتى ، وأننى أحد افراد الأسرة ...

لم يكن هناك شىء احبه ، مهما كان تافها ، الا أعدوه لى فى شىء كثير من الكياسة ، فالسجاير التى افضلها ، اجدها دائما فى انتظارى ، والكتاب الذى الح فى احدى الزيارات الى رغبتى فى قراءته ، أجده فى الزيارة التالية على المائدة ، وقد فصلت صفحاته بعناية ...

وكان هناك مقعد بعينه أفضل الجلوس عليه أمام مائدة اديث ، فتواضع أهل البيت على تسميته (مقعد الضابط) .. وكل هذا وعشرات الأشياء البسيطة الأخرى ، اوجدت حولى جوا من الالفة واشعرتنى باننى فى بيتى حقا ..

على أنه كان هناك عامل آخر خفى لعب دورا هاما فى اجتذابى الى القصر ، وذلك هو صحبة الفتاتين .

لقد قضيت حياتي كلها ؛ أو على الأقل ، الخمسة عشر عاما الأخيرة منها فى عزلة تامة عن الجنس الآخر ..

كنت من الصباح حتى المساء ، ومن المساء حتى الصباح ، فى قاعات الدرس ، وفى ميادين التدريب ، وفى عنابر النوم ، لا ارى من الآدميين الا الذكور ، ولا أحد غير الذكور حتى ألفت اصواتهم الخشنة وحركاتهم الجافة ، ووقع اقدامهم الثقيلة ورائحة التبغ التى تفوح منهم ، وكنت احب زملائى واقرانى ، ولكن مجتمع الرجال يفتقر دائما الى عوامل الاثارة والتشجيع وشحذ الهمم ، ويفتقر بالأكثر الى عناصر الرقة والكياسة والأناقة ، ومثلها لا توجد الا حيث توجد المرأة ..

كنا ونحن فتيان فى الخامسة عشرة من عمرنا نخرج للنزهة فى بزتنا الرسمية الموشاة بالذهب ، فنرى الفتيان فى مثل سننا يغازلون الفتيات ويتحدثون اليهن ويتأبطون سواعدهن فنشعر بالأسف لأن حياتنا العسكرية الخشنة تفرض علينا الفضيلة وضبط النفس وتحرم علينا صحبة الفتيات ، هذه المتعة التى ينعم بها الجميع فى الطرقات والحدائق والمراقص .. وكنا لذلك نختلس النظرات من بعيد الى هذه المخلوقات المحرمة علينا ، ونعد مجرد التحدث اليهن حلما صعب التحقيق ..

هذا الحرمان قلما ينساه الشباب بسهولة ، ومهما يقال عن المغامرات الرخيصة التى يصادفها الضابط الشاب ، فان هذه المغامرات لا يمكن ان تعوضه عن احلام الصبا او تشبع حنينه الى صحبة الجنس الآخر ..

ولذا كان من الطبيعى ان ارحب بصداقتى للفتاتين ، لأنها الشعاع من الصداقة الذى طالما تمنيته وحلمت به ..

كان يطيب لى أن أجلس اليهما وأن اسمع صوتهما ، وكان ابرز ما يميز جو هذه الجلسات ، براءته من التوتر الذى يسود عادة مجالس الشباب من الجنسين اذا تعددت الاجتماعات ، وتوثقت الألفة ..

وفى البداية ؛ كانت ايلونا تثيرنى باغراء شفتيها وفتنة جسدها ، ورشاقة مشيتها ، حتى لقد هممت اكثر من مرة بأن اضم هذه

المخلوقة الفاتنة ذات العينين السوداوين الضاحكتين الى صدرى واشبعها تقبيلا ..

ولكن ايلونا اسرت الى ذات يوم انها مخطوبة منذ عامين لطالب فى كلية الحقوق .. وانها تنتظر تحسن صحة أديث او شفاءها تماما لكى تقترن به ، وقد فهمت من ذلك أن كسفالفا لابد قد وعد قريبته الفقيرة بمنحة كبيرة اذ هى لازمت أديث حتى تشفى .

يضاف الى ذلك ، انه كان من فساد الذوق ، بل ومن القحة أن اغازلها او أختلس منها قبلة ، أو امسك بيدها خلسة ـ خاصة وليس بيننا حب ـ وراء ظهر المخلوقة البائسة الجينسة فى مقعدها ..

ولم تلبث فتنة أيلونا أن فقدت تأثيرها على ، وتركزت كل عواطفى حول الفتاة الكسيحة التى حرمتها الأقدار من نعمة الصحة والحركة فأصبح الجلوس اليها والترفيه عنها ، وتلطيف ثورتها بكلمة رقيقة ، أو بابتسامة حلوة ، أو بلمسة من يدى ، أصبح ذلك كله مصدر سعادة لى ، لا تعدلها سعادتى بأية مغامرة غرامية مع أية امرأة أخرى ..

* * *

بيد ان العلاقة بين السليم والسقيم قلما تمضى سهلة ميسرة ، انها كالعلاقة بين الطليق والسجين أو كالعلاقة بين الدائن والمدين ..

فكما يغمط السجين الطليق على حريته ، وكما يغمط المدين دائنه على ماله ، كذلك يغمط السقيم السليم على صحته وتحفزه آلامه على التمرد والثورة اذا ما تجاوز السليم الحد الرفيع الفاصل بين العطف والرثاء .

وقد كانت محنة أديث تفرض على من حولها الفناء فى خدمتها كما لو كانت أميرة ، وتدليلها كما لو كانت طفلة .. ولكن هذا الاسراف فى العناية بها كان فى ذات الوقت يشعرها بالمرارة . . لأنه يضاعف احساسها بعجزها . . فاذا حدث مثلا انك قربت المائدة

منها ؛ لتوفر عليها عناء مد يدها لتناول كتاب أو قدح ، فانها قد تثور وتصرخ في وجهك . أتظن انني لا أستطيع تناوله بنفسي ؟ .

بيد أنني كنت من سعة الصدر بحيث لم يردني تمردها وثورتها عن مواصلة العناية بها والاهتمام بأمرها ، بل ان ثوراتها لم تزدني الا اشفاقا عليها وتأثرا لنكبتها ..

ومع مرور الوقت ؛ أدركت سر ترحيب كسفالفا وأيلونا وسائر أهل البيت بزياراتي ..

ان الآلام الطويلة المبرحة لا تنهك المريض فحسب ، ولكنها تستنفد كذلك عطف الذين يحيطون به .. ومن المحقق ان كسفالفا وايلونا قد تألما كثيرا مع اديث .. حتى استنفدا قدرتهما على الاحتمال وانتهى الأمر بهما إلى الاستسلام ، فأصبحا اذا ثارت الفتاة ، اطرقا براسيهما وانتظرا حتى ينفثىء غضبها وتهدأ ثورتها .

وهكذا صرت الوحيد الذى تزعجه هذه الثورات وبالتالى الوحيد الذى تشعر الفتاة أمامه بالخجل كلما أطلقت العنان لغضبها وفقدت السيطرة على اعصابها ..

وفي هذه الحالة كان يكفي ان اقول لها معاتبا :

ـ « كلا .. كلا .. يا آنستي العزيزة » لكي يحمر وجهها خجلا ، ويبدو عليها كأنما تتمنى لو تستطيع الفرار ..

وما من مرة استأذنتها في الانصراف الا قالت لي بتوسل مؤثر

ـ انك ستأتي غدا .. أليس كذلك ؟ . هل انت حانق علي بسبب السخافات التي تفوهت بها اليوم ؟ .

وفي مثل هذه المواقف كان يدهشني ـ انا الذى لم امنحه غير العطف ـ أن يكون لي عليها كل هذا السلطان ..

***

وحدث ذات يوم أننا جلسنا نلعب الشطرنج ، ثم تجاذبنا اطراف الحديث ، ومر بنا الوقت دون أن نشعر ؛ وعندما نظرت الى ساعتي الفيتها قد تجاوزت الحادية عشرة ؛ فنهضت واقفا ؛

واستأذنت فى الانصراف ، فرافقنى الهر فون كسفالفا الى الباب ،،
وهناك فوجئنا بالمطر ينهمر بشدة فقال فون كسفالفا :
ـ ستذهب بك السيارة الى الثكنة ...
فحاولت اقناعه بألا ضرورة لذلك ، خاصة وان السائق سيضطر الى ارتداء ثيابه ، واخراج السيارة بعد أن أودعها الجراج ولكنه أصر ، وابى أن يتركنى ويعود الى الفتاتين ، قبل أن يرانى أجلس فى السيارة واضع على ركبتى غطاء يقينى من البرد ،،

❋ ❋ ❋

وانطلقت بى السيارة الى المدينة ، وكان شعورا جميلا ذلك الذى أحسست به والسيارة تشق طريقها فى الوحل تحت وابل الأمطار ، وأنا بداخلها أجلس على مقعدها الوثير ، وانعم بجوها الدافىء ...
ولما أشرفت على المدينة ، خطر لى أن اغادر السيارة فى الميدان ، لأنه لا يخلق بضابط صغير مثلى أن يدخل الثكنة فى سيارة فخمة ، كأنه أحد الأمراء ، فان كبار الضباط لا ينظرون بعين الرضى الى مثل هذا التصرف ، ولأننى كنت قررت منذ وقت طويل أن أتجنب ما استطعت الخلط بين الدنيتين اللتين أعيش فيهما ، دنيا آل كسفالفا التى أعيش فيها مرفها مدللا ، ودنيا الواجب ، التى لا ينبغى فيها أن أتجاوز حدودى ، والتى أعيش فيها كضابط فقير يسعده أن يكون الشهر ثلاثين يوما . لا واحدا وثلاثين .
ولهذا أمرت السائق أن يقف بى فى ميدان البلدية ، حيث يفصلنى عن الثكنة شارعان ، وهناك رفعت ياقة معطفى ، وتهيأت لاجتياز الميدان سيرا على قدمى ، ولكنى ما كدت اغادر السيارة ، حتى اشتدت العاصفة ، وزمجرت الريح ، وسال ماء المطر على وجهى ...
وخطر لى ان احتمى بأحد المنازل حتى تهدأ العاصفة ، ثم حانت منى التفاتة فرأيت النور ينبعث من المقهى الذى تعودت أن اقضى فيه أوقات فراغى قبل أن الوذ بآل كسفالفا ، ولم يكن يفصلنى عنه سوى ست منازل ، فهرولت اليه ، وأنا ارجو فى

لرارة نفسي أن أجد به بعض أصدقائى الذين غبت عنهم هذه الاسابيع الأخيرة .. والذين لابد قد افتقدونى كما افتقدتهم ...

***

ودفعت باب المقهى ، ودخلت ..

كان المكان خاويا ، والصحف مبعثرة على الموائد ، وخادم المقهى يحصى نقوده ..

ولكنى سمعت لغطا منبعثا من قاعة البليارد ، ولمحت تألق أزرار الثياب العسكرية فى الضوء ، فأسرعت الى تلك القاعة ، ولشد ما كان سرورى حين رأيت هناك أصدقائى : فيرنز وجوسى وجولد باوم ...

كان يبدو أنهم فرغوا لتوهم من اللعب ، فجلسوا يتسامرون وقد غلبهم ذلك الخمول المألوف الذى يشد رواد المقاهى الى مقاعدهم ...

وما ان رآنى فيرنز حتى هتف !

ـ هو ذا أنطونى .. ياله من شرف عظيم لركننا الحقير ...

ودار جوسى وجولدباوم فى مقعديهما ، ونظرا الى بعيون واسعة تشع منها الدهشة والسرور ، ورددا معا كلمة الترحيب الهنغارية :

ـ سرفوس ... سرفوس ...

واغتبطت بمظاهر سرورهم للقائى ، واغتبطت بالأكثر لأن قطيعتى لهم بغير عذر أو سبب لم تحنقهم على ، ولم تغير من سماحتهم ...

وطلبت الى الخادم أن يأتينى بقدح من القهوة ، ثم تناولت مقعدا جلست عليه ، وأنا ألقى عليهم السؤال الخالد الذى تعودنا أن نستهل به الحديث كلما تلاقينا !

ـ ما هى آخر الأنباء ؟ .

فلمعت عينا فيرنز فى وجهه المستدير ... وقال وهو يبتسم !

ـ آخر الأنباء آن سموكم تفضلتم اخيرا بتشريف مثوانا الحقير ..

ونظر ثلاثتهم الى فى سخرية وفضول ، واحسست بقلبى يغوص فى جنبى .. وقلت لنفسى ، لعل من الخير ان الوذ بالفرار بأسرع ما أستطيع قبل أن ينهالوا على بوابل من الأسئلة عن اين كنت كل هذه الأيام ، ومن أين جئت الآن ..

ولكن قبل إن أجمع شتات افكارى ، غمز فيرنز بعينه لجوسى وقال وهو يشير تحت المائدة :

ـ انظر ! . حذاء ثمين لامع فى هذا الجو القذر .. وثوبه التشريفة بكل ملحقاته .. الحق انه فتى بارع يعرف من أين تؤكل الكتف .. ان القوم هناك يعيشون عيشة الملوك ، ويقول الصيدلى انهم يتناولون فى المساء خمس صحاف مختلفة من الكافيار والدجاج واللحم البارد والفاكهة .. ذلك عدا الشراب الجيد والسيجار الفخم .. اننا لم نعرف أنطونى على حقيقته ولم نقدره حق قدره أيها الفتيان ! .

وقال جوسى يؤازره :

ـ لعل عيبه الوحيد انه ينسى اصدقاءه .. كان فى مقدوره ان يقول لذلك المغفل العجوز هناك ان لى اصدقاء ظرفاء يعرفون آداب المائدة سأحضرهم معى ذات مساء .. ولكنه لم يفكر الا فى نفسه ، أما اصدقاؤه فليحتسوا الجعة ويأكلون البطاطس .. فهل هذا هو الوفاء ؟ . كل شيء لنفسه ، ولا شيء للآخرين .. فما قولك يا انطونى ؟ . لعلك احضرت معك على الأقل سيجارا كبيرا من ذلك النوع الفاخر .. فى هذه الحالة فقط نعفوا عنك الليلة ونطلق سراحك ..

وضحكوا .. أما أنا فشعرت بحمرة الخجل تغزو وجهى .. كيف علم ذلك اللعين جوسى ان كسفالفا قد دس فى جيبى كالعادة سيجارا فخما من سجائره لأدخنه فى الطريق اثناء عودتى ؟ ترى هل راى طرف السيجار بارزا من جيبى ؟ .

وضحكت .. واصطنعت المرح لأخفي ارتباكي وقلت :
ـ الحق انك جدير بأفخر انواع السيجار ، ولكنى لا املك الآن سوى لفافاتنا المألوفة ..
وقدمت اليه علبة سجائرى .. وما كدت افعل ذلك حتى هممت باستردادها مرة اخرى ..
ذلك أن اليوم السابق كان يوم عيد ميلادى الخامس والعشرين ، وقد علمت الفتاتان ذلك بطريقة ما ، وعندما جلست الى مائدة الطعام ، وجدت تحت فوطتى علبة سجائر هدية منهما لى بهذه المناسبة ..
ولمح فيرنز العلبة فى يدى فصاح :
ـ يا الهى .. ما هذا ؟ (مهمات) جديدة ؟
واختطف العلبة وفحصها ، ووزنها فى يده .. وقال يحدث جولدباوم :
ـ يخيل الى انها من الذهب الخالص .. خذ وانظر ، ان اباك فيما أعلم من كبار الصياغ ، ولابد أن تكون لك بعض الخبرة بهذه الأشياء ..
فوضع جولدباوم نظارته على أنفه وتناول العلبة ووزنها فى يده وفحص كل ركن فيها ، ثم دق عليها بانامله كما يفعل الخبراء وقال
ـ نعم .. انها من الذهب الخالص ، ولا يقل ثمنها عن ثمانمائة كرون ..
وكنت أكثر الجميع دهشة ، فقد خيل الى عندما وقع بصرى على العلبة لأول مرة أن كل ما فيها من ذهب هو مجرد طلاء .
وتناول جوسى العلبة بدوره ، وتأملها باعجاب ، ونظر الى صورته على غطائها اللامع ثم فتحها ليتناول منها لفافة تبغ ، ولم يلبث ان هتف :
ـ اسمعوا .. اسمعوا .. سأتلوا عليكم عبارة منقوشة فى باطن الغطاء ..

ثم قرأ : « الى صديقنا العزيز .. انطوان هوفميلر لمناسبة عيد ميلاده ــ ايلونا واديث » ..

وحملق ثلاثتهم فى وجهى .. وصاح فيرنز :

ــ دعنى اهنئك يا صــاح .. الحق انك احسنت اختيــار أصدقائك ..

وأحسست بلسانى يجف بين شدقى .. غدا ستعلم الفرقة كلها قصة العلبة الذهبية والكلمات المنقوشة فى غلافها .. وسيحفظ زملائى هذه العبارة ، وسيطالبوننى بابراز العلبة ، وسيفعلون ذلك فى قاعة الطعام وأمام كبار الضباط ولن يكون بوسعى الا أن اسمع سخريتهم ونكاتهم وأصمت على مضض ..

* * *

وأردت ان اضع حدا لارتباكى وحرجى .. فقلت لأغير مجرى الحديث

ــ ما رايكم فى لعبة بلياردو ؟

فانفجر جوسى ضاحكا وصاح :

ــ ما قولك فى ذلك يافيرنز ، ان سموه يريد أن يلعب البلياردو فى منتصف الليل ، والخادم يهم بغلق المقهى .

فقال جولدباوم :

ــ لا عجب .. فان الرجل السعيد قلما يشعر بمرور الوقت .

وضحكوا ، واقبل الخادم ينبههم الى ان موعد غلق المقهى قد أزف ، فانصرفنا الى الثكنة ، وهناك ربت فيرنز على كتفى وهو يتمنى لى ليلة طيبة وقال :

ــ لقد سرنا حقا آن نراك .

وشعرت من لهجته ونظراته انه يعنى ما قال .

* * *

نعم .. كنت واثقا من انهم لا يضمرون لى بغضا أو حسدا ، وانهم صدروا فى ظل ما قالوه أو فعلوه عن اخلاص وحسن نية .

ومع ذلك فان غمزاتهم ولمزاتهم دمرت شيئا في أعماقي لا يمكن تعويضه انها دمرت ثقتي بنفسي .

كنت حتى ذلك الوقت أشعر بأن صلتي العجيبة بآل كسفالفا تعلي من قدري وترفعني في نظر نفسي ، فلقد أحسست ، لأول مرة في حياتي ، بأنني انسان يعطي ويساعد ، ويكلف نفسه ما تطيق وفوق ما تطيق للترفية عن الآخرين ، واما الآن فقد أدركت كيف ينظر الآخرون الى هذه الصلة أو كيف يمكن ان ينظر الى هذه الصلة ، أو كيف يمكن أن ينظر اليها أولئك الذين يرقبونها من بعيد دون أن يعلموا ظروفها وبواطنها .

انهم سوف يقولون ما قاله زملائي في التو واللحظة

سوف يقولون أنني انما انشد صداقة آل كسفالفا لاستمتع بضيافتهم واظفر بهداياهم .. وأوفر على نفسي في ذات الوقت نفقات الطعام والسهرات في الخارج ..

فهل هذه هي الحقيقة ؟؟

* * *

وبدأ الشك يساورني ويزعزع ايماني بنبل حوافزي وأهدافي ، ورحت اسائل نفسي هل يليق بي كضابط وكرجل أن أدع هؤلاء القوم يسقونني ويطعمونني كل مساء ؟

وعلبة السجائر الذهبية .. لم يكن ينبغي ابدا أن اقبلها ، ولا أن اقبل الشملة الحريرية التي وضعوها حول عنقي ذات ليلة لأتقي بها البرد والعواصف ...

ترى هل يعد الرجل هذه الهدايا ثمنا لعطفي على ابنته كالمنحة المالية التي وعد بها أيلونا ثمنا لعنايتها بأديث ؟

ولكن لا .. ان الرجل يحبني حبا مبرءا من كل غرض كما يحب الآباء ابناءهم ...

والفتاتان تحيانني كما لو كنت اخا لهما .. وكل ما يقال غير ذلك هراء .

ولكني عبثا حاولت أن اتجاهل ما قيل وما سوف يقال ، وصحت

عزيمتى آخر الامر على ان اقطع السبيل على السنة السوء .. فلا أدع لأحد ان يظن اننى افرض نفسى فرضا على آل كسفالفا .. وقررت أن تكون زياراتى لهم بعد الآن فى أوقات متباعدة .. وان أبدا بالغاء زيارة اليوم التالى .

ولم اذهب اليهم فى اليوم التالى ، وانما قصدت مع فيرنز وجوسى الى المقهى حيث قرأنا الصحف ولعبنا الورق ، ولكننى لم أحسن اللعب ، فقد كانت ساعة الجدار امامى فلم اكف عن التطلع اليها ومراقبة عقاربها ..

كان منتصف الساعة الخامسة هو الموعد المألوف لزيارتى وكنت دائما أجد الشاى معدا والفتاتين فى انتظارى ، فاذا حدث وتأخرت عن الموعد ربع ساعة استقبلتانى بقولهما :

ـ هل حدث شيء ؟

ولا شك أنهما الآن تنظران الى الساعة فى قلق كما افعل ..

الساعة الآن الخامسة واكبر الظن انهما مازالتا تنتظران أفلا يجب على الاقل أن اتصل بهما تليفونيا لانبئهما بأننى لن اذهب ؟ .

واحسست بأعصابى توشك أن تتمزق من فرط الضيق والقلق .. وللمرة الأولى فى حياتى شعرت بأن العطف الصادق ليس شيئا يمكن منحه ومنعه ببساطة كالتيار الكهربائى وان الانسان الذى يربط نفسه بمصير انسان آخر يفقد حريته الى الأبد ..

ولكننى سأتركهم ينتظرون ..

يجب أن القنهم درسا لكى يتعلموا اننى لا اشترى بالهدايا ؟ واننى حر فى رواحى وغدوى ؟ ولست ملزما بالذهاب فى موعد محدد كذلك الموعد .

وحول الساعة السابعة غادرنا المقهى واقترح فيرنز ان نتجول قليلا فى الشوارع . ولكننا ما كدنا نسير بضع دقائق حتى التقت عيناى بعينين أعرفهما ، مرق صاحبهما كالسهم ..

يا الهي .. أليست هذه ايلونا ؟ »
نعم .. انها هى .. ولو لم اكن اعرف عينيها وثوبها ، لعرفتها من قوامها الفاتن ومشيتها المثيرة ..
ولكن .. لماذا تسير بمثل هذه السرعة ؟ انها فى الواقع لاتسير .. وانما تعدو .
ترى ما خطبها ؟ .
وتركت صديقى نهبا للحيرة والدهشة وانطلقت فى أثرها ؟ وأنا جد سعيد بلقاء السمراء الفاتنة فى دنياى التى الفتها .
هتفت بها :
ـ ايلونا .. ايلونا .. مهلا لحظة ..
فتوقفت عن السير ، ونظرت الى . ولم تبد عليها الدهشة . قلت
ـ ما اجمل ان القاك هنا يا ايلونا ! . ما قولك فى ان نجلس قليلا فى محل الحلوى ؟ .
فغمغمت فى شىء من الارتباك :
ـ كلا .. كلا .. يجب ان اعود الى البيت . انهم ينتظروننى .
ـ دعيهم ينتظرون خمس دقائق اخرى ، واذا خفت ان تحرجى فاننى أزودك برسالة ألقى فيها التبعة على نفسى .. هلمى بنا ، بالله لاتنظرى الى بهذه الصرامة .
واردت ان اتأبط ساعدها ، ولكنها قالت بسرعة :
ـ كلا .. كلا .. يجب أن اذهب .. ان السيارة فى انتظارى
واشارت الى حيث كانت السيارة ، فقلت :
ـ اذن لا إقل من أن تسمحى لى بمرافقتك الى السيارة .
ـ حسنا ..
ثم استطردت بعد قليل :
ـ لماذا لم تأت لزيارتنا بعد ظهر اليوم ؟
ـ بعد ظهر اليوم ؟ آه .. نعم .. لقد اراد الكولونل شراء بعض الجياد فاصطحبنا معه لاختبارها ..
وكان ذلك قد حدث فعلا .. ولكن منذ شهر .

فهمت بأن تقول شيئا ولكنها ترددت ؟ وراحت تعبث بقفازها بحركة عصبية ثم هتفت فجأة :

ــ ألا تأتى معى للعشاء على الاقل ؟

فترددت ثم تجلدت واجبت :

ــ كنت أود ذلك ، لولا أن هناك اجتماعا للضباط يجب أن أشهده .

فنظرت الى بحدة ، وقطبت جبينها كما تفعل أديث ولم تجب

وفتح السائق باب السيارة ، وغابت ايلونا بداخلها .. وسألتنى من النافذة ...

ــ هل ستأتى غدا ؟

ــ غدا ؟ طبعا .

وانطلقت السيارة ...

طافت بذهنى عشرات الأسئلة ؟

لماذا قابلتنى أيلونا بهذا الفتور ؟ ولماذا بدت حائرة مضطربة كأنها تخشى أن يراها أحد معى ؟..

ثم ألم يكن يخلق بى أن أبعث معها بتحيتى الى عمها والى أديث ؟ ؟

***

وفيما عدا ذلك كنت اشعر بالارتياح الى موقفى ، لقد تجلدت ولم أتزحزح عن قرارى ، ولن يكون فى استطاعتهم بعد الآن أن يزعموا أننى افرض نفسى على ضيافتهم .

***

ورغم اننى وعدت أيلونا بالزيارة فى اليوم التالى الا اننى رأيت من الأصوب أن اتصل بالقوم تليفونيا قبل أن أذهب اليهم ، حتى استوثق من أنهم ينتظروننى ويرحبون بمقدمى .

وقد وجدت جوزيف فى انتظارى بالباب ، فقال حالما رآنى

ـ ان الآنسة فى البرج ؟ وقد امرتنى بأن ارافقك اليه ..
واعتقد أن سيدى الضابط لم يذهب اليه قبل اليوم ..

***

وكان هذا البرج يثير فضولى منذ لمحته لأول مرة من ميدان العرض ..

وقد قيل لى انه كان احب مكان الى اديث قبل أن يقعدها المرض وأنها كانت تختلف عليه ، رغم مافيه من اتربة وخفافيش ؟ لكى تطل منه على الحقول والغابات المترامية حول القصر فلما اصيبت بالشلل ، ونقلت الى أحد المستشفيات ، اراد ابوها أن يهيىء لها مفاجأة تدخل السرور على نفسها ، فأتى بمهندس اعاد ترميم البرج ، وشيد به شرفة فسيحة ، واقام فيه مصعدا كمصاعد المستشفيات يتسع للمقعد المتحرك الذى تقضى فيه اديث جل وقتها ..

وقد اصبح هذا البرج ، بعد عودة اديث من المستشفى ؟ نقطة الاتصال الوحيدة بينها وبين العالم الخارجى .. فاحتكرته لنفسها ، وراحت تقضى فيه أكثر ساعات النهار ، وقيل لى انها كانت تشهد بمنظارها كل ما يجرى فى ساحة العرض وميادين التدريب ..

وقد ادركت من حماسة جوزيف الأمين ؟ أنه يعد عودتى لزيارة البرج تكريما خاصا لى ، لم يظفر به أحد من قبل

واقترح جوزيف ان يرافقنى فى المصعد ؟ ولكنى آثرت الصعود على درج السلم لكى انعم بالمناظر الطبيعية وارى كيف تتسع رقعتها كلما امعنت فى الصعود .

ولكنى فى الواقع لم الق بالا الى شىء مما حولى .. فقد انصرفت طول الوقت الذى استغرقه صعود الدرجات التسعين المؤدية الى الشرفة الى اعداد نفسى لمواجهة الفتاة الكسيحة ..
لم ارها لأول وهلة .. فقد احتواها المقعد تماما .. وكان

ظهره فى اتجاه السلم ، فلم يبد لى شىء منها ، ولكننى ادركت أنها هناك ، لأن المقعد كان هناك ، وبجانبه منضدة صغيرة عليها صف من الكتب ..

واشفقت أن تكون منصرفة الى التأمل والتفكير فيزعجها قدومى من خلفها ، ودرت حول الشرفة لكى ترانى وجها لوجه .. ولكنى وجدتها مستغرقة فى النوم وراسها مائل قليلا الى اليسار ، ووجهها الفتى يتألق فى فيض من أشعة الشمس الغاربة .

واغرتنى غريزة الفضول بان اتأملها مليا .. فانه رغم الوقت الطويل الذى قضيتة معها ، لم تتح لى قط فرصة للنظر اليها عن كثب ، ذلك لأنها ككل انسان مفرط الحساسية كانت تقاوم بطريقة لا ارادية كل محاولة لتأملها ، وانعام النظر فى قسماتها .. فاذا اتفق وانت تجاذبها أطراف الحديث أن تعلقت عيناك بوجهها فان جبينها يتفض على الفور ، وترتجف شفتاها ! وتضطرب عضلات وجهها غضبا واستنكارا ..

اما الآن وهى فى غفوتها ، فاننى استطيع أن انظر اليها واتأمها كما أريد ..
كان فى وجهها الصغير لمحات عجيبة من براءة الطفولة ونضارة الانوثة ورقة المرض وقد سقطت اشعة الشمس على بشرتها الرقيقة ، فكشفت عن ادق الشرايين فى جبينها ووجهها وتحت عينيها ..

وكانت شفتاها منفرجتين كشفتى الظامىء ، وصدرها الصغير يعلو ويهبط مع انفاسها البطيئة الهادئة .

على أن شيئا لم يهزنى ويثير عطفى واشفاقى على هذه المخلوقة التعسة كما هزنى منظر يديها النحيلتين الشاحبتين المعروقتين . وقد تهدلتا فى حجرها بلا حول ولا قوة . كيف بالله تستطيع هذه الصغيرة المسكينة ان تصد الآلام بهاتين اليدين الضعيفتين ..
كيف تستطيع ان تقاوم بهما وتناضل ؟!

وتنهدت الفتاة وتحركت فى قلق ، وانبسطت أصابع يديها كأنها تتثاءب ، ثم اهتزت أهدابها .. وفتحت عينها ، ونظرت حولها فى دهشة ..

وأخيرا وقع بصرها على ، وجمدت نظراتها لحظة الى أن استيقظت حواسها ، ونشطت ذاكرتها ، وعرفتنى وحينئذ احمر وجهها وهتفت :

ــ ما أشد غباوتى !!

وكان الغطاء قد سقط عن ركبتيها ، فالتقطته وضمته اليها فى حياء كما لو كنت قد فاجأتها وهى عارية

وقالت مرة أخرى

ــ ما اشد غباوتى !! لابد اننى غفوت لحظة !

وارتجفت شفتاها ، فادركت أن العاصفة توشك أن تهب صاحت بى ، وهى تنظر الى فى تحد !

ــ لماذا لم توقظنى حالما قدمت ؟ ليس من اللياقة ان تتفرس فى انسان نائم .. ان منظر النائم يبعث على السخرية .

فحاولت انقاذ الموقف وقلت مداعبا :

ــ أفضل للانسان أن يكون موضعا للسخرية وهو نائم من أن يكون موضعا للسخرية وهو يقظان ..

فاستندت بيديها على المقعد ، واعتدلت فى جلستها وقالت وهى تحدجنى بنظرة صارمة ..

ــ لماذا لم تأت أمس ؟

كان الهجوم سريعا ففوجئت .. ولم تدع لى الفتاة فرصة للرد بل استرسلت قائلة :

ــ لابد انه كانت لديك اسباب خاصة جعلتك على أن تتركنا ننتظر ، ولولا ذلك لاتصلت بنا تليفونيا على الاقل

ياالهى !! كيف لم اتأهب لهذا السؤال واعد له جوابا ؟ ؟

ولم أجد بدا من ترديد قصة الجواد الذى اراد الكولونيل شراءه ..

وأخيرا قالت بصوت أشد برودة وصلابة من الفولاذ !

ـ وكيف انتهت هذه القصة المؤثرة؟ هل ابتاع الكولونل الجواد؟

كان من الواضح انها لم تصدق كلمة واحدة مما ذكرت .. قالت :

ـ دعنا نضع حدا لهذه الأكاذيب المضحكة .. ان كل ما ذكرته لا يمت الى الحقيقة بسبب ، فلم يكن هناك كولونل ، ولم يكن هناك جواد يراد شراؤه .. ففى منتصف الساعة الخامسة كنت تلعب الورق فى المقهى .. لا تحاول أن تخدعنى .. فقد تصادف ان كان السائق فى المدينة ورآك ..

فصمت .. ولم اجد ما أقوله ..

واستأنفت الفتاة هجومها ..

صاحت :

ـ ولكن ما حاجتى الى اللف والدوران معك ؟ اذا كنت انت لا تقول الصدق فليس معنى ذلك اننى يجب ان احذو حذوك ..

اننى لا أخشى الصدق ولذلك أقول لك فى غير مواربة ، ان السائق لم يرك فى المقهى مصادفة .. ولكنى أرسلته للاستفسار عنك لأنك لم تحضر ولم تعتذر ، فخشيت أن تكون مريضا او أصابك مكروه ..

اننى لا أطيق الانتظار .. ولذلك أرسلت الخادم الى الثكنة ؛ فقيل له أن السيد الضابط يتمتع بكامل صحته ، وانه يلعب الورق فى المقهى ..

وخشيت ان أكون اسأت اليك بالأمس دون أن أشعر ، فطلبت الى أيلونا أن تبحث عن الأسباب التى حملتك على معاملتنا بهذه الطريقة التى تنطوى على الازدراء ..

هأنتذا ترى أننى لا اخجل من ذكر الحقائق .. فكيف طوعت لك نفسك ان تذكر كل هذه الأكاذيب ؟ ..

فهممت بأن أجيبها ، واستنجدت بكل شجاعتى لاقص عليها ما دار من حديث بينى وبين فيرنز وجوسي فى المقهى ..

ولكنها لم تمهلنى ، واستمرت فى ثورتها ..
قالت :

ــ لقد ضقت ذرعا بالكذب والنفاق .. اننى أعيش فيها صباح مساء .. « انك تبدين اليوم فى خير حال .. انك تمشين اليوم خيرا مما مشيت بالأمس .. لا شك انك تسيرين نحو الشفاء بخطى حثيثة » .. هذه نماذج من الأضاليل التى يحاولون بها تخدير أعصابى يوما بعد يوم ، دون أن يشعروا بأننى اختنق .. نعم ، لقد سمعت من الكذب ما فيه الكفاية .. لماذا لا تقول لى فى صراحة انه لم يكن لديك وقت ولا رغبة للقدوم أمس ؟ اننا لم نتعاقد معك على زيارتنا فليس ثمة أى الزام لك .. ولقد كنت أسر كثيرا لو انك اتصلت تليفونيا وقلت انك لن تأتى ، لأنك تريد أن تلهو مع أصدقائك .. هل تظن أننى من الغباء والسذاجة بحيث لا أدرك أن من حقك أن تضيق أحيانا بدور الانسان الكريم الشفوق الذى تقوم به هنا يوما بعد يوم ؟ وانك كانسان غض الشباب ، موفور الصحة تؤثر ان تركب الخيل او تتسكع على ساقيك السليمتين فى الشوارع على ملازمة مقعد فتاة كسيحة ؟.

شىء واحد فقط يثير اشمئزازى ولا أقوى على احتماله .. هو الكذب والخداع والتضليل ..

قلت لك اننى لست من الغباء والسذاجة كما تظن .. ان فى استطاعتى أن أحتمل الكثير من الصراحة ..

منذ بضعة أيام ، الحقنا بخدمتنا غسالة جديدة بدلا من تلك التى توفيت .. وفى أول أيام عملها ، وقبل أن تتصل بأحد أو تتحدث الى أحد ، وقع بصرها على وأنا انتقل بعكازى الى مقعدى ، فهالها ما رأت ، وسقطت المكنسة من يدها وصاحت فى هلع :

ــ يا رب السموات ! . يا للكارثة ! .. يا لسوء الطالع ! . كل هذا الغنى وهذا الشباب .. وكسيحة ؟ ..

- فثارت ثورة إيلونا على المرأة الفقيرة الصريحة ؟ وهمت بطردها لولا ..

ولكنى اعجبت بالمرأة واحببت صراحتها .. لم يزعجنى شعورها بالهلع لأنه شعور انسانى وطبيعى .. نعم .. ان الهلع هو رد الفعل الانسانى والطبيعى عندما يفاجأ المرء بمثل هذا المنظر ..

اعجبت بالمرأة لبساطتها وسلامة فطرتها ، ومنحتها عشرة كرونات ، فانطلقت الى الكنيسة لتصلى من اجلى .

أما أنا لقد سررت .. سرنى أن أعرف أخيرا حقيقة الشعور الذى يحس به من يرانى لأول مرة ..

واما انت ، بل أنتم جميعا ، فانكم تتوهمون دائما انكم تجنبوننى الألم والهوان برقتكم الزائفة ، ورعايتكم المفرطة الى حد الخنوع ..

اتظنون أنه ليست لى عينان انظر بهما وارى ؟ .

اتظنون اننى لا ارى وراء ثرثرتكم ، وهمساتكم وتعلثمكم نفس الهلع الذى شعرت به وعبرت عنه تلك المرأة الطيبة الأمينة ؟.

اتتوهمون اننى لا ارى ارتباككم كلما تناولت عكازى ، وافتعالكم أى حديث حتى لا أرى أو الاحظ ؟ .

اننى اعرفكم واحدا واحدا ، واعرفكم جيدا ، وأعلم تماما فيما يختص بك أن تتنفس الصعداء بارتياح كلما اغلقت الباب وتركتنى مستلقية كجثة هامدة .. واعرف جيدا كيف انك ترفع عينيك الى السماء وتتمتم قائلا : يا لها من فتاة مسكينة ! . وتشعر فى ذات الوقت بكل الرضى عن نفسك لأنك تبرعت بساعة او بعض ساعة من وقتك لملاطفة (المريضة المسكينة) !.

ولكنى لا اريد منك تبرعا أو تضحية ، ولا اريد قطرات الشفقة التى تجود بها على كل يوم ، واقول لك فى صراحة اننى استطيع الحياة بدون شفقتك .. فاذا اردت ان تأتى فتعال ، واذا لم ترد

فلا تأت ، ولكن كن صريحا بحق السماء ، وجنبنا حكاياتك عن الكولونل والجياد فانني لم اعد أطيق الكذب .

* * *

وكانت تتكلم بصوت مرتفع أقرب الى الصياح ، وقد غامت عيناها وشحب لونها .

ثم زال غضبها فجأة وهدات ثورتها ، وتدلى راسها على ظهر المقعد كأنما انهكها الجهد الذى بذلته ، وبدأ الاحمرار يعود بالتدريج الى شفتيها المرتجفتين .

قالت بصوت خافت :

ـ لقد قلت ما عندى وكان يجب أن أقوله يوما ما ، لأننا لن نعود الى هذا الموضوع مرة أخرى .. اعطنى .. اعطنى لفافة تبغ ..

* * *

وهنا حدث لى شيء عجيب ..

اننى عادة انسان رزين قوى الأعصاب ، قلما يخرجنى الانفعال عن أطوارى ولكن هذه الثورة غير المتوقعة حطمت شيئا فى أعماقى واشعرتنى كأننى أصبت بالشلل ..

قدمت اليها لفافة تبغ ، واشعلت عود ثقاب ، ولكن أصابعى ارتجفت بشدة ، بحيث اضطرب اللهب ، وانطفأ قبل أن يصل الي طرف سيجارتها .

واشعلت عودا آخر ، ولكنه اهتز بين أصابعى المرتجفة وانطفأ كذلك ..

وهنا لاحظت الفتاة اضطرابى وانفعالى فنظرت الى فى حيرة وقالت بصوت رقيق ينم عن دهشتها :

ـ ماذا بك ؟ انك ترتجف .. فماذا .. ماذا يزعجك ؟ .

وانطفأ العود الثالث ، فجلست صامتا .. وقالت الفتاة فى قلق :

ـ يا الهى .. كيف تدع ثرثرتى السخيفة تزعجك الى هـذا الحد ؟. لقد كان أبى على صواب .. حقا انك شـخص غريب الأطوار !..

وفى هذه اللحظة ، سمعنا صوت توقف المصعد امام الشرفة ، وفتح جوزيف الباب وخرج كسفالفا من المصعد وهو مطرق براسه وعينيه فيما يشبه الحياء ، وخيل الى أن ظهره يبدو أكثر تقوسا مما اعتدت أن أراه ..

***

وكان من الطبيعي أن انهض لتحيته ، فرد التحيه باحناء قامته ، وقبل جبين ابنته ، ثم ساد بعد ذلك صمت غريب ..

ويلوح أن كل انسان فى هذا البيت يشعر شعورا غامضا بما يحل بالآخرين . فقد احس الرجل على الفور بما بينى وبين ابنته من توتر ، وراح يحوم حولنا فى قلق ، وكل حركة وايمـاءة من حركاته وايماءاته تنبئنى بأنه يود لو يستطيع الفرار ..

وكانت اديث اول من تكلم .. فقالت :

ـ تصور يا أبى ان هذه أول مرة يصعد فيها الكابتن هوفميلر الى هذا البرج ..

فقلت .. لمجرد ان اقول شيئا :

ـ نعم .. وهذه الشرفة موقعها رائع ..

وقال كسفالفا وهو ينحنى فوق مقعد اديث ليخفى حـيرته وارتباكه :

ـ أخشى أن يتبدل الطقس بعد غروب الشمس ، ومن الأفضل أن نعود ..

وراح كل منا يشغل نفسه بشىء ، فحملت الـكتب ، وراح كسفالفا يلف ابنته بالأغطية ، وقرعت اديث ناقوسـها الصغير وما هى الا لحظة حتى أقبـل جوزيف ودفع مقعـدها امامه الى المصعد ..

قال كسفالفا وهو يلوح لابنته بيده فى عطف :

ـ سنلحق بك فورا وفى استطاعتك ان تستبدلى ثيابك استعدادا لتناول الطعام ريثما اتمشى مع الكابتن فى الحديقة قليلا .

وهبط المصعد بالفتاة المسجاة فى مقعدها فكان اشبه بتابوت يدلى الى القبر ..

وما أن غاب المصعد عن ابصارنا حتى احسست بيد كسفالفا تمس ساعدى فى رفق ، وسمعته يقول :

ـ أريد أن أتحدث اليك فى امر يا كابتن ، أو على الأصح ، أريد منك معروفا .. واذا شئت فاننا نذهب الى مكتبى ، أو نتريض فى الحديقة ..

فأجبته :

ـ أن ذلك يشرفنى يا هر فون كسفالفا ..

واقبل المصعد ، فهبطنا به .. وتقدمنى كسفالفا فى المسالك الضيقة التى تجتاز الحديقة .. وادهشتنى خفة حركته وهو يسير بخطى غير مسموعة ، ولاحظت للمرة الأولى أن ثوبه الأسود يلمع فى كثير من اجزائه ..

لابد انه كان يرتدى هذا الثوب باستمرار طيلة العشرة أو الخمسة عشر عاما الأخيرة ..

وقادنى الرجل الى مكتبه فى ركن قصى من أركان المبنى ..

وادركت من اول نظرة الى المكان ، أن الرجل يخص ابنته وحدها بكل اسباب الراحة والرفاهية ، ويقنع من دنياه بحياة الريفى المقتر ..

كانت جدران الغرفة مغطاة بورق قديم ممزق والأثاث كله عتيق ومن النوع الرخيص ، مما ذكرنى بالأثاث فى الثكنة .

قال وهو يقدم لى مقعدا :

ـ تفضل بالجلوس يا سيدى الضابط

وجلس على مقعده بالقرب منى واحنى راسه كأنه يتأمل حذاءه .. وخيل الى انه حائر لا يدرى كيف يبدأ الحديث ..

أما انا فكنت اتحرق شوقا الى معرفة نوع (المعروف) الذى يريده منى هذا المليونير ..

واخيرا ، سعل الرجل ورفع جبينه المتصبب بالعرق وازال نظارته عن عينيه وراح يمسحها

كان وجهه بغير النظارة يختلف اختلافا واضحا ، فقد بدا لى اكثر نحولا وادعى الى اثارة الشفقة ، وادركت من احمران جفونه انه لا ينام الا قليلا ، وشعرت فجاة بأن الذى اجالسه ليس فون كسفالفا الغنى ، وانمــا رجل عجــوز تعيس قد اثقلت الأحزان كاهله ..

وسعل الرجل وبدأ حديثه بقوله :

ـ أريد أن أسألك معروفا يا سيدى الضابط .. أنا أعلم انه ليس من حقى أن ازعجك أو أضايقك .. فانك لا تكاد تعرفنا .. ولكنك تستطيع دائما أن ترفض .

لقد احسست منذ وقع بصرى عليك لأول مرة ، انك انسان طيب يمكن الثقة به ، والركون اليه .. كلا .. كلا .. لا تقاطعنى .. انك انسان طيب ، ما فى ذلك شك .. وانى اشعر بأن الله ارسلك الى .. لأجد من أستطيع التحدث اليه فى صراحة .. هل انت على استعداد للاصغاء الى ؟

ـ طبعا .. طبعا ..

ـ شكرا لك .. انني أعرف الرجل النبيل حين أراه .. ذلك ما علمتنى اياه زوجتى رحمها الله .. لقد كان موتها أولى الكوارث ، ولكن لعل من الخير أن الأجل لم يمتد بها حتى ترى مأساة ابنتها ، ولو رأتها لقضى عليها .

لقد بدأت المأساة منذ خمس سنوات ، ولم يدر بخلدى وقتئذ انها ستطول الى هذا الحد .

من كان يتصور أن طفلة سعيدة ممتلئة صحة وقوة ، تصبح بين عشية وضحاها مسخا مشوها لا حول له ولا قوة ؟

ولقد نشأنا جميعا على احترام الأطباء . اننا نقرأ فى الصحف

عن معجزاتهم ؟ وكيف ينقلون العيون ويرتقون القلوب ، ولذلك كان طبيعيا أن اطمئن الى قدرتهم على شفاء طفلة ولدت سليمة ، وعاشت صحيحة ، وأن أتوقع ان يتم الشفاء خلال أيام أو أسابيع .

وهذا هو السبب فى أننى لم أنزعج فى البداية ، فقد كنت أربأ بعدالة الله ورحمته أن يقدرا لهذه الطفلة البريئة شقاء أبديا .. ولو قد نزلت هذه النكبة بى شخصيا لكان لها ما يبررها من خطاياى وآثامى .. ثم اننى قد سرت على ساقى كثيرا وما عدت بحاجة اليهما .. أما أن تطيح النكبة على هذا النحو لتصيب الطفلة فذلك مالا أفهمه ..

وقد اتصلت بجميع الأطباء الكبار ، وجئت بهم الى هنا ؟ فعقدوا مجلسا ، وتحدثوا باللاتينية ، ووصفوا العقاقير ، وقالوا انهم يرجون الشفاء ، ثم أخذوا أجورهم وانصرفوا .

صحيح أنه ظهر بعض التحسن ؟ كان الشلل يشمل الجسم كله .. ثم انحصر فى النصف الأسفل .. وهذا تحسن كبير .. ولكنه ليس الشفاء الكامل ..

جميع الأطباء هزوا أكتافهم ونصحوا بالصبر ، واحد منهم فقط ثابر على زيارتها والعناية بها .. وهو الدكتور كوندور .. ترى هل سمعت عنه ؟ .

فاعترفت بأننى لم أسمع قط باسمه ..

قـال :

ــ انه رجل عجيب يتميز عن سائر الأطباء بأنه لا يهتم بالحالات العادية ، وانما يقصر اهتمامه على الحالات المستعصية التى يزعم غيره الا رجاء منها .. وليس فى استطاعتى ــ انا الرجل غير المثقف ــ أن أقول عن الدكتور انه أفضل من سواه كطبيب ، ولكنى أستطيع ان أقول انه أفضل من سواه كرجل ..

لقد عرفته أول ما عرفته عندما مرضت زوجتى ، فرايته يناضل من أجل حياتها ، وكان هو الوحيد الذى لم يقطع الأمل فى شفائها حتى اللحظة الأخيرة ، ويومئذ أدركت انه رجل يعيش ويموت مع كل مريض من مرضاه ..

انه لا يفكر فى نفسه .. وانمايفكر فى الآخرين .. فى أولئك الذين يقاسون ويتألمون ..

وهو لا ينشد المال ولا المجد .. انما كل هدفه فى الحياة ان يهزم الأمراض حيثما وجدت ..

وصفوة القول انه رجل عجيب بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

وصمت كسفالفا وهو يلهث ، وكانت عيناه تتألقان من فرط الانفعال والحماسة ..

واستطرد قائلا :

ــ نعم ، انه رجل عجيب ، انه يعد الفشل فى معالجة المرض جريمة .. حدث مرة أن جاءته سيدة تشكو ضعف ابصارها ، كانت تخشى أن يدهمها العمى ، فطمأنها ووعدها بالشفاء ، ولما فقدت بصرها فعلا .. تزوجها .

تصور هذا ! . شاب يتزوج امرأة ضريرة تكبره بسبعة اعوام ولا تملك مالا وليست على شىء من الجمال !!

ذلك يدلك على أى نوع من الرجال هو ؟ .

لقد كان من بواعث سعادتى أن اقع على رجل كهذا يعنى بابنتى كما أعنى أنا .. اذا كان هناك من يستطيع شفاء أديث فهو الدكتور كوندور .. أسأل الله أن يوفقه ..

وضم يديه الى صدره كمن يبتهل .. ثم اقترب بمقعده منى وقال :

ــ والآن ، ارجو ان تصغى الى يا سيدى الضابط ، لقد حدثتك عن الدكتور كوندور بما فيه الكفاية ، ولابد أنك استخلصت من حديثى انه رجل طيب . ولأنه رجل طيب .. اخشى ان يكون قد حجب عنى الحقيقة ، حتى لا يحطم قلبى .. انه يعدنى دائما ، ويؤكد لى أن هناك تحسنا واضحا مستمرا وأن الفتاة سوف تشفى .. وكلما القيت عليه سؤالا مباشرا عن المدة التى يقدرها لشفائها .. تهرب من الجواب وأوصانى بالصبر ..

ولكنى اريد أن أتحقق ..

انني متقدم في السن ومريض ، وأود أن أعرف هل سأعيش حتى أراها صحيحة الجسم موفورة الصحة .. يجب ان اعرف .. يجب أن اقطع الشك باليقين .. لم يعد في مقدوري احتمال القلق والشك ..

وغلبه الانفعال والتأثر ، فنهض واقفا وقصد الى النافذة ..

لقد رأيته من قبل يفعل ذلك كلما غلبه البكاء ، واغرورقت عيناه بالدموع ..

انه أيضا يكره الشفقة .. فما أشبهه بابنته ؟ ..

واخرج منديله من جيبه وتظاهر بانه يجفف عرقه . ولكنني رأيت الدموع تسيل في اخاديد وجهه المتجعد ..

وبعد قليل ، أخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهابا ، وسمعت أنينا ، فلم ادر أهو صادر منه ، أم من الألواح الخشبية التي تكسو ارض الغرفة ..

واستطرد قائلا :

ـ أرجو المعذرة .. فيم كنا نتحدث ؟ .. آه .. تذكرت .. لقد اتصل بي الدكتور كوندور تليفونيا من فيينا وقال لي انه سيعود اديث غدا .. انه يزورها مرة كل اسبوعين أو ثلاثة . وهو عادة يفحصها بعد الظهر ويتناول العشاء معنا ، ويعود بقطار المساء ، وقد خطر لي ، أنه اذا سأله سائل أجنبي لا يعرف الحقائق ولا صلة له بالموضوع .. اذا سأله هذا السائل عرضا ، عن مرض أديث وهل ستشفى تماما ، ومتى يمكن أن تشفى .. فانه قد لا يكذب عليه .. وقد يذكر له الحقيقة التي يتحرج من ذكرها لي ، محافظة على شعوري ، وحرصا على حياتي .. انما يجب الا يشعر ابدا .. انني طلبت اليك أن تقوم بهذا الدور ، أو أنك ستذكر لي شيئا مما سيصارحك به .. والمهم أن يكون السؤال عابرا كما يستفسر الانسان من الطبيب عن حال صديق ..

فهل تقدم لي هذا المعروف ؟ .

.. ولم يكن من الممكن أن ارفض التماس هذا الشيخ وهو ينظر

الى بعينيه المخضلتين بالدموع .. كما لو كنت طوق النجاة الذى سينقذه من الغرق ؟!

ووعدته بتنفيذ كل ما يريد ، فشد على يدى بحماسة وامتنان وهو يصيح :

ــ كنت اعلم انك ستفهمنى ، وانك الشخص الوحيد الذى أستطيع الالتجاء اليه .. وأقسم لك أن أحدا لن يعلم بما دار بينك وبينى ..

قال ذلك وهو ينظر فى عينى لأول مرة منذ بدأ حديثه ، ثم وضع نظارته على أنفه وغمغم قائلا :

ــ يحسن بنا أن نذهب الآن حتى لا ترتاب أديث فى الأمر .. لقد أرهف المرض حواسها فأصبحت وهى فى مقعدها تحس بكل ما يجرى فى البيت .

وقصدنا الى البيت ، وكانت أديث فى انتظارنا بقاعة الاستقبال ، فما كدنا ندخل .. حتى حدجتنا بنظرة حادة فاحصة من عينيها المتألقتين ، كأنما لتقرأ فى وجوهنا ما تخفيه صدورنا .

ولما لم نلمح الى موضوع حديثنا من قريب أو بعيد ، قطبت جبينها ، ولزمت الصمت بقية السهرة ..

* * *

كان التجاء كسفالفا وهو فى محنته الى شخصى ــ أنا الغريب عنه ــ من دون أصدقائه جميعا .. دليلا على ثقة ملأتنى رضا وفخرا ، ولكنه رضا يشوبه أسى واستياء ، فقد أحسست كم كان موقفى من أديث حتى تلك اللحظة سلبيا .. فلم أحاول ، أنا الذى أزورهم يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ، أن القى سؤالا واحدا من الأسئلة التى تقضى بها أبسط قواعد اللياقة والصداقة فى مثل هذه الحالة .

.. لم أسأل أيلونا أو كسفالفا أو حتى طبيب الثكنة : هل ستظل الفتاة كسيحة بقية حياتها ؟. وهل لا يجد العلم علاجا لهذه الحالة ؟ .

.. أسئلة طبيعية كان يجب أن أعرف جوابها منذ وقت طويل .

والآن .. لقد نقل الى حديث كسفالفا كثيرا من الآلام التى عاناها طيلة السنوات الأخيرة ، فأصبحت اشعر بمثل قلقه وامنى النفس بمثل آماله .. ترى ما ذا يكون لو نجح الطبيب حقا فى ابراء اديث ؟ .. ماذا يكون لو تحررت هاتان الساقان المسكينتان من أغلالهما واستطاعت البنية التعسة أن تمشى وتجرى وترقص وتقفز وتملأ الدنيا ضحكا ومرحا ؟ .

لا شك أن قصر آل كسفالفا سيصبح يومئذ قطعة من الجنة .

وعندما تخيلت أديث وهى تلاحقنى على ظهر جوادها عبر الحقول ، ثم وهى تستقبلنى بباب القصر ووجهها مشرق الابتسام ، لم اتمالك من الشعور بأشد اللهفة على لقاء الدكتور كوندور .

* * *

وفى اليوم التالى ، ذهبت الى القصر مبكرا ، فاستقبلتنى أيلونا وقالت لى ان الطبيب جاء منذ ساعتين ، وانه يقوم الآن بفحص اديث ، وسوف تكون اديث متعبة بعد الفحص ولن تستطيع الجلوس معنا .

وقضيت الوقت فى لعب الشطرنج مع ايلونا ، الى ان سمعت وقع اقدام خارج الغرفة ثم دخل كسفالفا والدكتور كوندور .

* * *

كان أول ما أحسست به عندما وقع بصرى على الدكتور كوندور..هو الشعور بخيبة الأمل .. فان الصورة التىتخيلتها له بعد كل ما سمعته عنه كانت تختلف اختلافا تاما عن الحقيقة ، والواقع اننا نخطىء خطأ جسيما حين نظن أن الطبيعة تدمغ النابهين من الناس بطابع خاص يعرفون به من أول نظرة ..

ذلك أننى رأيت أمامى رجلا قصير القامة .. بدينالجسم .. ضعيف البصر .. مهلهل الثياب .. يرسل من ورائه عويناته الرخيصة نظرات مستبدة تختلف تماما عن النظرات الحادة الذكية التى توقعت أن أراها ..

وقد مد كوندور يده وصافحنى قبل أن يفرغ كسفالفا من تقديمى اليه ، ثم تهالك على أحد المقاعد ، وقال محدثا رب البيت :

ـ لا أكتمك انى أكاد أموت جوعا أيها الصديق ، واذا لم يكن الطعام قد أعد . . فلا أقل من أن يسعفنى جوزيف بشىء أتبلغ به.

على انه لم يكد يفرغ من كلامه حتى أقبل جوزيف يدعونا الى تناول العشاء . . فكان كوندور أسبقنا الى قاعة الطعام ، وأقبل على الصحاف يلتهم منها فى غير كلفة ، دون أن يعبأ بمن حوله . .

وكان يأكل بصوت مسموع يثير الاشمئزاز ، ولم ينطق بكلمة واحدة ، الى أن فرغ من طعامه ، وحينئذ استرخى فى مقعده واشعل لفافة تبغ وقال محدثا كسفالفا :

ـ معذرة أيها الصديق ، فانني أعلم انك متلهف على معرفة نتيجة الفحص ولكنك تعلم اننى أضيق بالحديث أثناء الطعام . ثم اننى كنت جائعا ومتعبا ، ولم أنعم براحة أو طعام منذ السابعة صباحا . .

وفيما يختص بأديث . . فانى أعتقد أن كل شىء على ما يرام . . بل ويخيل الى أنها أحسن قليلا مما كانت فى المرة الأخيرة . . ولكنى لاحظت أن هناك تبدلا واضحا .

فهتف كسفالفا على الفور . وقدح القهوة يرتجف فى يده :
ـ تبدل !؟ ماذا تعنى ؟ أى نوع من التبدل ؟
ـ لا تنزعج يا صديقى ، ولا تحمل الألفاظ أكثر من معانيها السطحية ، ثم اننى لم أقل انه تبدل الى أسوأ . .
ـ افصح اذن . . أى نوع من التبدل ؟

ـ ليتنى أعلم !! ان التبدل الذى طرأ عليها لايتصل بمرضها . . وانما يتصل بها هى . . يتصل بحالتها النفسية . . لقد خيل الى اليوم لأول مرة أنها أفلتت من يدى . .

وأرسل من فمه سحابة كثيفة من الدخان ثم تحول فجأة الى كسفالفا ، وقال وهو ينظر اليه بحدة :

ـ دعنا نعالج الأمور بصراحة أيها الصديق ، ولا ضرورة للف والدوران . . دعنا نضع أوراقنا على المائدة قل لى بصراحة . . هل دفعك قلقك الأبدى الى استدعاء طبيب آخر ؟ . .

فصاح كسفالفا كما لو كان متهما بجريمة :
ـ أقسم لك بحياة ابنتي ..
ـ حسنا .. حسنا ، لا حاجة بي الى قسمك وايمانك .. انني اصدقك ..
ـ كنت تتحدث عن تبدل طرأ على اديث .. فما نوعه ؟..

ـ أصغ الى ياهر كسفالفا فالأمراض الطويلة التي من هذا النوع ، تقيم عادة بين الطبيب ومريضه صلة من نوع خاص ، هي مزيج من الثقة والارتياب .. ومن العطف والنفور ، وهذه الصلة تتغير في كل زيارة . أحيانا يعتقد المريض أن الطبيب قد تغير ، وأحيانا يعتقد الطبيب أن تبدلا طرأ على المريض ، وأحيانا أخرى يسود بينهما التفاهم .. وكثيرا ما يختلفان على طول الخط .. وهذه كلها حالات لا تتبع نظاما وليس لها قياس ، ولكنها تتوقف على الحالة النفسية لكل من الطبيب والمريض .. ولا أزعم أنني استطيع أن أضع اصبعي على التغيير الذي طرأ على اديث ، ولكن هناك تغييرا على كل حال .
فقال كسفالفا والعرق يتصبب من جبينه :
ـ ولكن .. ولكن ما مظاهره ؟
ـ لاحظت انها تبدي نوعا من المقاومة .. لقد اعترضت على الفحص وقالت انه لا فائدة منه .. لأن شيئا لم يتغير منذ الفحوص السابقة ، وقالت عن التدليك والتمرينات انها عبث ..
لم يسبق لها أن قالت شيئا مثل هذا .. ولعلها كانت ضيقة الصدر ، متبرمة من شيء ما .. فذلك يحدث لكل انسان ..
ـ وهذا التبدل .. هل هو علامة سيئة ؟
ـ بل على العكس من ذلك ، ان هذا التمرد يوحي بقوة الارادة .. والرغبة في البرء والتشبث بالحياة .. وصدقني اننا نحن الاطباء لا نحب من مرضانا الخضوع والاستسلام . ان المريض الذي يسرف في الطاعة قلما يكون عونا للطبيب في مهمته .. والمقاومة والتمرد من العوامل التي تنشط المريض نفسيا وجسمانيا وتهيئه للافادة من كل تجربة جديدة اذا ما رأى الطبيب ضرورة لتغيير أسلوب العلاج .

فصاح كسفالفا بلهفة الغريق على طوق النجاة :
ـ هل تفكر فى تغيير اسلوب العلاج ؟؟ هل ثمة عقار جديد ؟
ـ دع ذلك لى أيها الصديق العزيز .. ان محنة ابنتك هى شغلى الشاغل وأرجو أن اخرجها منها بسلام ان شاء الله ..
ثم استطرد قائلا وهو ينهض فجأة :

ـ بحسبنا هذا اليوم .. لقد أوضحت لك رأيى ، وكل مايقال غير ذلك هراء . واذا بدت اديث ساخطة متبرمة فى الأيام القلائل المقبلة فلا تنزعج .. وثمة شىء آخر أود أن أقوله لك .. هو أن تطرح القلق وتكف عن ازعاج ابنتك بعطفك المفرط ..
والآن .. يجب أن أذهب حتى لايفوتنى القطار ..
وتناول قبعته وحقيبته ثم تحول الى فجأة وسألنى :
ـ هل تنوى البقاء أيها الشاب ؟
وهنا تذكرت المهمة التى اسندها الى كسفالفا .. فأجبته على الفور :
ـ كلا .. اذ يجب أن أنهض غدا مبكرا ..
ـ فى هذه الحالة نستطيع أن نسير معا الى المدينة .

***

وكان الجو فى الخارج رائعا ، والحقول تسبح فى ضوء القمر فسرنا الهوينا فى الطريق الى المدينة ، وساد بيننا صمت عميق الى أن قال الطبيب فجأة :

ـ مسـكين كسفالفا .. اننى ألوم نفسى دائما على خشونتى معه . ولكن ما حيلتى ؟! .. اذا انا أفسحت له صدرى راح يلقى السؤال تلو السؤال . انه لا يكف عن الاتصال بى تليفونيا ليستخلص منى وعدا بأى ثمن .. مسكين هذا الرجل .. انه لا يعلم كم تفاقم الحال !! .
يا الهى !! .. إذن قد ساءت حال اديث وتفاقمت ؟
.. ان الرجل قد أفضى الى بالحقيقـة دون أن أسـعى الى استدراجه .
وراعنى ما سمعت ، وأردت أن أعرف المزيد فقلت له :

ـ معذرة ياسيدى الطبيب .. فلم يدر بخلدى قط ان حال اديث قد ساءت الى هذا الحد .

فصاح فى دهشة :

ـ اديث ؟ ماذا تعنى ؟ انني لم أقل شيئا عن اديث . لقد أسأت فهمي يابني .. انما كنت أتحدث عن كسفالفا نفسه ، الم تر كيف ساءت صحته فى المدة الأخيرة ؟

ـ كلا .. لأنني لم أتشرف بمعرفته الا مؤخرا ..

ـ لو انك عرفته منذ زمن طويل كماعرفته أنا .. لأدهشك هزاله .. انني ذعرت اليوم حين انعمت النظر الى يديه .. كانت بشرته زرقاء كبشرة الموتى .. وثمة ظاهرة اخرى .. لقد أصبح شديد الحساسية سريع التأثر .. اذا انفعل سالت الدموع من عينيه .. كل هذه علامات سيئة وخاصة اذا بدت من رجل كان طول حياته شديد القسوة قوى الشكيمة .

ان قلقه على ابنته قد دمر حياته وسيقتله .

قال ذلك ثم نظر الى السماء ، وكان القمر قد غاب وراء سحابة كثيفة حجبت ضوءه عن الطريق .. ثم استطرد قائلا :

ـ انني ارى نذر العاصفة .. ومن الخير ان نسرع قبل ان تدهمنا

وكان على حق ، فقد سكن الهواء فجأة وبدت السحب فى السماء يطارد بعضها بعضا .

واسرعنا الخطى ، ولاحت لنا المدينة عن كثب ، واشفقت ان نفترق ويذهب كل منا فى سبيله قبل أن اعرف الحقيقة عن اديث ، فقلت له فجأة :

ـ معذرة مرة أخرى ياسيدى الدكتور .. لقد خطر لى ان اسألك ، بصفتك طبيب اديث وقد لازمتها منذ البداية .. هل تعتقد أنها ستشفى من الشلل ، أم ان داءها لا برء منه .

فرفع الرجل رأسه بحدة ، حتى خفت أن يكون قد فطن الى الخدعة .. ولكنه قال :

ـ أصغ الى يا بنى .. لا يوجد طبيب يحترم نفسه يستطيع أن يقول لك فى بساطة أن هذا المرض أو ذاك يمكن شفاؤه أولايمكن

.. لأنه لايوجد الطبيب الذى يستطيع ان يقول من أين يبدأالمرض والى أين تنتهى الصحة ..

ومن الأقوال المأثورة عن الفيلسوف الألمانى (نيتشه) قوله ان الطبيب لا يجب أن يحاول علاج المرض الذى لا علاج له ..

ولكنى اخالف نيتشه فى هذا الرأى . لأن المرض الذى لا علاج له اليوم . قد يظهر له علاج غداً ..

ان نيتشه نفسه وشوبير وشومان وبيتهوفن ، وآلافا غيرهم من العظماء لم يفترسهم الموت لأن مرضهم ليس له علاج ، وانما لأن العلاج لم يكن قد عرف بعد ..

فسألته :

ـ اذن هل تظن ان هناك احتمالا لأن تتقدم نحو الشفاء فى وقت قريب ؟ لقد تحسنت صحتها كثيراً على يديك . وأكبر الظن أن ..

ولكنه قاطعنى صائحا :

ـ من قال لك اننى حققت تقدما فى علاجها ؟ وماذا تعلم انت من الأمر كله ؟ انك عرفتها منذ اسابيع .. أما أنا فأعودها منذ خمس سنوات ، واقول لك فى صراحة اننى لم أحقق شيئا مما رجوته .. لقد جربت معها كل وسيلة ... ولكن بغير طائل ..

ـ ولكن الهر كسفالفا اكد لى انها استفادت كثيرا من حمام الكهرباء والتدليك والجهاز الذى يشد ساقيها ..

فصاح الرجل :

ـ هراء .. لا تدع هذا المغفل العجوز يخدعك .. هل تعتقد أن شلل العمود الفقرى يمكن شفاؤه بحمام الكهرباء .

ان التحسن الذى يتوهمه المريض كلما جرب عقارا او اسلوبا جديدا من اساليب العلاج .. ليس الانوعا من الايحاء الذاتى . ونحن معشر الأطباء انما نلجأ الى خداع المرضى بما نصف لهم من اساليب جديدة للعلاج .. بدلا من الاساليب القديمة التى فشلت ، لكى نكسب بعض الوقت للتدبر والتفكير ..

ان الجهاز الذى وصفته لأديث كان لمساعدتى ، وليس لمساعدتها .. انه لعبة لتهدئتها ليس غير انه مجرد حقنة مسكنة ..

ولا شك ان حديثى هذا قد بدد أحلامك عن آداب مهنة الطب .. ولكن يؤسفنى أن اقول لك ان مهنة الطب لا صلة لها بالآداب والاخلاق ..

ان المرض ظاهرة مدمرة ، وثورة ضد الطبيعة ، من واجب الطبيب ان يقاومها بكل وسيلة .. وكل سلاح ، فاذا ساعد الخداع على هذه المقاومة والشفاء .. أصبح علاجا من الطراز الاول ..

وكنا قد اقتربنا من المحطة ، فاستطرد كوندور بعد صمت قصير :

ـ ومع ذلك .. لااريدك على ان تظن اننى يئست من شفاءاديث ؟ لن اياس بعد عام .. ولا بعد خمسة أعوام . ومن عجب اننى قرات بالأمس فقط فى احدى المجلات الطبية أن طبيبا فرنسيا هو الاستاذ فيانو ، استطاع ان يشفى صبيا فى الرابعة عشرة من عمره أصيب بشلل كامل ولزم الفراش طيلة عامين كاملين .. استطاع أن يشفيه بعد أن عالجه بعقار جديد مدة اربعة شهور ..

تصور هذا !! بعد اربعة شهور فقط استطاع الغلام أن يصعد درج السلم دون مساعدة .

لقد كان المقال خلوا من التفصيلات عن حالة الصبى وطريقة العلاج ، ولذلك كتبت الى الأستاذ فيانو أطلب مزيدا من الايضاح ؟ ومن هذا يتبين لك اننى لم ألق السلاح بعد .

ـ هل تظن ؟ .

ـ أنا لا اظن شيئا ، ولا أعد بشىء .. لقد وصلنا .. نصيحتى لك انتسرع الخطى قبل انتدهمكالعاصفة .. والىاللقاء

***

كان الرجل على حق ، فانه ما كاد يغيب داخل المحطة حتى قصف الرعد ، وومض البرق .. وهطل المطر فجأة بشدة مذهلة فاطلقت ساقى للريح فى الطريق الى الثكنة عبر ميدان البلدية .

وكانت الحديقة الصغيرة امام الثكنة فى ظلام دامس فاجتزتها بسرعة واقتربت من باب الثكنة ، وحينئذ رايت شبحا يخرج من

وراء احدى الاشجار ، فابطأت السير قليلا ولكنى لم أتوقف . ولشد ما كانت دهشتى حين احسست بأن الشبح يجد فى أثرى . .

ونظرت ورائى ، وعلى وميض البرق . . رأيت شيخا متقدما فى السن . أصلع الرأس . . عرفت فيه على الفور الهر فون كسفالفا .

ياالهى . . ماذا جاء يفعل هنا . . فى مثل هذه الساعة ؟ !

لقد تركناه متعبا مكدودا يكاد يسقط من فرط الاعياء . . فهل أصيب الرجل فجأة بمس من الجنون ؟

وصحت به :

ـ بحق السماء يا هر فون كسفالفا . . كيف جئت الى هنا ؟ ألم تأو الى فراشك بعد . .

ـ كلا . . لم أستطع النوم . . كان لا بد أن . .

ـ بل يجب أن تعود فورا . . الا ترى العاصفة ؟ اين سيارتك ؟

ـ انها تنتظرنى هناك . . الى يسار الثكنة . .

ـ حسنا . . هلم بنا اليها . .

وجذبت ساعده فى خشونة ، ولكنه تخلص من قبضتى وتمتم :

ـ صبرا لحظة . . صبرا لحظة . . سأذهب ياسيدى الضابط . . ولكن خبرنى أولا . . ماذا قال لك !

ـ من ؟

ـ الدكتور كوندور . . ألم تتحدث اليه :

الآن قد فهمت . . هذا اللقاء فى الظلام تحت وابل الامطار لم يكن اذن من عمل الصدفة .

لابد أن الرجل قد قبع فى انتظارى أمام الثكنة حتى يرانى عندما أهم بالدخول . . ولم يتورع عن ارتياد هذه الحديقة التى تختلف اليها الخادمات للقاء عشاقهن . .

كل ذلك لأنه لايطيق صبرا الى الغد .

قلت له اطمئنه :

ـ كل شىء على مايرام . . أنا واثق من ذلك ، وسأحدثك غدا

بكل شيء .. سأروى لك كل كلمة قالها . أما الآن . قد الى سيارتك واسرع ..

ــ صبرا لحظة اخرى .. لا استطيع الانصراف هكذا .. لا استطيع ..

وترنح فى مكانه ، فأدركت ان الانتظار والقلق قد نالا من الرجل وحطما اعصابه ..

فأجلسته على مقعد فى الحديقة .. وأنا اعلم انه لن يتزحزح عنه قبل أن أقول له ما يطمئنه ..

ومرة اخرى ، شعرت بالشفقة الطاغية تجردنى من كل قوة وارادة .

وكانت الريح تزار من حولنا ، وعناصر الطبيعة المدمرة تتأهب للانطلاق . ولكن الرجل لم يعبأ بشيء .. لم يكن يهمه فى الدنيا الا أن تبرأ ابنته من علتها .. فكيف أقول له وهو فى هذه الحال ، ان كوندور لا يعرف دواء ولا يعد بشفاء ؟؟

لقد كان بحاجة الى شيء يتشبث به .. الى قشة يتعلق بها ..

قلت له ان كوندور سمع عن عقار جديد جربه الاستاذ فيانو بنجاح عظيم .

وما كدت انطق بهذه العبارة .. حتى أحسست بالحياة تدب من جديد فى جسد الرجل المسكين ، وكان ينبغى الا ازيد على ما ذكرت حرفا واحدا .. ولكن اشفاقى على الرجل دفعنى الى مواصلة الكلام .. فقلت له ان هذا العقار جرب فى ثلاث او اربع حالات وكانت له نتائج مذهلة ، ومن المحقق أن تجربته مع أديث ستسفر عن نجاح تام ..

كان تأثير كلماتى على الرجل حافزا لى على الاسراف فى المبالغة ، وكان الرجل يقاطعنى بين الفينة والفينة ليسألنى : « هل صحيح إنه قال ذلك ؟ » .. و « أنت واثق من انه قال ذلك ؟ » .

ولا اذكر الآن تماما كل ما قلته لكسفالفا فى تلك الليلة ، كل ما اذكره .. هو أن وعودى اثملته ، بقدر ما اثملتنى مظاهر فرحه وحبوره ..

واخيرا هتفت به !

ــ والآن .. يجب ان نذهب ..

فنهض واقفا ، ومشى الى جانبى منتصب القـامة كشاب فى العشرين من عمره ، ورافقته الى السيارة وانا أشعر باشد الارتياح لأن الرجل المحطم المسكين سينام الليلة ناعم البال ..

ولمـا مددت يدى لأضع الغطاء على ركبتيه داخل السيارة ، انحنى فجأة وتناول يدى ــ قبل أن اتمكن من اجتذابها ــ ورفعها الى شفتيه وقبلها .

***

ذهبت الى القصر فى اليوم التالى فوجدت جوزيف فى انتظارى وهو مشرق الوجه ، بادى المرح اكثر من المألوف ..

قال لى :

ــ هل يريد سيدى الضابط ان ارافقه الى البرج ؟ ان الآنستين تنتظران فى الشرفة .

فشرعت أرقى درجات السلم الحلزونية المؤدية الى الشرفة ، وطرقت مسامعى نغمات موسيقية واصوات نسائية تغنى ، وزادت الموسيقى والغناء وضوحا كلما امعنت فى الصعود .. ترى ما معنى هذا ؟ هل هناك فرقة موسيقية تعزف فى مكان قريب ؟

لا .. ان مصدر الصـــوت هــو شرفة البرج .. لابد انه (الجرامافون) الذى تحمله اديث معها كل يوم الى البرج ..

ولكن أصوات الغناء كانت انقى من أن تصدر عن (الجراموفون) ..

وعرفت صوت ايلونا بما فيه من سحر ورقة وشباب .. ولكن لمن يكون الصوت الثانى ؟ لعله لصديقة دعتها اديث لقضاء وقت طيب..

ووصلت أخيرا الى الشرفة ، ولشد ما كانت دهشتى حين لم أجد بها سوى ايلونا واديث ..

واذن .. فقـــد كان الصوت الذى يرن كأجراس الفضـــة هو صوت اديث ..

مثل هذا الصوت لا يصدر الا عن انسان سعيد مرح ثمل بنشوة الحياة الناعمة ..

وابصرت بي الفتاتان .. فكفتا عن الغناء وانفجرتا ضاحكتين وصاحت اديث :

ــ تعال .. اسرع ، اوقفي الحاكي يا ايلوتا .

ثم تحولت الي مرة أخرى وهتفت :

ــ انني انتظرك منذ اجيال ، ادن مني .. وقل لي كل شيء .. كل كلمة .. لقد أيقظني ابي في منتصف الليل ، وقال لي كلاما كثيرا لم افهم نصفه .. أنت تعرف كيف يتلعثم وهو منفعل .. ولكنه كان يضحك ويرقص كشاب في العشرين من عمره .. وظننت انني في حلم . ولكن ايلوتا جاءت أيضا بعد ذلك وهي تضحك . فجلسنا نتحدث حتى الصباح ..

والآن .. قل لنا كل شيء عن هذا العقار الجديد .

***

رباه .. ان كوتدور لم يقل شيئا خليقا بأن يثير كل هذا الفرح في بيت كسفالفا !!

وشعرت كما يشعر الانسان في البحر حين تلطمه موجة عاتية .

ولاحظت اديث حيرتي واضطرابي فقالت :

ــ لماذا التردد ؟ أنت تعلم مدى اهمية كل كلمة بالنسبة الي .. ماذا قال لك كوندور ؟

فقلت متلعثما :

ــ أنت .. انت تعرفين ما قال .. كان متفائلا جدا .. وقد عبر عن امله في الوصول الى نتائج حاسمة .. وهو ينوي ــ اذا لم اكن مخطئا ــ تجربة عقار جديد ..

ــ الم أقل لك ان العلاج القديم لا خير منه ؟ لقد خلعت اليوم ذلك الجهاز اللعين الذي كان يثقل كاهلي ويشدني الى الارض ، واحسست على الفور انني أحسن حالا .. واستطعت ان أسير بدونه خيرا مما كنت أسير به .. نعم ، ان هذا المرض يجب أن يعالج

بطريقة جديدة تماما .. كان ذلك شعورى منذ وقت طويل .. والآن حدثنى عن عقار ذلك الاستاذ الفرنسى .. وهل من الضرورى أن اذهب الى فرنسا لتجربته .. أم يمكن تجربته هنا ؟ أواه ، كم أمقت المصحات والمستشفيات !! وكم سيستغرق العلاج بالعقار الجديد؟ .. لقد قال أبى ان اربعة شهور تكفى ، فهل هذا صحيح ؟ .. لماذا لا تتكلم ؟..

كان لابد أن أعالج الموقف بلباقة .. فقلت لها :

ـ ليس فى استطاعة اى طبيب ان يحدد مدة العلاج بصفة قاطعة .. ثم ان الدكتور كوندور حدثنى فى الموضوع حديثا عاما ، وعلى كل حال لا مناص من الانتظار ريثما ..

ولكنها رفضت الاصغاء الى مزيد من هذه العبارات المائعة وقالت :

ـ انت لاتعرف الدكتور كوندور على حقيقته ، انه لا يقطع فى امر برأى .. ولكن بحسبك أن تحصل منه على نصف وعد لكى تطمئن .. انت لا تتصور كم أنا سعيدة .. اليوم فقط شعرت بنعمة الحياة .. لقد ذهبت مع ايلونا الى المدينة ولم أعبأ بكلام الناس ونظراتهم .. وسأذهب الى المدينة كل يوم لأثبت لنفسى أن أيام الصبر والعذاب والانزواء قد أوشكت على الانتهاء .

***

أصغيت اليها ، وقد أذهلنى التحول العجيب الذى طرأ عليها .

كانت قبل ذلك ترسل الكلام متقطعا بسرعة وعصبية ، دون أن تمهل لتلتقط أنفاسها ، ولكنها الآن تتحدث فى تؤدة واتزان .

وكان وجهها من قبل شاحبا .. متقلص العضلات .. ولكنه الآن متورد متألق بنضارة الصحة والشباب ..

ان الفتاة الكسيحة المتجهمة قد تحولت .. كأنما بسحر ساحر .. الى مخلوقة باسمة ممتلئة حيوية وأملا .. تتألق عيناها نشوة ومرحا

.. ربما لم اكذب عليها ، وربما كانت فى طريقها فعلا الى الشفاء !!

وتذكرت قول كوندور « اذا ساعد الخداع على الشفاء أصبح علاجا من الطراز الاول » .
فلأتركها اذن فى وهمها .. ما دام الوهم يسعدها ويرد عليها الشباب والمرح ، ويساعدها على مقاومة المرض واستقبال الحياة.

***

فى عصر اليوم التالى ، كنت أهم بمغادرة الثكنة حين اقبل على تابعى وبيده برقية .
شعرت بالانقباض والقلق ، وحدثتنى نفسى بأن هذه البرقية لا يمكن أن تكون بشير خير .

***

فضضتها وقرأت فيها هذه الكلمات :
« طلب الى أن ازور آل كسفالفا مساء اليوم ، انتظرنى فى الساعة الخامسة فى حانة فاينشتوب » .

« كوندور »

* * *

حانت اذن ساعة الحساب ، وآن لى أن أدفع ثمن الكذبة التى أدخلت السعادة على نفوس بعض الناس ..
وكانت الساعة الخامسة قد انتصفت ، فقصدت توا الى الحانة التى ذكرها كوندور ، وما كدت احتسى قدحا من القهوة حتى رأيت الطبيب مقبلا .

قال لى فى غير احتفاء وبلا مقدمات :
ـ كنت أعلم أنك انسان يمكن الركون اليه .. دعنا ننتحى ركنا قصيا حتى لا يسمع حديثنا أحد .
كانت تبدو على وجهه دلائل الاهتمام والجد ..
قال للخادم فى غلظة وخشونة :
ـ جئنى بقدح من القهوة ودعنا وحدنا ولا تأت حتى أدعوك .
ثم تحول الى وقال :
ـ لنتحدث فى الموضوع .. لقد تلقيت اليوم برقية من كسفالفا هذا نصها : « احضر اليوم ، كلنا ننتظرك بفروغ صبر ، وكلنا نثق فيك . ونشكرك » .

ان صيغة البرقية وأسلوبها ينبئان بأن وراء الأكمة ما وراءها .
لقد فحصت أديث منذ يومين ، فلماذا هـذه الدعوة الملحة ؟ ولماذا توكيد الثقة والتعبير عن الشكر ؟ ولكنى أعرفه أطوار كسفالفا وغرابتها ، ولذلك أهملت البرقية ، غير اننى فوجئت بعـد قليل برسالة طويلة عاجلة من أديث ، رسالة كلها جنون وهوس ، قالت فيها انها كانت تعلم من البداية انه لا يوجد فى الدنيا من يستطيع شفاءها سواى وانها تؤكد لى بأنها ستكون طوع بنانى وستنفذ جميع تعليماتى عندما أبدأ العلاج بالعقار الجديد ، انما يجب أن أبدأ هذا العلاج فورا لأنها لم تعد تطيق صبرا .. الخ .. الخ ..

ان اشارتها الى هذا العلاج الجديد ألقت ضوءا على الموضوع كله فقد أدركت ان شخصا لابد قد تحدث الى كسفالفا أو الى ابنته عن تجربة الدكتور فيانو وهـذا الشخص لا يمكن أن يكون أحدا سواك انت يا سيدى الضابط .

ولابد اننى انكمشت فى مكانى ، لأنه استطرد قائلا فى حزم :

ــ ارجو الا تكون هذه الحقيقة موضوع مناقشة ، لأننى لم أتحدث عن تجربة فيانو الى كائن من كان سـواك ، فاذا اعتقـد كسفالفا أن مرض ابنته يمكن شفاؤه خلال أيام أو أسابيع فأنت المسئول ، ولكنى لا أريد أن أناقشك الحساب ، اننى أخطأت حين طرحت الحذر جانبا فى حديثى معك . وانت معذور لأنك لا تعلم أن منطق المرضى وذويهم يختلف عن منطق سائر الناس .. وانهم سرعان ما يحولون (الاحتمالات) الى حقائق مؤكدة .. وانهم يجب أن يمنحوا الأمل قطرة بعد قطـرة ، والا طاشت عقولهم وذهب التفاؤل بصوابهم

ولكن دعنا من كل ذلك الآن . ان ما حدث قد حدث .. وأنا لم أطلب اليك الحضور لكى ألقى عليك محاضرة ، وانما استقدمتك لكى نضع الأمور فى نصابها .

أنا أعلم أن ماسأقوله لك الآن سيضـايقك ، ولـكن الوقت لايتسع للعواطف .

عندما حدثتك عن المقـال الذى قرأته فى المجلة الطبية ، قلت لك اننى كتبت الى الأستاذ فيانو فى طلب مزيد من الايضاحات عن العقار الجديد الذى ورد ذكره فى المقـال ، ولم أقل لك شيئا غـير ذلك ..

والجديد فى الموضوع أننى تلقيت ردا على كتابى فى نفس البريد الذى حمل الى خطاب اديث ، والرد فى ظاهره ايجابى ، لأنه يؤكد نجاح التجربة فى حالة أو حالتين ، ولـكن من سوء الحظ ـ وهذا هو المزعج ـ ان حالة اديث ليست من الحالات التى يمكن علاجهـا بنفس الطريقة ، لقد نجحت طريقته فقط فى حالات مرض العمود الفقرى نتيجة للاصابة بالدرن ، وهى حالات قابلة للشفاء بوسائل كثيرة ، أما حالتنا فانها للأسف الشديد ليست من هـذا النوع ، وحرام ان نعذب الفتاة المسكينة بغير طائل ..

هذا هو الموقف الآن ، وقـد صارحتك به لتعرف كيف انك جنيت على الفتاة حين مددت لها حبال الأمل ، وبشرتها بأنها سوف تستطيع أن تجرى وترقص بعد بضعة شهور ..

وكان لزاما على ان اقول شيئا دفاعا عن نفسى . فغمغمت قائلا

ـ اننى لم ارتكب اثما .. واذا كنت قد قلت شيئا لكسفالفا فانما فعلت ذلك لأن ....

فقاطعنى قائلا :

ـ اننى أعرف طباعه .. وأعلم انه لابد قد انتزع الـكلام منك انتزاعا .. انه يعرف كيف يحطم اعصـاب اى انسان بمثابرته والحاحـه ..

وليس شك فى انك فعلت ما فعلت مـدفوعا بعامل الشفقة ، والشفقة شعور نبيل ، ولـكنها سلاح ذو حـدين ، ويحسن بمن لا يعرف كيف يمنحها أن ينفض يده منها ..

انها عقار مخدر يرتاح اليه المريض فى البداية ثم يدمنه .. ولا يزال يطلب المزيد منه حتى ينضب معينه .. ومتى قال المشفق « كفى » .. انقلب عليه المريض واصبح له عدوا ..

إن الشفقة قد تكون فى بعض الأحيان أشد ضررا من الاهمال

واللامبالاة .. وتلك حقيقة نعرفها نحن الأطباء .. ويعرفها القضاة ويعرفها المرابون ..

ولكن دعنا من هذه البحوث السيكولوجية ، ولنجد حلا عمليا للموقف ..

اذا كانت تجربة الدكتور فيانو قد اضلت القوم وملأت رءوسهم بالخيالات والأوهام فالرأى عندى ان نواجههم بالحقيقة .. وخير البر عاجله .

أعلم انهم سيصدمون .. لأن الحقيقة مرة دائما .. ولكن رد الفعل سيكون أهون عليهم الآن منه فيما بعد ..

وكف عن الكلام ، ومن الواضح انه كان ينتظر موافقتي ..

ولكنى لم أجسر على مجرد التفكير فى هدم سعادة اديث وتقويض آمالها ..

قلت :

ــ الا يمكن التريث ولو بضعة ايام قبل ان نطرق هذا الموضوع ؟ الا يمكن الانتظار ريثما تصبح أديث على استعداد من الناحيتين الصحية والنفسية لتلقى الصدمة ؟ ..

انها تعيش الآن بأمل واحد ، هو ان يحقق العقار الجديد المعجزة المرجوة .. أفلا تظن أن هذا الأمل خليق بأن يعجل بشفائها ؟ ..

ــ هذا رأى لا بأس به ، وقد فكرت فيه مليا ، وليس أيسر على من ارسالها الى سويسرا بدعوى تجربة عقار جديد تحت اشراف صديق لى من الأطباء هناك ..

وأؤكد لك ان النتائج الأولى ستبعث على الدهشة ، وستتحسن صحتها تحسنا ملحوظا بفضل الأمل والوهم ، وتغيير الجو والبيئة .. ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا يحدث بعد شهر أو شهرين حين تكون العوامل النفسية والطبيعية قد استنفدت اغراضها ؟ ..

ان واجبى كطبيب يحتم على الا أهتم بالمرحلة الأولى للعلاج فحسب .. وانما بالمراحل التالية كذلك ، ونحن الأطباء نعتبر البتر ارحم الوسائل .. فهل تضطلع انت بمسئولية ارجاء تبديد الوهم الذى تعيش فيه الفتاة ؟ ..

فأجبته دون تردد !

ـ نعم .. واعدك بان اظهرها على الحقيقة حين تتحسن صحتها ولو قليلا ...

ـ اتفقنا اذن ... نحن كلانا نريد لها الخير على كل حال ... فلنفسح لها فى الأمل بضعة اسابيع أخرى ، واذا أصابتها فيما بعد ازمة نتيجة لخيبة الأمل فاننى سوف أعتمد على معونتك ، اما اذا حققت تقدما فستكون انت وحدك صاحب الفضل فيه ...

سأذهب الآن ... فان القوم ينتظروننى هناك ...

قال ذلك وودعنى وانصرف الى حيث كانت سيارة كسفالفا فى انتظاره ...

***

وبعد ثلاث ساعات ، وجدت على مكتبى رسالة كتبت بسرعة وجاء بها سائق السيارة ...

وفضضت الرسالة وقرأت فيها :

« بكر فى الحضور غدا ما استطعت ، فعندى اشياء كثيرة اريد أن أقولها لك ، لقد زارنا الدكتور كوندور وسنرحل بعد عشرة أيام ... انني جد سعيدة » ...

اديث

***

ولما ذهبت اليها مبكرا فى اليوم التالى ، وجدت الامور تجرى على نحو ماتوقعت تماما .. فقد استقبلنى الجميع بعيون باسمة ووجوه مستبشرة ...

وكنت قد أحضرت معى باقة من الورد لأحول بها بعض اهتمام القوم عن شخصى ، وكانت اديث فى شرفة البرج ، فصعدت اليها وما كدت اقدم اليها باقة حتى هتفت !

ـ لم هذا الورد بحق السماء ؟ اننى لست من نجوم المسرح أو السينما ...

وجلست على مقربة منها ، وبدأت هى الحديث وراحت تتكلم بسرعة وحدة دون ان تترك لى فرصة للرد أو التعقيب ...

قالت ان الدكتور كوندور رجل عجيب ، أنه اعجب انسان في الوجود وقد ملأها شجاعة واملا . وانهم سيذهبون الى سويسرا بعد عشرة ايام .. ولكنها لا ترى سببا لهذا الابطاء .. ما دامت قد صحت العزيمة على بدء العلاج بصفـة جدية .. فلماذا لا يبداون فورا ؟ انها كانت تعلم أن كل وسـائل العلاج القديمة كانت لعبا وعبثا ، وانها حاولت الأنتحار مرتين من فرط يأسها ، ولـكنهم كانوا ينقذونها كل مرة في آخر لحظة .. وانه ليس في استطاعة اي انسان أن يتحمل مثل هذه الحياة الشقية الى أجل غير مسمى .. حيث لايستطيع أن يخلو الى نفسه لحظة واحدة وحيث يعتمد على الآخرين في كل صغيرة وكبيرة ، وهو يعلم دائما أن العيون ترقبه وتتجسس عليه في الليل والنهار ..

وذلك التحسن الطفيف الذى طـرا عليها على مدى خمســة اعوام ، ما قيمته ؟ . اما شفاء كامل .. والا فالموت أفضل ..

وكانت الكلمات تقتتل في فمها وتنحدر كالسيل ، فشعرت كما يشعر الطبيب حين يصغى الى هذيان مريضه ، ويدرك في قلق أن كل هذا نتيجة اضطراب عقلى ..

وكانت كلما قرنت حديثها عن آمالها واحلامها ، وشفائها المنتظر باحدى ضحكاتها المرحة ، سرت في جسدى رعدة شديدة لأنني اعلم مالا تعلمه ، وانها لا تعرف الحقيقة ، وتعيش في خدعة كبيرة ..

واخيرا كفت عن الكلام وسألتني فجأة :

ـ ماقولك الآن في كل هذا ؟ ولماذا تبدو هكذا شاردا مذهولا ؟ لمـاذا لا تقول شيئا ؟ الا تشاطرني سعادتي ؟

***

كان هـذا هو الوقت الذى ينبغى أن اتحمس فيه للظـروف الجديدة .. ولـكنى انسان لا يعرف الكذب والنفاق ، ولا خبرة له بأساليب الخداع المتعمد ..

أجبتهـــا :

ـ كيف تقولين شيئا كهذا ؟ ان الأمر كله كان مفاجأة لى ..

وهناك مثل يقول « ان السعادة المفرطة تخرس اللسان » .. ليس ثمة شك فى أننى سعيد لسعادتك ..

ولابد انها لاحظت فتورى . والابتسامة المتكلفه التى وضعتها على شفتى ، لأن سحنتها انقلبت فجأة ، وبدت كانســـان يوقظ بخشونة من حلم سعيد . فتلاشت الابتسامة المرحة التى كانت تشع من عينيها ، وتعلقت عيناها بعينى لحظة ، ثم تغضن جبينها وقالت :

ـ لست أرى فى وجهك امارات السعادة التى تزعمها ..

ـ ياابنتى العزيزة ..

ولـكنها قاطعتنى بأن صاحت فى وجهى

ـ لا تدعنى ابنتك العزيزة .. أنت تعلم اننى لا اطيق سماع هذه الـكلمة .. وتعلم انك لست أسن منى كثيرا

وبعد ، فاننى أستطيع ان اصـــدق انك سعيد حقا ، وكيف لا تكون ، وهذا البيت سيغلق عدة شهور وستصبح حرا طليقـــا تلعب الورق مع أصدقائك فى المقهى كما تريد ، وتستريح من عبء القيام بدور الصديق المخلص الشفوق

نعم أستطيع انأصدق أنكسعيد بحريتك التى ستستردها .. وبالأوقات السعيدة التى تنتظرك ..

***

يا الهى ! ! ما معنى هذه الثورة ؟ ..

ترى هل فهمت شيئا ؟ ترى هل عرفت الخدعة ؟

ورأيت أعراض العاصفة المقبلة تتجمع فى جبينها ، وحاولت أن اتجنبها بنقل الحديث الى ميدان آخر ..

قلت :

ـ نعم ، أوقات سعيدة حقا ! ! ! الا تعلمين ان الشهور القادمة هى أسوأ شهور السنة بالنسبة الينـــا نحن رجال الجيش ؟ .. انها الشهور التى تتمزق فيها أعصابنا .. لأنها الفترة التى نتأهب فيها للمناورات الكبرى ، التى تستمر أحيانا حتى شهر سبتمبر .

ـ حتى شهر سبتمبر ؟ ! ..

واستغرقت فى التفكير لحظة ثم قالت :
ـ اذن متى ستلحق بنا ؟..
فلم افهم ماذا عنيت ، وسألتها فى سذاجة :
ـ الحق بكم أين ؟..

فحملقت فى وجهى مرة أخرى وقالت :

ـ الا تكف عن هذه الأسئلة الغبية ؟ اقول متى ستأتى لزيارتنا .. لزيارتى ؟ ..
ـ أين ؟.. فى سويسرا ؟..
ولم أتمالك من الضحك ..

كان من المضحك حقا أن تتصور أن فى استطاعتى اللحاق بهم فى سويسرا ، انا الذى لا تتحمل ميزانيتى المتواضعة نفقات السفر الى فيينا ..
أجبتهـــا :
ـ الآن عرفت حيـــاة العسكريين كما يتخيلها المـدنيون .. التسكع فى الطرقات ، ولعب الورق فى المقاهى .. والسفر ـ كلما طاب لهم ذلك ـ لقضاء بضعة أسابيع فى أية بقعة من بقاع العالم ..

أمر غاية فى البساطة .. يذهب الضابط الى قائده ويرفع يده الى راسه محييا ويقول له : الى اللقاء يا كولونيل .. ســـأقضى بضعة أيام فى سويسرا ، فابحث عمن يتولى تدريب الجنود ، ريثما يطيب لى أن أعود ..
كلا يا آنسة اديث .. ان لديك فكرة عجيبة عن نظام الجيش..

ـ كلام فارغ .. كل شىء يصبح سهلا ميسورا متى أردت حقا وصممت عليه .. لا تتوهم انك شخص لا غناء للجيش عنه .. أى ضابط آخر يستطيع تدريب جنودك .. وبهذه المناسبة ، أن أبى يعرف كبار المسئولين فى وزارة الدفاع ويســتطيع تدبير اجازتك خلال نصف ساعة ..

ولن يضيرك على كلٍ حال أن ترى من الدنيا ما لا تراه فى الثكنة وساحة التدريب ..

كلا .. كلا .. لست أقبل عذرا ، لقد رتبنا الأمور وانتهى كل شيء ..
وضايقنى أن تتصور هذه الفتاة الغرة ان كبار الضباط الذين ننظر اليهم كأنهم آلهة أو أنصاف آلهة ، خدم عند أبيها ، يستطيع أن يصدر اليهم أوامره ، ويملى عليهم ارادته ..

ولكنى كظمت غيظى ، وقلت لها وأنا أحاول الإحتفاظ بهدوئى ومرحى :
ـ كلا يا آنسة .. ان الأمر ليس بالبساطة التى تتصورينها .. هبى انهم منحونى الاجازة على طبق من فضة ، دون أن أضطر الى استجدائها وأنا جاث على ركبتى ، فهل تعلمين كم تتكلف الرحلة الى سويسرا ؟..
ـ أهذا ما تعنيه ؟ انها لن تتكلف كثيرا ، بضع مئات من الكرونات .. وهو أمر غير ذى بال ..
وهنا لم أستطع اخفاء غضبى ..

كانت حاجتى الى المال احدى العقد التى تتحكم فى حياتى ، واننى قلت فى البداية أننى أحد الضباط القلائل الذين لم يكن لهم ايراد خاص ، واننى لم أكن أملك ما أعتمد عليه فى حياتى غير مرتبى والدريهمات التى أوقفتها على زوج عمى .

كان زملائى يتحدثون عن المال كما لو كان لديهم منه أكوام ، وكنت فى هذه الحالة أشعر بأننى كسيح ، واننى أسير على عكازين .. ولهذا ضايقنى أن تتجاهل هذه الفتاة الكسيحة صحيا .. شعور انسان يعلم أنه كسيح ماديا ..
قلت لها ساخرا :
ـ بضع مئات من الكرونات فقط ! . مبلغ تافه بالنسبة لضابط ، ومن فساد الذوق أن أتحدث عنه ... أليس كذلك ؟ هل لديك فكرة عن المرتب الذى أتقاضاه ؟ . مائتا كرون شهريا ، يتعين على أن أعيش بها ثلاثين يوما وان أظهر فى المستوى اللائق بالضباط ... وليكن الله فى عونى اذا نفق جوادى ... هنا تكون الطامة الكبرى ... نحن يا آنسة نعيش فى فقر براق ..

فاحمر وجهها خجلا وغمغمت :
ـ ومع ذلك تشترى لى باقة ورد غالية الثمن ...
وهنا ساد بيننا صمت مؤلم ..
شعر كل منا بالخجل ، بعد أن جرح كلانا صاحبه .. ثم قالت اخيرا :
ـ ما كان ينبغي ان نجعل لنفقات الرحلة كل هـذه الأهمية ، وما دمت ستأتي لزيارتنا ، فمن الطبيعي أن تكون ضيفنا ، هل تظن أن ابي يرضى بأن يكبدك هذه النفقات اذا تفضلت بزيارتنا ؟ كلا كلا .. انني لا أسمح لك بأن تثير أى اعتراض في هذا الصدد

ـ صبرا ... هناك كلمة اخرى يجب ان اقولها كل شيء بيننا يجب أن يكون واضحا تماما اعلمي اذن انني لن أسمح لكائن من كان بأن يحصل لى على اجازة لأنني لا اريد امتيازات خاصة ، واحب ان أعامل على قدم المساواة مع زملائي .
ـ اذن أنت لاتريد الحضور ..
ـ لم اقل لك انني لا اريد الحضور .. وانما قلت لك لماذا لا أستطيع الحضور ..
ـ حتى ولو توسل اليك أبي ؟
ـ حتى ولو فعل ذلك ..
ـ حتى ولو توسلت اليك كصديقة عزيزة ؟
ـ أرجو الا تفعلي .. اذ لا فائدة .
فأطرقت برأسها ، ولكنني رأيت من ارتجاف شفتيها ـ ذلك النذير الذي لا يخطىء ـ بأن العاصفة على الأبواب ..
لقد مرت هذه الفتاة المدللة بتجربة جديدة لا عهد لها بها . لقد سمعت لأول مرة في حياتها كلمة « لا » ..
هذه الكلمة لم تألفها ولذلك كانت بالنسبة اليها بمثابة جرعة مريرة ..
ـ وبحركة غاضبة ، تناولت باقة الورد من فوق المنضدة وقذفت بها عبر سور الشرفة .. وصاحت بصوت كفحيح الأفعى :
ـ الآن عرفت قيمة صداقتك ، وقد كان من الخير أن اضعها موضع التجربة ..

انك تلوذ بهذه الأعذار الواهية اشفاقا من شقشقة السنة أصحابك فى المقهى .. وتدمر سعادة صديقة لك حرصا على مركزك فى الفرقة ..

على رسلك اذن .. اننى لن أتوسل اليك .. فلا تأت .. مادمت لاتريد ..

ـ ولكنى أدركت أن غضبها لم يذهب تماما لأن أصابعها كانت لاتزال تنقر على حافة المنضدة بالحاح واصرار ، وكانت هى لا تزال تردد :

ـ على رسلك اذن .. على رسلك ..

ثم استطردت قائلة :

ـ انتهى الأمر .. انك رفضت طلبنا المتواضع ، ورفضت زيارتنا لأنها تثقل ميزانيتك .. لا بأس .. سوف تعيش بدونك كما عشنا فيما مضى .. على أن هناك أمرا أريد أن أعرفه ، فهل تصدقنى الجواب ؟

ـ طبعا ..

ـ هل تقسم بشرفك على أن تقول الصدق ؟

ـ أقسم بشرفى ..

ـ لاتجزع .. فلن الحف على سموك بشأن الزيارة .. ولكن هناك أمرا أود معرفته ، أمرا واحدا فقط .. وأرجو أن تذكر أنك أقسمت بشرفك ..

ثم تنهدت واستطردت قائله :

ـ انك ترفض زيارتنا لأنها تثقل ميزانيتك كما ذكرت ؟ والحقيقة أن الفكرة لا تروقك .. أو أن الزيارة تضايقك .. فهل لك أن تقول فى صراحة لماذا تأتى لزيارتنا على الاطلاق ؟ .

كنت متأهبا لأى سؤال الا هذا ..

وأردت أن أكسب بعض الوقت للتفكير فغمغمت قائلا :

ـ الأمر بسيط ولم يكن يتطلب أن أقسم بشرفى ..

ـ أهو بهذه البساطة ؟؟ تكلم اذن ..

كان أسلم الأجوبة هو أن أصدقها القول .. وكان ينبغى أن أعالج الأمر بلباقة وكياسة ..

ـ ليست هناك اية اسباب خاصة او غامضة .. فانا كما تعلمين ، لست الرجل الذى يفكر كثيرا فى حوافزه ، فلم يخطر لى قط ببال ان اسأل نفسى لماذا ازور هذا الشخص او ذاك ! . ولماذا احب بعض الناس ولا احب بعضهم الآخر ... واقسم لك بشرفى انى لا استطيع ان اذكر سببا آخر سوى اننى اتردد على هذا البيت لاننى اشعر فيه بسعادة لا اشعر بمثلها فى اى مكان آخر

انكم تتصورون ان العسكريين يحيون كالفرسان الذين نشهدهم فى الأوبرا حياة كلها مرح وعبث وولائم وحفلات ، ولا تعلمون ان حياة الضباط داخل الثكنة هى كفاح مستمر حتى لا يتخطاه اقرانه فى الترقية .. وحذر دائم حتى لا ينطق بكلمة تغضب رؤساءه . وانه لا يمكن ان يشعر كانه فى بيته وهو فى الثكنة او فى الحانة .. فهناك لا احد يحتاج اليه ، ولا احد يهتم به ...

ولكنى حين ازور هذا البيت ... اطرح همومى ومتاعبى جانبا ... وعندما اتحدث اليك ...

فقال بضجر

ـ نعم ... ماذا يحدث ؟

ـ .. احس كأننى فى بيتى ... وعندما انظر اليك اشعر بأننى لست عديم الأهمية كما انا فى الفرقة

وكثيرا ما اشفقت من ان تكون زياراتى مصدر ضيق وازعاج لك .. ولكنى كنت اقول لنفسى دائما ... انك وحيدة هنا فى هذا البيت الفسيح ، وستشعرين ببعض الراحة والسعادة اذا كان هناك من يأتى لزيارتك والتحدث اليك

وكلما رايتك وحدك فى غرفتك او فى هذه الشرفة ، قلت لنفسى اننى احسنت صنعا بالقدوم والا لقضيت يومك كله وحيدة ..

هل فهمتنى الآن ؟

* * *

كان لهذه الكلمات رد فعل لم اتوقعه .. فقد غامت عيناها فجاة ، واشتدت نقرات اصابعها على حافة المنضدة .

ثم قالت :

ـ نعم .. نعم .. فهمت ؟ واعتقد انك قلت الصدق ...

لقد عبرت عما يدور بخلدك فى ادب وكياسة ... ولكنى فهمت ما تعنى .....

انت تاتى هنا فقط لاننى وحيدة   او بمعنى آخر ... لاننى مشدودة الى هذا المقعد اللعين .....

تاتى فقط لكى ترفه عن (الطفلة) المريضة المسكينـة وتؤنس وحشتها

تاتى بدافع الرحمة والشفقة ليس غير .....

انى أصدقك ؟ وأفهم شعورك ....

انت أحد أولئك الناس الطيبين الذين يغدقـون شفقتهم على الكلاب الجائعة والقطط الضالة ... فلماذا لا تغدقها ايضا على طفلة كسيحة ؟!

ثم اعتدلت فى مقعدها فجاة ، وصاحت وهى ترتجف بعنف !

ـ شكرا لك .. اننى فى غنى عن هذه الصداقة التى تتصدق على بها لمجرد اننى كسيحة .. لماذا تصطنع الحيرة والدهشـة ؟ .. الم تعترف فى التو واللحظة بانك انما تاتى لزيارتى لاننى وحيدة ... ولان تكبتى تدمى قلبك وتثير شفقتك ؟ ..

انها الشفقة التى تسوقك الى هنا ... ولكنى لا أريد الشفقة من أحد .. لا اريدها منك انت بصفة خاصة ... هل تسمعنى ؟ ..

.. فى استطاعتى أن أعيش بدونها ... ومتى فرغ صبرى ، وضقت ذرعا بحياتى ... فاننى اعرف كيف اتخلص منكم جميعا ... انظر .....

وكشفت فجاة عن معصم يدها واستطردت !

ـ انظر الى هذا الجرح ... لقد حاولت مرة أن اقطع شريان يدى بالمقص .. ولكنهم انقذونى فى آخر لحظـــة ... ولولا ذلك لتخلصت منكم جميعا ومن شفقتكم السخيفة ، ولكن ثق من اننى لن اخطىء الهدف فى المرة القادمة ...

انظر .... لقـد نسى ابى شيئا هاما حين شيد لى هـــذه الشرفة ...

كانت فكرته أن أنعم بالمناظر الطبيعية وبأشعة الشمس الدافئة وبالنسيم العليل .. تنفيذا لأوامر الطبيب ، ولكن لم يخطر بباله ولا ببال الطبيب والمهندس انني استطيع ذات يوم أن أستخدم هذه الشرفة لغرض آخر ...

ــ أنظر ..

قالت ذلك ومالت بكل جسدها على سور الشرفة وأمسكت بحافته واستطردت :

ــ اننا على ارتفاع خمسة طوابق على الأقل . وهو ارتفاع كاف ... والأرض حول البرج مرصوفة بالحجارة ... ولا يزال في ساعدى من القوة والحمد لله ما يساعدنى على تخطى السور

حركة واحدة وأتخلص منك ومن شفقتك المقيتة .. ويومئذ ترتاحون جميعا ... أنت وأبى وايلونا .. حركة واحدة كهذه ...

وقذفت بنفسها فوق حاجز الشرفة بسرعة البرق ، ولكنى وثبت نحوها فى ذعر ، وأمسكت بساعديها ..

فصاحت ، وكأن يدى نار أحرقت ساعديها :

ــ اليك عنى ... كيف تجرؤ على أن تمسنى ... اليك عنى ...

ولكنى أبيت أن أتركها ، وحاولت أن أجذبها بعيدا عن الحاجز ، وحينئذ دارت بجسدها بكل قوة ، ولطمت صدرى بعنف ..

وفى هذه اللحظة حدث شىء مخيف ، فقد أفلتت يدها الاخرى حاجز الشرفة .. وانثنت ركبتاها تحت ثقل جسدها ، فهوت على الأرض ، واسقطت معها المنضدة بما عليها من صحاف وأقداح .. كذلك سقط الناقوس الصغير ، فأحدث ذلك كله ضجة رهيبة ..

رأيتها على الأرض كومة لا حول لها ولا قوة ، ودموع الغضب والخجل تنهمر من عينيها ..

وحاولت أن ارفع جسدها النحيل ولكنها صاحت :

ــ اذهب .. اذهب أيها الوحش ..

وراحت تضرب بيديها ذات اليمين وذات الشمال ، وتحاول النهوض دون مساعدتى ، وكلما تقدمت اليها .. طوت جسدها لتنأى به عنى ..

كل ذلك وهى تصيح بى فى غضب وجنون :
ــ اذهب .... لا تمسنى ... اخرج من هنا

ولا بد أن يكون صوت سقوط الناقوس ، وتحطم الصحاف والاقداح قد نبه جوزيف ، لأنه ظهر امامنا فجأة .... وانحنى على الفتاة دون أن ينظر الى ، ووضعها فى مقعدها برفق ، ثم دفع المقعد أمامه الى المصعد ..

* * *

ولا أعلم كم من الوقت قضيت واقفا فى الشرفة بين حطام الأقداح والصحاف .. فقد كنت مشدوها من هول العاصفة التى انتهت بهذه المأساة ..

ترى هل قلت شيئا أثارها ؟

وعاد جوزيف ، وركع بجانبى فى هدوء ، وراح ينظف بقعة أصابت ثوبى من الشاى الذى انتثر من الآنية ، ولكنى قلت له :
ــ دع عنك هذا يا جوزيف ، سأستقل مركبة تذهب بى الى الثكنة وهناك استبدل ثيابى ..

فقال بصوت حزين :
ــ الا يستطيع سيدى الضابط ان يتريث قليلا ؟ انى اعلم عن يقين ان الآنسة ستحزن كثيرا اذا عجل سيدى الضابط بالانصراف ، ثم ان الآنسة ايلونا ترجوك أن تنتظرها ..

وكان صوته ينم عن حزنه ..

فعجبت .. كيف أنهم جميعا يحبون الفتاة العليلة ويلتمسون لها الأعذار ..

وجاءت أيلونا ، وهى مطرقة برأسها أيضا ، فقالت دون أن تنظر الى :
ــ ان اديث تسألك عما اذا كان فى استطاعتك أن تقابلها فى مخدعها لحظة ؟ .. لحظة قصيرة .. قالت ان ذلك يكون فضلا منك

فهبطنا درج السلم معا ، وسرنا فى الطريق الى القصر ، وما أن دنونا من مخدع أديث حتى توقفت عن السير وقالت فى همس :

ـ ترفق بها .. انا لا أعلم ماذا حدث فى الشرفة ، ولكنى أعرف الكثير عن ثوراتها الفجائية .. كلنا نعرف ، فلا تسىء الظن بهـا ..

ان الأصحاء مثلنا يستحيل عليهم أن يفهموا معنى ملازمة الفراش ليل نهار ... وثق من أن أحداً لا تشقيه هذه الثورات العارمة كما تشقيها هى ...

ثم استطردت محذرة :

ـ لا تطل بقاءك معها ...

ووجدت اديث ممددة فى فراشها ، ولم اتبين فى البداية شيئا كثيرا ، فقد كانت الستائر مسدلة على النوافذ ، ولكنى سمعت صوتها يقول فى لطف وحياء :

ـ تعال واجلس هنا .. على هذا المقعد ... لن أستبقيك الا لحظة ..

فجلست على مقعد بالقرب من الفراش ..

قالت :

ـ معذرة عن استقبالك هنا ... ان الشمس المحرقة فى البرج تؤثر على تفكيرى .. واعتقد اننى لم اكن فى وعيى حينما ... ولكنك ستنسى كل شىء .. ولن تضايقك خشونتى ورعونتى .. أليس كذلك

وكان فى صوتها توسل حملنى على أن اهتف :

ـ اظن اننى الملوم .. فما كان ينبغى أن أتركك تحت الشمس المحرقة كل هذا الوقت الطويل ..

ـ أصحيح اذن انك غير غاضب ؟

ـ نعم

ـ وستزورنا كالمعتاد ؟ .

ـ نعم .. انما بشرط واحد ..

فسألت فى قلق :

ـ أى شرط ؟

ـ أن تثقى بى ؟ والا تتصورى لحظة واحدة اننى ضاضيق بك .. وأن تحتفظى دائما بهدوئك ومرحك .. ان سعادتك تنعكس على جميع من حولك .. وعلى ..

ـ أحقا تقول ؟ لا شك انك على صواب . ما الفائدة فى أن يعذب الانسان نفسه ويعذب الآخرين ..

والآن ، دعنى أشكرك على كرمك وسعة صدرك .. ولكن .. ما هذا ؟ ! . ماذا أصاب ثوبك ؟ ! .

واشارت الى بقعة الشاى ، فاجبتها فى بساطة لأهدىء روعها :

ـ لا شىء .. لا شىء اطلاقا ، طفلة شقية القت على بعض الشاى .

فابتسمت وسألت :

ـ وهل ادبتها ؟

ـ كلا .. لم يكن ذلك ضروريا .. لأنها كفت عن شقاوتها ..

ـ الست غاضبا منها ؟ .

ـ كلا .. لقد اعتذرت بلطف ولعلك سمعت اعتذارها ..

والآن .. يجب أن تأوى الطفلة الى فراشها لتنعم بنوم هنىء .. طاب مساؤك

وبسطت لها يدى ، فشدت عليها بلطف ، وتحولت لأنصرف ، وما كدت أصل الى الباب حتى سمعتها تضحك قائلة :

ـ ألم تنس شيئا ؟ ماذا تنال الطفلة الوديعة قبل أن تنام ؟

ـ ماذا ؟

ـ انها تنال قبلة ! !

ـ طبعا ... طبعا .. لقد كدت انسى ..

وعدت ادراجى اليها ، ولاحظت انها قد حبست انفاسها فجأة ... ولم تحرك يدا أو أصبعا ... ولكن عينيها لم تتحولا عنى ..

وانحنيت فوقها ، وطبعت على جبينها قبلة سريعة بحيث لم تمس شفتاى بشرتها الا قليلا ..

ولكن يديها تحركتا بسرعة ، وكأنهما كانتا فى الانتظار فامسكتا براسى كالكماشة ، ونقلتا فمى من جبينها إلى فمها ..

واحسست بشفتيها تلتصقان بشفتي في عنف ، وبصـدرها يرتفع ليمس صدري ...

لم اتلق طيلة حياتي قبلة ظامئة ملتهبة كقبلة هـذه الفتـاة الكسيحة

ولم تقنع الفتاة بهذا .. بل ظلت متشبثة بفمي على فمها بقوة مجنونة ، حتى انقطعت انفاسها ، وحينئذ راحت اصـابع يديها تتحسس وجهي بقوة وتغوص في شعري .. كل ذلك دون أن تفلت رأسي ..

وبعد قليل ، خف ضغط يديها للحظة قصيرة ومالت برأسهـا الى الوراء ، وراحت تنظر في عيني كالمأخوذة .. ثم عادت فاجتذبتني اليها مرة أخرى ، وراحت توزع قبلاتها الجائعة المجنونة على فمي ووجهي وجبهتي وعيني ، بشراهة اذهلتني ، وكانت تهتف مع كل قبلة قائلة : انت أيها الغبي ... ايها الغبي الكبير ..

واخيرا ، تراخت يداها ، ومال رأسها على الوسادة .. وسكنت حركتها تماما .. ولـكن عينيها ظلتا تحملقـان في وجهي وفيهما نظرة فوز ..

ثم اشاحت عني بوجهها خجلا ، وهمست ، وانفاسها اللاهثة تتردد بسرعة :

ــ اذهب الآن .. اذهب الآن .. ايها الغبي الكبير ..

غادرتها وانا اترنح ، وبارحت الغرفة ، وقبـل أن أصـل الى نهـاية الدهليز الطـويل المظـلم ، كانت قواي قد خارت تماما ، فاستندت الى الجدار لأمنع نفسي من السقوط ..

اذن فهذا هو السر

.. سر غضبها وثورتها ، وهجماتها على بلا مبرر ..

ذعرت .. وكان شعوري شعور انسان وقف يتـأمل زهرة فلدغه ثعبان ..

لو أن هذه المخلوقة المفرطة الحساسية قد أهانتنى وضربتنى .. بل وبصقت على لاحتملتها ، لأننى أعرف علة قلقها وضيق صدرها .. أما أن تفكر هذه العليلة الكسيحة .. هذه الطفلة العاجزة التى لم تكتمل أنوثتها بعد .. أما تفكر هذه المخلوقة فى الحب ، وتريد أن تحب كأية امرأة موفورة الصحة ناضجة الأنوثة .. فذلك ما لم أتصوره ولم يخطر لى ببال ..

لقد فكرت فى كل احتمال الا هذا .. الا أن هذه المخلوقة التى كبلتها الأقدار فى مقعدها ، والتى لا تقوى على جر قدميها .. يمكن أن تحلم بالحب ..

فكرت فى كل احتمـال الا أن تسىء فهم أهدافى ، أنا الذى لم أتردد عليها .. ولم أزرها الا رحمة بها واشفاقا عليها ..

وهالنى أن تضعنى الشفقة فى هذا المأزق الغريب ..

والواقع ، أن هذه الشفقة المفرطة هى السبب الأول والأخير ..

انها ، ولا شىء سواها ، هى التى أوحت الى هـذه الطفلة الوحيدة ــ التى تعيش بمعزل عن العالم ــ أن زيارتى لها فى سجنها يوما بعد يوم ، يمكن أن تكون دليلا على عاطفة متأججة أخرى أرق من الشفقة ، وأقوى من العطف .. بينما لم أكن أنا أرى فيها سوى مخلوقة كسيحة تتعذب ، وطفلة بريئة لم تبلغ بعد مبلغ النساء .

نعم .. لم يخطر لى قط ببال أن تحت الأغطية التى تحجب ساقيها الكسيحتين جسـدا عاريا يضطرم بالحرارة .. وينبض بالشباب .. ويشتهى الحب .. كجسد أية امرأة طبيعية .. لم يخطر ببـالى فى أية لحظة ،ولم أتصـور فى يقظتى أو أحلامى ، أن المرضى والمشوهين والمنبوذين ، ومن لفظهم المجتمع السليم .. يجرأون على الحب ..

كنت أعتقد منذ البداية أن أديث انما تنظر الى كصديق طيب القلب ، حلو الحديث ، يدخل بعض التسلية على نفسها فى أوقات ضيقها ، ويرعى فى علاقته معها ومع ابنة عمها .. واجبات الصداقة الأفلاطونية المنزهة عن الغرض والجنس ، واذا كانت فتنة ايلونا

لقد استهوتنى فى وقت ما .. فانتى لم انظر قط الى اديث على انها من الجنس الآخر ، ولم ينصرف ذهنى الى ان جسدها العليل يمكن أن يزخر بشتى العواطف والأحاسيس والرغبات الملحة التى تزلزل كيان المرأة السليمة ..

* * *

« ايها الغبى » ..

.. هذه هى الكلمة العجيبة التى رددتها مرتين وهى تلتهم فمى .. وتضم صدرها الى صدرى ..

كانت على حق حين وصفتنى بالغباء ، فمن المحقق ان جميع من فى البيت : الرجل العجوز وايلونا وجوزيف وسائر الخدم .. قد ادركوا كل شىء منذ البداية وسبروا غور الفتاة ، وعلموا بما يعتمل فى نفسها ..

.. لابد انهم عرفوا قصة حبها فامتلأت نفوسهم خوفا وهلعا واشفاقا من النتيجة ..

.. وانا الوحيد الذى لم اشعر بشىء .. انا الغبى الذى كنت عبدا لشفقتى فظللت ازورها ، واتحدث اليها واضاحكها واقوم بدور المشفق الرحيم دون أن ادرك اننى ازيدها الما وعذابا بما اجهل من امرها ..

كنت كالبطل فى احدى المسرحيات الهزلية الرخيصة .. حين يجد نفسه محورا لمؤامرة ساخرة .. يعرف كل النظارة تفصيلاتها ويضحكون منها بينما هو الوحيد الذى يأخذ الأمور مأخذ الجد ..

وهكذا .. كان كل انسان فى بيت آل كسفالفا يرى سلوكى واخطائى ويهز راسه اسفا واشفاقا على الفتاة .. الى ان مزقت الفتاة بنفسها الحجب عن عينى بقوة وعنف ، والقت ضوءا ساطعا على كثير من الحوادث والتصرفات التى اذهلتنى .. واثارت حيرتها فى المدة الأخيرة ..

نعم .. الآن قد فهمت لماذا غضبت اديث حين قلت لها « يا ابنتى العزيزة ! » .

كانت تريد الا ينظر اليها الناس ــ وانا بصفة خاصة ــ كطفلة ، وانما كامرأة رشيدة لها كل الحق فى ان تصبو الى عشيق ..

الآن .. قد فهمت لماذا كانت شفتاها ترتجفان حنقا كلما ازعجنى مرأى عجزها وكساحها ، ولماذا كانت شفقتى تثير غضبها وموجدتها .. لا شك انها كانت تشعر .. بحساسيتها المرهفة .. ان الشفقة اقرب الى عاطفة الاخوة .. منها الى عاطفة الحب التى يمكن ان تكون بين رجل وامرأة ..

مسكينة هذه المخلوقة ! . لكم تعذبت وهى تنتظر كلمة او اشارة تدلها على اننى قد فهمت ! .

وكم شقيت وهى ترانى امرح والهو .. بينما هى تتحرق شوقا الى كلمة منى ترد عليها هدوء النفس وطمانينة الروح والجسد ! .

وهل اعجب بعد ذلك .. اذ كانت قد ضاقت ذرعا بصممى العاطفى .. فوثبت على كما يثب الوحش على فريسته ؟ .

* * *

مرت بذهنى آلاف الخواطر ، وانا مستند الى الجدار ، وساقاى اشد عجزا من ساقيها ..

وحاولت مرتين ان اتناول مقبض الباب .. ونجحت فى المرة الثالثة ..

كان الباب يؤدى الى قاعة الاستقبال ، وفى هذه القاعة باب يؤدى الى الردهة .. حيث تركت قبعتى وسيفى ..

قلت لنفسى وانا اجر قدمى جرا :

ــ يجب ان اسرع قبل ان ياتى جوزيف .. يجب ان اتجنب مقابلة ايلونا والرجل العجوز وكل انسان آخر من اولئك الذين تركونى اقع فى الهاوية وانا مغمض العينين ..



ولكنى فوجئت بايلونا فى قاعة الاستقبال ؟ ولابد أنها سمعت وقع اقدامى ، فخفت لمقابلتى ..

وما أن وقع بصرها على حتى اكفهر وجهها وصاحت :

ـ يا الهى ! . ماذا بك ؟ ! . انك شاحب شحوب الموتى ، هل من شىء أصاب اديث ؟ .

فاجبت وأنا أتأهب للانصراف ؟

ـ كلا .. لا شىء .. لا شىء .. اعتقد انها نائمة .. معذرة ؟ يجب أن اذهب ..

ولابد انها أدركت أن وراء وجومى واضطرابى شيئا ، لأنها امسكت ساعدى بقوة ، ودفعتنى الى أحد المقاعد وهى تقول :

ـ اجلس .. تريث لحظة حتى تسترد أنفاسك .. ثم انشعرك مشعث ويجب أن تصففه ..

وحاولت النهوض مرة أخرى ولكنها صاحت بلهجة الأمر !

ـ اجلس .. ساحضر لك بعض الشراب ..

واسرعت الى دولاب ، وملأت كأسا قدمته الى ..

ولم تحول أيلونا عينيها عن وجهى حتى احتسيت ما فى الكأس ؟ ثم جلست الى جانبى فى سكون ، ولم تكف طول الوقت عن النظر الى من ركن عينها فى قلق وجزع ، كما لو كنت مريضا مشرفا .. تخشى عليه من الانهيار فى اية لحظة .

واخيرا سألت :

ـ هل قالت .. هل قالت اديث شيئا ؟؟ .. اعنى هل قالت شيئا بشأنك ؟

وكانت فى صوتها رنة اشفاق وعطف اشعرتنى بأنها فطنت الى كل شىء ..

وكنت متعبا ، منهوك القوى ، مشتت الذهن ، فاجبتها باختصار :

ـ نعم

فصمتت ، ولاحظت ان انفاسها تتردد بشىء من العنف .. ثم همست بعد قليل :

ـ أحقا انك لم تعلم الا الآن ؟!..
ـ كيف كان يمكن أن أتوقع شيئا مزعجا كهذا .. ذلك جنون!
.. ثم لماذا أنا من دون الناس جميعا ..
فتنهدت وقالت :

ـ يا الهى !! .. يا الهى !! .. لقد كانت تتوهم دائما انك لا تلتقى الا من أجلها .. وطبعا لم أصدقها ، لأن سلوكك كان ينطوى على الصداقة والأخوة ولا شىء غير ذلك .. ولكن لم يكن هناك سبيل الى ردها الى الصواب .. كان من القسوة ان أسلبها وهما سعيدا ..

لقد عاشت اسابيع طويلة معتقدة انك .. ولما راحت تسألنى يوما بعد يوم عما اذا كنت أعتقد انك تحبها .. لم أجد بدا من التهوين عليها وتشجيعها .
فاستبد بى الغضب وصحت :

ـ يجب ان ترديها الى الصواب بأسرع ما تستطيعين . هذا جنون .. هذه نزوة طفلة مريضة .. وأكبر ظنى أنها مفتونة بالزى العسكرى ، ولو جاءها غدا ضابط آخر .. لحولت شعورها اليه.
أوضحى لها ذلك قبل أن يتفاقم الامر .. فليس أيسر على من فى سنها من ان تتغلب على هذه النزوة .

ولكن ايلونا هزت رأسها فى حزن وقالت :
ـ ياصديقى العزيز لا ينبغى أن تخدع نفسك ، فان الامر فيما يتصل بأديث اخطر مما تتصور ، انه يتفاقم يوما بعد يوم .. كلا .. كلا .. ليس فى استطاعتى أن أعالج هذا الموقف الدقيق على وجه مرض فى لحظة أو فى يوم .

أواه لو علمت ماذا يحدث فى هذا البيت !! انها تقرع الناقوس ثلاث او اربع مرات كل ليلة ، فاذا أسرعنا اليها فى ذعر وهلع وخوف من ان يكون قد أصابها مكروه .. وجدناها جالسة فى فراشها ، شاحبة الوجه . شاردة اللب ، زائغة العينين ، فتبادرنا بقولها :

ـ الا تعتقدون انه يحبنى ولو قليلا .. قليلا جدا ؟

وتكرر هذا السؤال عشرات المرات .. ثم تنظر فى مرآتها ، وتترك المرآة ، وتعتذر لنا عن تصرفاتها المجنونة .. ولكنها لا تلبث بعد ساعة أو ساعتين أن تعيد الكرة .. وهكذا دواليك طول الليل .

انها فى قلقها ولهفتها لا تكف عن استجواب أبيها وجوزيف والوصيفات .. والسؤال الذى يتردد على شفتيها فى كل لحظة هو « الا تظنون انه يحبنى ولو قليلا ؟ » .

لقد كتبت اليك خمس رسائل ومزقتها جميعا دون أن تبعث بها اليك ..

ومن الصباح حتى المساء .. ومن المساء حتى الصباح .. لا حديث لها الا عنك .

وكثيرا ما طلبت الى ان أسألك فى لباقة وكياسة عما اذا كنت تحبها ، وكانت لاتتركنى حتى احفظ عن ظهر قلب كل كلمة سأقولها لك .. ثم تعود فتعدل عن هذا الرأى وتعترف بسخافته ..

ولم يكن لك أنت علم بشىء من كل هذا ..

كان الامر بالنسبة اليك ينتهى بمجرد انصرافك . ولكن الباب لا يكاد يغلق وراءك .. حتى تردد كل كلمة قلتها ، وتسألنى رأيى فى هذه العبارة أو تلك الكلمة .. وهل تنطوى هذه أو تلك .. على معنى آخر غير معناها الظاهر ..

فاذا قلت لها .. لأسكن لهفتها : ها أنت ترين كم هو شغوف بك .. صاحت فى غضب : انت تكذبين .. انه لا يشعر بوجودى ..

ولا احدثك عن أبيها .. انه يحبها حب عبادة ، وبحسبك أن تراه جالسا على حافة فراشها ، وكله لهفة عليها ، أو تراه يذرع غرفته جيئة وذهابا طوال الليل ، باحثا منقبا عن وسيلة للخروج من هذا المأزق ،.. لكى تدرك أنها بالنسبة اليه حياته التى لا حياة له سواها ..

هذه هى المأساة التى نعيشها فى هذا البيت ، فهل حقا أنك لم تلاحظ قبل الآن شيئا من كل هذا ؟!

فلم اقو على كبح غضبى ، وصرخت فى وجهها :

ـ كلا .. كلا .. اقسم لك اننى لم الاحظ شيئا .. لم الاحظ شيئا على الاطلاق .. هل تظنين اننى كنت أواصل التردد على هذا البيت لألعب الشطرنج واصغى الى اغنيات الحاكى .. لو كانت لدى فكرة ولو يسيرة .. عما يجرى هنا ؟

ولكن كيف أمكن أن تتملكها هذه الفكرة الخرقاء ؟ كيف أمكنها أن تتصور احتمال استجابتى لمشاعرها الصبيانية وأوهامها الخرقاء ؟

واوشكت من فرط حنقى ـ لمجرد التفكير فى أن هناك من يحبنى على الرغم منى ـ أن اثب واقفا ، واطلق ساقى للريح ..

ولكن ايلونا أمسكت بساعدى فى حزم وقالت :

ـ مهلا .. مهلا يا صديقى العزيز .. وأرجو أن تخفض صوتك ، فان لها قدرة عجيبة على سماع ما يقال وراء الجدران ..

ثم أرجوك بحق السماء أن تكون عادلا منصفا ، ان الفتاة المسكينة قد استبشرت بأنك كنت أول من نقل الى ابيها النبأ السعيد ، نبأ العلاج الجديد ، وقد حملة اليها ابوها فى منتصف الليل .. وليس فى استطاعتك أن تتخيل ما حدث فى تلك الليلة ! لقد تعانقا وضحكا ، وبكيا ، وحمدا الله على أن أيام الشقاء والعذاب قد آن لها أن تنتهى .. وكانا على يقين من أن أدينث لا تكاد تقف على قدميها .. حتى تتقدم انت لطلب يدها ..

ولهذا ارى انه لا ينبغى أن تحطم آمال البنية المسكينة وتقذف بها الى هوة اليأس ، فى هذا الوقت الذى تحتاج فيه الى كل قوة والى سلامة أعصابها للسير بالعلاج الجديد الى غايته المرجوة

يجب أن نمضى بكل حذر .. واسأل الله تعالى الا تشعر الفتاة من قريب أو بعيد انك ترى فى عاطفتها المضطربة مجرد نزوة طارئة من نزوات المراهقة لا قبل لك بهضمها .

* * *

بيد أن الغضب اخرجنى عن طورى ، فصحت فى وجهها وانا ادق المائدة بقبضة يدى :

ـ كلا .. كلا .. والف مرة كلا .. لن اسمح لأحد بأن يجبنى على الرغم منى .. ولا اسمح لنفسى بالمضى فى تمثيل هذه الهزلة وكأننى لم الاحظ شيئا ..

انت لا تعرفين ما حدث فى غرفتها .. انها تسىء فهمى تماما ؛ لاننى لا اشعر بغير الشفقة ، ولا شىء غير الشفقة .

فصمتت ايلونا ، وارسلت بصرها الى الفضاء عبر النافذة ؛ وظلت كذلك وقتا طويلا ، ثم تنهدت وقالت :

ـ هذا ما خفت منذ البداية ان يكون يا الهى .. ماذا سيحدث بعد ذلك ؟.. وكيف السبيل الى اظهارها على حقيقة شعورك وردها الى الصواب ؟!

***

وساد بيننا صمت عميق ..

لقد قلنا كل ما يمكن ان يقال .. وانتهينا الى انه لا يوجد أى مخرج على الاطلاق .

وفجأة ، اعتدلت ايلونا فى جلستها ، وارهفت اذنيها ..

وفى ذات اللحظة .. سمعت صوت وقوف سيارة بالباب ..

لا بد ان القادم هو كسفالفا ..

قالت الفتاة وهى تثب من مكانها :

ـ من الخير الا تلقاه الآن .. فانك شديد الانزعاج ولن تستطيع التحدث اليه فى هدوء ..

صبرا حتى آتيك بقبعتك وسيفك ، وعليك بعد ذلك ان تتسلل الى الحديقة من الباب الخلفى حتى لا يراك احد ؛ وسوف التمس عذرا لانصرافك قبل موعد تناول العشاء .

***

ووثبت الى الردهة وجاءتنى بقبعتى وسيفى ، ومن حسن الحظ أن جوزيف كان قد هرول لاستقبال سيده ، فتسللت الى الحديقة وأنا فى أشد الهلع من أن القى احدا فى طريقى .

وللمرة الثانية ، هربت كاللص من ذلك البيت الملعون ..

اقـرا فى العـدد القـادم

القسم الثـانى والأخير

من هـذه القصـة ...

عاصفـة فى الجنـة

****

للكاتب النمسـوى الـكبير

ستيفان زفايج

****

ترجمة : عمر عبد العزيز امين

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية ـ الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثون جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد او غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .

الدار القومية للطباعة والنشر

روايات  عالمية

عاصفة فى الجنة

BEWARE OF PITY



العدد رقم ٢٤٦

عاصفة فى الجنة

قصة انسانية لم يسبق نقلها الى العربية

« الجزء الثانى والاخير »

للكاتب النمسوى الكبير

ستيفان زفايج

ترجمة

محمد عبد العزيز أمين

القســم الثانى

كنت أعتقد فى يفاعى ، وانا بعد شاب فى مقتبل العمر لم اختبر الدنيا ولم تعركنى الحياة ، ان عذاب الحب الذى لا أمل فيه ، هو أشد عذاب يمكن أن يعانيه القلب البشرى ، واسوا محنة يمكن ان يبتلى بها انسان ، أما الآن فأشعر بأنه ليس اشر من الرغبة المكبوتة ومن عذاب الصد والحرمان الا ان يكون الانسان محبوبا برغم انفه ، وعاجزا عن أن يدفع عن نفسه طغيان هـذا الحب الذى لم يسع اليه ولا ارادة له فيه ، والا ان يجد أمامه انسانا يحترق فى ضرام حبه ويذوب فى جحيم لهفته ، وهو لا يستطيع ان يمد اليـه يدا لانقاذه من اللهب ..

ان من يحب بلا امل ، قد يجد من العزيمة والارادة ما يعينه على دفع غائلة الحب ، والصبر على بلواه ، فاذا لم يستطع ، فانه يعلم على الاقل انه مصدر تعاسة نفسـه ، وانه هو وحده المسئول عما يعانيه من ألم وعذاب ..

ولـكن ما أتعس وأضيع من يكون محبوبا دون ان يبادل هـذا الحب او يجد له صدى فى نفسـه ! انه حينئذ لا يملك الا ان يقف من الطرف الآخر موقف المتفرج العاجز الأسيف .

وليس فى الدنيا من يستطيع ادراك عمق المأساة فى الحب غير المتكافىء .. سوى الرجل وحده ، لأن المـرأة حين تصـد ، انما تستجيب لناموس الطبيعة وشريعة جنسـها ، ومتى صـدت لم يتهمها احد بالقسوة واللانسانية ..

ولـكن ما ابشع المـأساة حين يقلب القدر الأوضاع ، وتتخطى المرأة حواجز الحيـاء والـكبرياء وتبوح بحبهـا لرجل لا يبادلها الحب ، وتعجز حرارة بدنها وقلبها عن تحريك عواطفــه الجامدة وقلبه المثلوج !!

ان الصد للمرأة حينئذ ، يكون معناه اهـدار حنانها وكبريائها والاساءة اليها فى انبل مشاعرها ، ولن يجدى الرجل ـ بعد ان تكشف

له المرأة عن ضعفها على هذا النحو ـ اىَ شىء يفعله لتهوين الأمر عليها ، سواء التمس الأعـــذار المهذبة ، او عـــرض عليها صداقته واخلاصه ، بدلا من الحب الذى لا يجد سبيلا الى قلبه .

ان مقاومته حينئذ تكون قسوة ، لايتمالك معهـــا من الشعور بالاثم وان لم يكن قد اثم ..

ماذا يكون شعورك وانت الحر الطليق الذى لا سلطان لأحـــد عليك حين تجد نفسك فجأة مطاردا وفريســــــة لغرام انسان آخر لاتشدك اليه مثل العاطفة التى تشده اليك ؟

ماذا يكون شعورك وانت تحس فى قرارة نفسك بأن هنــــاك امرأة .. وامرأة غريبة ، تترقبك ليلا ونهارا ، وتفكر فيك ، وتحن اليـــك ..

امرأة تريدك وتتلهف عليك ، بكل جارحة من جوارحها ، وبكل خلية فى جسدها ، وكل قطرة من دمها !!

امرأة تريد يديك وشعرك وشفتيك ورجولتك وليلك ونهارك .. وأفكارك واحلامك !! تريد ان تشاطرك كل شىء ، وتأخذ منـــك كل شىء ، وتمزج روحك بأنفاسها !!

ماذا يكون شعورك وانت تعلم بأن فى الدنيا شـــــخصا يؤرقه التفكير فيك وانت نائم وينتظرك وانت تلهو .. شخصا انت مصدر سعادته وآلامه .. ومحور تفكيره فى صحوه واحلامه ؟ ..

انك عبثا تحاول الا تفكر فيمن تفكر فيك ، وعبثا تحاول الفكاك والافلات لأنك تعيش فى اعماقها ..

ان قلبها اشبه بمرآة تعكس صورتك ، بل ان المرآة لا تعـــكس صورتك الا اذا وقفت امامها برغبتك ، اما هذه المرأة الغريبة التى تحبك فانها تستحوذ عليك فى دمها ، وتحملك معها أينما ذهبت .. ولا سبيل لك الا أن تصبر، وانت ترتجف غيظا وهلعا، من تصرفات ذلك الذى يتعذب من اجلك ..

أرأيت الآن ان أسوأ ما يمكن ان يبتلى به انسان هو ان يـــكون محبوبا برغم ارادته ؟ .

***

لم أتصور قط ، ولا فى احلام اليقظة ، أن تحبنى امرأة مثل هذا الحب الذى يتجاوز كل حد ، وتضؤل حياله كل القيم والتقاليد ..

كنت اسمع من زملائى واصدقائى ان هذه المرأة او تلك (تجرى) وراءهم وتطاردهم ، ولا اكاد اصدق ان تصل الجرأة والقحة والتجرد من الحياء والكرامة بامرأة الى هذا الحد ، ولم اكن اعلم فى ذلك الوقت ان كل لون من الوان الحب ، مهما يكن شاذا وباعثا على السخرية ، يجد دائما قلبا يسكن فيه ، وانسانا يرصده القدر ليصطلى بناره .

ولكن الانسان لا يحفل عادة بكل ما يقراه ويسمعه من هذه الأمور ، لأن القلب لايعرف حقيقة المشاعر الانسانية الا من التجارب الشخصية ، وقد كان لزاما ان اجرب بنفسى ثقل وطأة الحب غير المتكافىء على الشخص المحبوب لكى اشعر بالاشفاق سواء على المرأة التى تحاول فرض حبها العنيف على الرجل ، او على الرجل الذى يحاول بكل قواه ان يدفع عن نفسه هذا الحب غير المرغوب فيه .

ولو انتهى الأمر عند هذا لهان الخطب ، ولكن موقفى كان اسوأ وابشع ، لأنه اذا كان اذلال كبرياء المرأة قسوة ووحشية .. فبماذا يوصف سلوكى اذا انا قلت (لا) لتلك المراهقة المدلهة الكسيحة ، وسلبتها بذلك (العكاز) الوحيد الذى تحبو به فى حياتها وترتكز عليه كل آمالها ؟..

كنت أعلم ان فرارى من غرام هذه البنية المسكينة التى اثارت فى نفسى انبل واصدق الوان الشفقة لن يودى بعقلها فحسب .. وانما قد يودى بحياتها ايضا .. كما كنت ادرك اننى اذا شئت أن أجنب ضميرى أثقال هذا الوزر وعجزت فعلا عن حبها ، فلا اقل من أن أتظاهر بهذا الحب ..

على اننى لم يكن لى فى الأمر خيار ، فقد نفر جسدى وتمرد على قبلتها الفجائية قبل أن يشعر عقلى بالخطر .. ان غرائزنا تتحرك دائما بأسرع مما تعمل عقولنا ، وقد احسست منذ أول وهلة ، بعد أن تخلصت من أحضانها ، اننى لن أكون من القوة وانكار الذات بحيث أحبها كما تحبنى ، بل وقد لا اشعر نحوها من الشفقة بالقدر الذى يهون على قبول حبها الجارف ..

نعم ، اننى ادركت من اجفالتى الأولى انه ليس ثمة مخرج من

المأزق .. بل وليس هناك حل وسط .. ولابد لأحدنا أو لكلينا ان نشقى بهذا الحب العقيم

***

ولا ادرى كيف وصلت الى المدينة فى ذلك اليوم ، كل ما أعلمه اننى كنت أسير بسرعة فائقة ، وان هاتفا فى أعماقى ، كان يهتف بى مع كل نبضة من نبضات قلبى قائلا : ابتعد .. ابتعد .. ابتعد عن هذا البيت .. انقذ نفسك من هذه الورطة .. اهرب .. لا تعد الى هذا البيت ابدا .. ولا تقابل أولئك الناس .. لا تقابل أحدا على الاطلاق .. اختف .. توار عن الأنظار .. وحذار من الوقوع مرة اخرى فى مثل هذه الفخاخ ..

بل اننى فكرت فى اتخاذ خطوة اهم واخطر ،.. وقلت لنفسى اننى يجب أن اترك الجيش ، وأحصل على بعض المال بطريقة أو بأخرى ، وانطلق فى الدنيا الواسعة بعيدا جدا عن متناول هذا الحب الجنونى ..

ولكن كل هذه الخطط كانت مجرد أحلام وامنيات غير واضحة الشىء الوحيد الواضح كان ذلك الصوت الداخلى الذى يهيب بى أن أبتعد .. ابتعد ..

***

وقد ادركت فيما بعد ، من الغبار الذى يعلو حذائى ، ومن التمزيق الذى أصاب ثوبى ، اننى لابد قد انطلقت هائما على وجهى عبر الحقول والأدغال والمراعى ..

وعندما وجدت نفسى آخر الأمر فى الطريق الرئيسى ، كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، فجعلت اسير كمن يسير وهو نائم الى أن أحسست بيد توضع فجاة على كتفى وسمعت صوتا مألوفا يهتف بى :

ــ انطوان ! ! اهذا انت ؟ لقد عثرنا عليك فى الوقت المناسب بعد ان بحثنا عنك فى كل مكان .. وكنا على وشك أن نتصل بك تليفونيا فى ذلك القصر ..

ووجدت نفسى وسط أربعة من أصدقائى الضباط بينهم فيرنز وجوسى ، والكونت شتاينهوبل .
وقال الأول :

ـ هل تعرف لماذا ؟ لقد هبط علينا (بالينكاى) من السماء، جاء من هولندا او أمريكا أو لا أدرى من اين ، ودعا جميع الضباط للعشاء على مائدته فى منتصف الساعة التاسعة من مساء الليلة بفندق (الاسد الاحمر) .. سيحضر الكولونل ، وسيشهد الفندق الليلة سهرة صاخبة ، ومن حسن الحظ اننا عثرنا بك ولولا ذلك لارتفع صوت الكولونل حتى يبلغ عنان السماء .

وكنت لا أزال شارد الذهن مشوش الفكر فسألت :
ـ من هذا الذى جاء ؟..

ـ بالينكاى .. ما هذا الغباء الذى تبدو دلائله على وجهك ؟ لعلك ستقول انك لا تعرف من هو بالينكاى ! !
بالينكاى ! ! بالينكاى ! !

وكان راسى لا يزال يدور ، ولكن الغيوم ما لبثت أن انجابت عن ذاكرتى ، وتبلج اسم بالينكاى فى ذهنى كما لو كان شيئا يبرز وسط الدخان أو من تحت الغبار ..
نعم ، تذكرت بالينكاى الذى خدم فى الحامية برتبة ملازم ثان ثم برتبة ملازم أول واصبح من قبل أن انقل الى الحامية اسطورة من اساطير الفرقة ..

كان فارسا لا يشق له غبار ، ومقامرا بارعا ، وعاشقا جريئا ، ولم يكن لزملائه حديث الا عن مغامراته .. ثم حدث ذات يوم حادث غير كريم لا اذكر الآن تفصيلاته ، فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى خلع بالينكاى بزته العسكرية ، وغادر النمسا ، وراح يطوف بمشارق الأرض ومغاربها ، وكانت الشائعات الغريبة تصل الى الفرقة عن اعماله وتصرفاته ومغامراته فيتندر بها الضباط ، واستطاع آخر امر ان يقف على قدميه مرة أخرى بعد ان ... احد فنادق القاهرة على ارملة هولندية تملك ثروة واسعة وشركة

للملاحة تضم سبع عشرة باخرة ، ومزارع واسعة فى جاوة وبورنيو فاقترن بها ، واصبح منـــذ ذلك الوقت الراعى الأول للفـرقة وضباطها ..

ولابد أن يكون الكولونل بوبونشيك ، قائد الحامية ، قد رحب به ، وفرح بمقدمه ، فان اخلاص بالينكاى له ، ووفاءه للفرقة كانا خليقين بالاعجاب حقا ..

وكان بالينكاى كلما عاد الى النمســا ، ســارع الى زيارة الحامية ، وراح يبعثر نقوده فى المدينة بطريقة تجعل الناس يذكرونه ويتحدثون عنه لعدة أسابيع بعد انتهاء الزيارة ..

ومن الأمور التى كان يحرص عليهـــا فى كل زيارة ، وكانهـا ضرورة عاطفية لا غنــــاء له عنها ، انه كان يرتدى بزته العسكرية القديمة ليلة واحدة ليظهر بها بين زملائه الضباط فى السهرة التى اعتاد ان يقيمها لهم ..

كان يعامل زملاءه الضباط كأنهم اخوته واهله ، وكان يتبرع فى كل عام بجائزة قيمة للفائز الأول فى السباق الذى اعتادت فرقة الفرسان اقامته ..

وفى كل عيد ميلاد ، كان يرسل للفرقة ثلاثة أو أربعة صناديق من أجود انواع الشمبانيا ، ذلك عدا المبلغ الضخم الذى يتبرع به لصندوق الفرقة فى اول كل عام ..

واهم من هذا كله .. ان كل ضابط يضع على سترته شارة الفرقة ، كان فى استطاعته الاعتماد على بالينكاى اذا حل به ضيق او وقع فى ورطة ..

***

وقد كان يسرنى فى اى وقت آخـــر ان ارحب بلقاء هـــذه الشخصية الفريدة من ابناء الفرقة ، ولكن مجرد التفكير فى الصخب الذى لا بد ان يصحب المادبة ، وفى الخطب التى ستلقى ، والانخاب التى ستشرب ، والهرج الذى سوف يسود المكان ، جعلنى اشعر وانا فى تلك الحالة النفسية التعيسة ، بالزهد فى هذه السهرة

فحاولت أن أعتذر عن حضورها بدعوى انني متعب ولكن فيرنز امسك بساعدى وصاح :

ـ هذا كلام فارغ ... ونحن لن ندعك تفلت منا اليوم ...

ولم أجد بدا من الرضوخ والاستسلام ، ومضينا فى طريقنا الى المدينة ... ولم يكف فيرنز طول الوقت عن سرد اغرب القصص عن بالينكاى ، والاشخاص الذين مد اليهم يد المعونة وكيف انه وجد عملا لزوج أخته ..

وراح جوسى يؤيد حديث فيرنز ، ولكن كلامه لم يخل من الغمز

قال

ـ ترى هل كان الكولونيل يرحب ببالينكاى كل هذا الترحيب لو لم تقع تلك السمكة الهولندية فى شباكه ؟. وبهذه المناسبة قيل لى انها تكبره باثنى عشر عاما ...

فقال شتاينهوبل ضاحكا :

ـ لا غرابة فى ذلك ، اذا كان لا بد للانسان أن يبيع نفسه ، فلا اقل من ان يحصل على ثمن مرتفع .

* * *

ومن عجب أن ذاكرتى استطاعت ، برغم اضطرابى وشرود ذهنى ، أن تسجل كل كلمة من هذا الحديث ، بل اننى ما كدت أصل الى صالة الفندق ، حيث ستقام المأدبة ، حتى شرعت فىالقيام بالمهام التى اسندت الى فى دقة وعناية ، بفضل روح النظام التى تأصلت فينا واصبحت جزءا من خلقنا .. وكان قد اسند الى مهمة تنظيم جلوس المدعوين حول المائدة ، بينما راح فيرنز يكتب قائمة الطعام ، ويبتكر الأسماء الطريفة لمختلف الصحاف ، وقام شتاينهوبل بالاشراف على تزيين القاعة بالأعلام والبنود

وفى هذه الاثناء كان خدم الفندق يعدون الموائد والمقاعد ، وزجاجات النبيذ والشمبانيا التى احضرها بالينكاى فى سيارته من أشهر محال المشروبات فى ڤيينا .

وفرغنا من عملنا حوالى الساعة الثامنة ؟ ولم يبق الا ان ننطلق الى الثكنة للاغتسال واستبدال ثيابنا .

كان ينبغى ان نفعل ذلك بأسرع ما نستطيع ، اى خلال عشر دقائق على الأكثر ، حتى نكون فى استقبال الكولونل عند قدومه .

ولم اكد اقف امام المرآة لأضع اللمسات الاخيرة فى هندامى ، حتى سمعت طرقا على الباب ... فقلت لخادمي :

ــ اننى لست على استعداد لمقابلة احد الآن .

وأسرع الجندى الى الباب ليرى من الطارق ...

وسمعت همسا،ثم عادالجندي وبيدهرسالة...رسالة لي...

كانت رسالة ضخمة فى غلاف أزرق جميل ، ولم تكن بى حاجة لانعام النظر فى الخط الذى كتبت به لكى اعرف من ارسلها ...

وقالت لى غريزتى :

ــ دعها ولا تقراها الآن ...

ولكنى لم اتمالك من فضها ... وشرعت فى قراءتها ..

* * *

كانت رسالة طويلة تتألف من تسع صفحات ، كتبت بسرعة بيد مرتجفة ، ... رسالة من النوع الذى لا يكتبه الانسان او يتلقاه الا مرة واحدة فى حياته ...

كانت عبارات الرسالة تتدفق تدفق الدم من الجرح المفتوح ، وقد اختلطت السطور وتلاحمت الكلمات ، وبرغم انقضاء عشرات السنين ، فاننى ما زلت أذكرها وأذكر كل حرف من كل كلمة ، واستطيع أن أتلوها من الذاكرة سطرا بعد سطر ، وصفحة بعد صفحة ، من البداية الى النهاية ، لأننى قرأتها المرة تلو المرة ، حتى نقشت حروفها فى قلبى وذاكرتى ..

وقد احتفظت بهذه الرسالة فى جيبى شهورا طويلة ، فكنت اعيد تلاوتها فى بيتى وفى الثكنة وفى الخنادق وفى ميدان القتال ، ولم امزقها وألقيها طعما للنيران الا عندما طوقت قواتنا فى معركة « فولينيا » وخشيت أن تقع الرسالة فى أيد غريبة .

جاء في الرسالة :

« كتبت اليك ست رسائل مزقتها جميعـا لأنني لم أكن أريد ان اضعف واكشف لك عن سري، وقد قاومت ما وسعتني المقاومة، وقضيت الاسابيع تلو الأسابيع وانا اناضل لأخفي عنك شعوري .. » وكلما جئت لزيارتنا بدافع من الصداقة البريئة كنت احرص على الا ادع يدي ترتجفان او أدع نظراتي تنم عن مدى اهتمـامي حتى لاأزعجك ، بل لقد تعمدت أن أعاملك بفلظة واحتقار حتى لاتلاحظ كيف يحترق قلبي شـوقا اليك ... حاولت كل شيء في مقـدور الانسـان وفوق مقدوره ، ولكن ما خشيته حدث اليوم ، وأقسم لك انه حدث برغم ارادتي وكان مفاجأة لي .. انا نفسي لا ادري كيف سمحت بحدوثه ، وبلغ من خجلي فيما بعد انني وددت لو استطيع أن اضرب نفسي وأعاقبها .. لأنني أعلم ان من الجنون والسفه ان افـرض نفسي عليك وان مخلوقة كسيحـة مثلي لا حق لها في ان تحب ...

نعم ، انا اعلم ان مخـلوقة مثـلي ليس من حقها ان تعيش ، وبالتالي ليس من حقها أن تحب ، وان من كان مثلي يجب أن ينزوي في أحد الأركان ويموت ويريح الناس من متاعبه ... نعم .. انني اعلم كل ذلك ، ولهذا لم يكن لي ان اجرؤ على القاء نفسي عليـك ، ولكن من سواك منحني الأمل واكد لي انني لن اظل الى الأبد هـذا المسخ المشوه المقيت ؟؟ وانني سوف اتحرك وامشي مثل غيري من الناس ، مثل كل هؤلاء الملايين الذين لا يعلمون ان كل خطوة يخطونها هي نعمة يجب أن يشكروا الله عليها ؟؟

كنت قد صممت على أن الزم الصمت حتى أصبح مخـلوقة عادية ، وامرأة مثل سائر النسـاء .. امرأة جـديرة بك أيهـا الحبيب ... ولكن لهفتي على الشفاء ، كانت من القوة عنـدما انحنيت فوقي بحيث اعتقدت ، بأمانة واخلاص ، انني صرت فعلا تلك المخلوقة الجديدة الصحيحة ..

لقد حلمت بالشفاء ، وتاقت نفسي اليه طويلا .. فلمـا دنوت مني ، نسيت ساقي التعيستين ، ولم أر سواك ، وشعرت كأنني

اصبحت المخلوقة التى اريد ان أكونها من أجلك .

الا تستطيع ان تفهم ان الانسان يمكن أن ينسى نفسه لحظة فى حلم من احلام اليقظة حين يكون هذا الحلم قد تراءى له ليلا ونهارا ، اسبوعا بعد أسبوع ، وشهرا بعد شهر ؟ صدقنى أيها الحبيب ، أن الوهم الذى صور لى أننى تخلصت من عاهتى هو ما اطاح بعقلى واضلنى عن الصواب !!

ولكنك تعلم الآن ما كان ينبغى الا تعلمه الا عندما اقف على قدمى .. وتعلم كذلك لماذا اريد الشفاء ولمن أريده .

اننى اريده من اجلك انت وحدك ايها الحبيب وكل ما ارجوه ان تغفر لى هذا الحب والا تخشانى أو تجفل منى ، او تظن اننى وقد ارتكبت حماقة مرة ، فسوف اعود الى مضايقتك بارتكابها مرة اخرى ... كلا ، أقسم لك اننى لن افرض نفسى عليك بعد الآن ، واننى سأحاول ان أخفى عنك شعورى .. وكل ما سوف افعله ، هو أن انتظر ، وانتظر ، حتى تدركنى رحمة الله واشفى .

ولهذا اتوسل اليك الا تخشانى ايها الحبيب ، وان تذكر دائما ، انت الذى أشفقت على كما لم يشفق على اى انسان آخر ، اننى مخلوقة بائسة لا حول لها ولا قوة .. واننى مشدودة الى مقعدى ولا استطيع ان اتعقبك او ان اجرى وراءك .. تذكر اننى سجينة لاتملك الا الانتظار فى سجنها بفروغ صبر حتى تأتى انت لتمنحها ساعة أو بعض ساعة من وقتك وحتى تسمح لها بأن تنظر اليك وتسمع صوتك ، وتعلم بأنك تتنسم معها نفس الهواء ، وتشعر بوجودك الذى هو مصدر السعادة الاولى والوحيدة التى منحها الله لها منذ عدة أعوام !!

تذكر وتصور ، كيف ارقد وارقد وانتظر وانتظر ليلا ونهارا ، والساعات تمر ببطء حتى تتوتر اعصابى توترا لايطاق .

ثم تأتى انت فلا استطيع ان اثب من مكانى كما تثب اية امرأة اخرى ، ولا استطيع أن اخف للقائك ، ولا انامسك بيديك واضمك

الى صدرى ، وانما أظل فى جلستى اغالب نفسى واقاوم شعورى ؟ وازن كل كلمة انطق بها ، وكل نظرة أطالعك بها ، حتى لا تظن انني احبك

وصدقنى ايها الحبيب ، حتى هـذه السـعادة المؤلمة كانت تسعدنى ، ولطالما أطريت نفسى واحببتها كلما نجحت فى السيطرة على عواطفى ورايتـك تتصرف دون ان يخـالجك شـك فى أننى أحبك .. كان عزائى الوحيد حينئـذ هو احسـاسى باننى وقعت فى شـباكك ولا نجـاة لى ..

اما الآن وقد حدث ما كنت اخشاه ، ولم يعد فى مقدورى أن اخفى عنك شعورى ، فاننى أضرع اليك الا تقسو على .. أن اتفه واتعس مخلوقة فى هذه الدنيا لها كرامتها .. ولن أطيق احتقارك اذا أنت احتقرتنى لمجرد اننى لم اقو على كبح جماح قلبى ..

انا لااتوقع ان تبادلنى الحب ، لا والله الذى بيده شفائى وبرئى فما بلغت بى الجراة الى هذا الحد ... وما تجاسرت ، حتى فى احلامى على أن ارجو أن تحبنى وانا فى هذه الحال .. لاننى لا أريد منك ـ كما تعلم ـ اية تضحية او اية شفقة .

كل ما أسالك اياه ، هو ان تسمح لى بانتظارك فى صمت دون ان تصدنى او تنتهرنى .. انا أعلم اننى حتى بهذا اطلب الكثير .. ولكن هل كثير حقا أن تمنح مخلوقا آدميا هـذه السـعادة التى تمنحها راضيا لأى كلب حين تسمح له بأن ينظـر فى صمت الى سيـده ؟ ؟

هل من الضرورى أن تضرب هـذا الكلب بسوطك أو تركله بقدمك فى احتقار ؟

اننى لن اطيق ، مهما بلغ من تعاستى ، ومن احتقارك لى ، أن تعاقبنى ، وبحسبى عقابا ما احس به من خجل ويأس ومهانة ، فاذا اصررت ، فلن يكون لى الا مخرج واحد .. انت تعرفه ، وقد اخبرتك مرة به ..

ولكن لا ... لاتنزعج فما أريد تهديدك لاظفر بشفقتك ..

فان الشفقة هى الشيء الوحيـد الذى منحتنيه برضائك ومن تلقاء نفسك

يجب أن تظل حرًا طليقا مرتاح الضمير ، فالله يعلم اننى لا اريد أن أثقل كاهلك بمتاعبى ، ولا أن أثقل ضميرك بأثم انت منه برىء .. كل ما اريده هو أن تغفر لى وتنسى كل مافعلته ، وكل ماقلته وكل ما كاشفتك به

كل ما اطالبك به هو ان تقول لى كلمة .. كلمة واحدة تؤكد لى أننى لم اصبح مقيتة فى نظرك،وانك ستعود لزيارتنا كأن شيئا لم يحدث .

انك لاتدرى كم يخيفنى ان افقدك .

منذ اغلقت الباب وراءك وأنا فى ذعر مقيم من أن تكون هـذه آخر مرة اراك فيها عندما افلتتك يداى كان فى عينيك من الهلع وفى وجهك من الشحوب ما احال حرارتى برودة كبرودة الثلج . وقد علمت من جوزيف انك اختطفت قبعتك وسيفك ، وانطلقت من البيت لا تلوى على شيء، وانه بحث عنك فى كل مكـان دون جدوى ، فأدركت أنك فررت منى كما تفر من الطاعون .. كلا أيها الحبيب ، اننى لا الومك ، فأنا نفسى اول من يجفل وينكمش ذعرا لمرأى الجهـاز الحديدى الذى يشـد ساقى .. ومع ذلك فاننى اضرع اليك أن تغفر لى .. فانه بدونك لا يوجد ليل أو نهار .. وانما يوجد يأس وعذاب مقيم .

ارسل لى كلمة صغيرة .. او ورقة بيضاء ، أو زهرة .. اية اشارة تنبئنى بأنك لاتحتقرنى ، ولا تبغضنى ..

وتذكر اننى سارحل بعـد بضـعة أيام .. وسـاغيب عدة شهور .. وأن عذابك سينتهى بعد اسبوع أو عشرة أيام ..

فلا تفكر فى أن عذابى بعيدا عنك سيتضاعف عشرات المرات ، وانما فكر فى نفسك انت ، كما افكر انا فيك دائما .

اننى لن استطيع التفكير ، ولن استطيع التنفس ، حتى اتأكد

من انك قد غفرت لى .. ولن أستطيع الحياة اذا انكرت على حقى فى ان احبك »

تلوت هذه الرسالة وتلوتها ، واعدت تلاوتها من البداية الى النهاية ، وهالنى أن أكون هدف مثل هذا الحب اليائس الذى لا حدود له .

* * *

وافقت من ذهولى على صوت فيرنز وهو يهتف بى :

ـ الم تفرغ بعد من ارتداء ثيابك بينما القوم جميعا ينتظرونك وقد جلسوا الى الموائد ؟ .

ان الكولونل قد يحضر فى اية لحظة ، وانت تعلم كم

كم يحنقه ان يتأخر احدنا .. لقد ارسلنى شتاينهوبل خصيصا لأرى ماذا اصابك . وهأنذا أجدك تقرأ رسالة غرامية .. هلم بنا يارجل !!

ولم أفهم فى البداية شيئا مما قال .. الكولونل !! شتاينهوبل!! آه .. تذكرت الآن .. انه يعنى حفلة بالينكاى ..

قلت له :

ـ هلم بنا ..

وغادرنا الغرفة ، ولكنى عدت اليها على الفور لألتقط الرسالة التى تركتها على المنضدة ، فوضعتها فى جيبى ولحقت به .. ووصلنا الى مكان الحفلة فى الوقت المناسب قبيل حضور الكولونل

وجاء الكولونل وحاشيته ، فوقفنا جميعا تحية له ، وما أن جلس الى يمين بالنيكاى حتى بدأ اللغط ونشطت الحركة حول الموائد ، وراح الضباط يتناولون الطعام والشراب ويتبادلون النكات .. وتحولت القاعة الى ما يشبه خلية النحل ..

أنا الوحيد الذى جلست واجما لا أكاد اعى شيئا مما حولى .. كنت أفكر فى الرسالة التى بجيبى ، وفى الفتاة التعسة البائسة التى كتبتها .

وعبثا وضع الخدم الطعام أمامى ، فاننى لم امسه ولم أتناول منه شيئا .

وكانت أحاديث الذين يدورون بى تصل الى اذنى كأنها همس ينبعث من مكان سحيق تحيط به السحب والغيوم ، ولم افهم كلمة واحدة مما يقولون وكأنهم يتكلمون بلغة اجنبية .

كنت بينهم ولست منهم . وكنت أتكلم وأنا صامت ، وشفتاى ترددان عبارات من الرسالة . فاذا استعصى على فهم احدى هذه العبارات ، مددت يدى الى جيبى حيث توجد الرسالة .

ثم بدأ تبادل الانخاب والقاء خطب الترحيب فأصغيت بانتباه ، ولكن عقلى ظل على جموده ، ولم أتبين الا بعض عبارات غير مترابطة ، تتخللها شعارات مثل « شرف الجيش » و « روح الفرسان النمسويين » و « الاخلاص للفرقة » .. وفى الفجوات بين هذه الكلمات ، كان صوت رقيق ضارع يهمس بهذه العبارات : « لن أستطيع الحياة اذا أنكرت على حقى فى أن أحبك » .

« كل ما أسألك اياه ، هو أن تسمح لى بأن أحبك » .

وشرب القوم نخب صحة بالينكاى ، الذى نهض واقفا ، ووجهه يتألق بشرا . وقال انه يود ان يلقى كلمة متواضعة ، هى ، أنه لايجد فى الدنيا كلها مكانا يشعر فيه كأنه بيته . الا المكان الذى يجمع بينه وبين زملائه القدامى .

ثم هتف بحياة الفرقة وحياة الامبراطور ، وردد الجميع هتافه ..

وترك بالينكاى مكانه ، وراح يمر بالضباط واحدا بعد واحد ، ليمس كؤوسهم بكأسه ، وفجأة ، شعرت بجارى يدق كتفى بيده ، فانتبهت من ذهولى لأرى عينين زرقاوين مرحتين تحملقان فى عينى ، واسمع صوت بالينكاى وهو يقول :

ـ تحية ايها الزميل .

فرددت تحيته ، ولم افطن الا بعد انصرافه الى أننى لم أمس كأسه بكأسى .

ولكن ماذا يهم ؟

وشعرت كأننى أختنق ، فجرعت كأسا من شراب لا أدرى ماهو وأحسست برغبة فى التدخين ، وانطلقت يدى الى جيبى للبحث عن علبة السجاير ، ولكن يدى مست الرسالة ..

ومرة اخرى . خيل الى اننى اسمع وسط الصخب ذلك الصوت الباكى المتوسل يهتف قائلا : « كل ما اسألك اياه ، هو أن تدعنى احبك .. اناأعلم أن من الجنون أن أفرض نفسى عليك .. »
ولا بد ان احد الضباط القى فى تلك اللحظة نكتة طريفة لأن الجميع ضجوا بالضحك بأصوات كقصف الرعد ..

وشعرت بالاشمئزاز ، كيف يمكن ان يضحك هؤلاء الناس على هذا النحو ، بينما هناك انسان يئن يأسا وقنوطا ويعانى عذاب الجحيم ؟؟
وأدركت ان الضجيج سوف يتصل ، وسوف يقترن بالاغنيات الحماسية وخيل الى أننى لن اطيق هذا المرح .. الم تطلب الى فى رسالتها أن ابعث اليها بكلمة ؟؟ بأية كلمة ؟ لا يجب ان يترك الانسان شخصا ينتظره هكذا فى قلق واسى .. يجب ان ..

وانتهزت فرصة تجمهر الضباط حول الكولونل ، وتسللت الى الخارج دون أن يشعر بى أحد ..
وما هى الا دقائق حتى وصلت الى الثكنة واخذت ارقى درج السلم المؤدى الى غرفتى ..
يا الهى .. كم اتوق الى الوحدة !
كانت اروقة الثكنة خالية خاوية ، ولم اسمع غير وقع اقدام أحد الحراس وهو يروح ويغدو .. وصوت سقوط حذاء على الارض .
وكان الصوت الآدمى الوحيد الذى سمعته ، خافتا ، وبعيدا ، ومنبعثا من أحد عنابر نوم الجنود .
لا بد ان بعض الجنود يرددون احدى الاغنيات الحزينة بأصوات خافتة ..
فى كل ليلة ، كانوا يخلعون ثيابهم الجميلة .. ويعودون كما كانوا .. مجرد فلاحين .. مجرد فتية من الريف .. فيذكرون بلدهم ومراعيهم وفتياتهم ، ويترنمون ببعض الاغنيات الحزينة لينسوا حنينهم الى الوطن والاهل ..
وكنت عادة لا أحفل بهذه الاغنيات ، لأنها باللغة الهنغارية التى لا أفهمها ، ولكنى أحسست فى تلك الليلة بحزن غريب ، وشعرت

بأن كل هؤلاء الفتية اخوان لى ، ووددت لو اجالسهم ، واتحدث اليهم كواحد منهم

ولم اشأ ان أوقظ تابعي الذى كان يغط بصوت مسموع ، فتسللت على اطراف قدمى ، وخلعت قبعتى وحسامى فى الظلام ، ثم اضأت النور ، وتأهبت للجلوس الى المائدة لاقرا الرسالة فى هدوء .. اول رسالة مؤثرة اتلقاها من امرأة ..

ولكنى ما كدت اتهالك على مقعدى حتى بهت ، فقد رايت على المائدة ذات الرسالة التى ظننت أنها فى جيبى ..

ذات الرسالة المستطيلة الزرقاء .. وعليها العنوان بالخط المألوف ..

ودار راسى ..

ترى هل انا ثمل ؟؟ ترى هل احلم وعيناى مفتوحتان ؟

ام ترانى أخرجت الرسالة من جيبى ووضعتها على المائدة دون ان اشعر ؟

وتحسست الرسالة فى جيبى ..

كلا .. اننى لست ثملا ولا واهما . فالرسالة لا تزال فى جيبى

***

عندئذ فقط ادركت الحقيقة .. ان الرسالة التى على المائدة هى رسالة جديدة .. هى رسالة ثانية لابد أنها وردت بعدانصرافى فوضعها تابعى على المائدة لكى اراها عند عودتى .

رسالة أخرى !!

رسالة ثانية خلال ساعتين ؟؟

وشعرت بلعابى يجف ضيقا وحنقا ..

اذن سوف يستمر هذا يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ،رسالة اثر رسالة ..

اذا كتبت اليها فسوف تكتب الى ، واذا لم اكتب فانهاستكتب ايضا لتسألنى عن السبب ..

وسوف تطلب منى شيئا كل يوم ، وسوف تبعث الى بالرسل وتتصل بى تلفونيا ، وترسل الى من يراقبنى ويعد على الحركات والسكنات ..

وسوف تود أن تعرف متى اخرج ومتى أعود ومع من أقضى وقتى وماذا قلت وماذا فعلت ..

انها لن تتركنى ابدا .. حتى يهلك هذا الغرام المشئوم احدنا.
وقلت لنفسى : لا تقرأ هذه الرسالة .. لاتقراها اليوم على الاقل .. ولا تتورط اكثر مما تورطت .. فليست لك القدرة على مقاومة كل هذا الشد والجذب .. وستتمزق حتما فى النهاية ..

خير لك أن تحرق هذه الرسالة ، أو أن تردها دون ان تقراها .. لا تدع علمك - بأن هناك امراة غريبة تحبك - يدمرك .. وليذهب آل كسفالفا جميعا الى الشيطان ..

***

بيد اننى لم أتمالك من الارتجاف حين فكرت فى انها ربما قد آذت نفسها فعلا حين لم تتسلم ردا منى .. الحق انه ينبغى الا نهمل الانسان اليائس والا ندعه نهبا للشك والقلق .

ترى هل يجب أن أوقظ تابعى فورا ، وابعث معه برسالة مطمئنة الى اديث ؟

اننى لا أريد - مهما حدث - ان احمل ضميرى وزرا ، أو ان اندم فى مستقبل الايام على شىء فعلته أو لم افعله ..

وهكذا فضضت الرسالة ..
ومن حسن الحظ انها كانت رسالة قصيرة تتألف من بضعة سطور .
قرات فيها :
« مزق رسالتى الاولى فقد كنت فيما يشبه الجنون حين كتبتها وكل ماذكرته فيها بعيد عن الصدق والحقيقة ..ولاتأت غدا .. ارجوك الا تأتى .. يجب ان أعاقب نفسى على اننى أذللتها امامك على هذا النحو .. لا ترد على رسالتى مهما كانت الظروف . احرق رسالتى الاولى وانس كل كلمة فيها .. »
« انس كل كلمة فيها !! »
ياله من أمر صبيانى !! كأنما الاعصاب المنهكة المكدوده يمكن تسخيرها للارادة !

كيف أنساها وأنا لا أفكر الا فيها ، والافكار تتلاحق وتتسابق في جمجمتي كأنها قطيع من الجياد البرية ؟؟

كيف أنساها ، بينما حروفها لاتزال تحرق أصابعي ، وكلماتها الملتهبة قد انطبعت في ذاكرتي بحروف من نار ؟

ليتني استطيع أن انساها !!

انني اطفيء النور ، لأنه يجسم الافكار ويجعلها تنبض بالحياة .. واستلقي على فراشي لأهديء أعصابي ومشاعري ولكن الافكار لاتهدا .. انها كالخفافيش تضرب باجنحتها وتهيم على وجهها في عقلي المكدود .

كلما سكن الجسم ، نشطت الذاكرة .

هاأنذا انهض من فراشي ، واضيء النور مرة اخرى ، فتقع عيني على الرسالة فوق الفراش ، وعلى الثوب الملوث ببقعة الشاي منشورا على احد المقاعد .. كل شيء يذكرني بالواقع المؤلم ، فكيف أنسى ؟؟

***

مددت يدي وتناولت كتابا ..

كان كتاب (الف ليلة وليلة) ..

ولا ازعم انني مولع بالقراءة ، او انني من هواة الكتب ، كل ما كان لدي ـ فيما عدا سبعة او ثمانية مؤلفات في الفنون العسكرية ، بضعة كتب من الادب الرخيص ، مطبوعة طبعا رديئا ، أشتريتها بدافع الشفقة ـ دائما الشفقة ـ من بائع جائل كان يتردد على الثكنة .

تناولت هذا الكتاب اذن ، كيفما اتفق ، بعد ان عجزت عن النوم ، وعجزت عن التفكير السليم ، عسى ان تخرجني القراءة من الدائرة المفرغة التي اعيش فيها ..

وكان أول ما قرأته قصة شهر زاد والملك شهريار ، ثم انتقلت منها الى قصة ثانية وثالثة ...

وعند القصة الرابعة ، نشطت حواسي فجأة ، فقد كانت قصة عجيبة ، عن شاب رأى رجلا عجوزا كسيحا ـ وقد لفتت نظري كلمة كسيح ـ جالسا على قارعة الطريق ، وأومأ العجوز الى الشاب

أن يدنو منه ، وقال له بلهجة حزينة انه عاجز عن السير ، وتوسل اليه أن يحمله على كتفيه ، فأشفق عليه الشاب [قبحه الله ، لماذا أشفق عليه ؟] وحمله على كتفيه .

وكان هذا العجوز جنيا شريرا . فما كاد يستوى على كتفى الشاب حتى اطبق على عنقه بساقين أشد صلابة من الفولاذ ، واتخذ من الشاب الذى أشفق عليه دابة يتنقل عليها ، ويستحثها على السير بلا رحمة ، ولا يسمح لها بالراحة لحظة واحدة مهما أنهكها التعب وبرح بها الظمأ ولم تبق للشاب ارادة غير ارادة ذلك العجوز الماكر ، فأصبح عبده ودابته ، يحمله ويسير به الى حيث يريد ».

وتوقفت عن القراءة ، وشعرت بقلبى يدق بشدة حتى ليوشك أن يثب من بين ضلوعى ..

ذلك اننى كنت اقرأ القصة واتصور أحداثها .. فتخيلت العجوز الشرير ملقى على الارض وهو ينظر الى الشاب بعينين دامعتين ، ويتوسل اليه ان يمد له يد المساعدة .. ثم تخيلته وقد ركب كتفى الشاب وراح يضغط عنقه بساقين كالكلابة .. تخيلته شيخا نحيلا اشيب الشعر يضع على عينيه نظارة ذات اطار من ذهب .. وكما تختلط الملامح والوجوه فى الاحلام ، تخيلت فى وجه العجوز قسمات كسفالفا ، ورأيت فى نفسى تلك الدابة التعسة التى أطبق عليها بساقيه وراح يستحثها على السير .

ووثبت من الفراش مذعورا ، والعرق يتصبب على وجهى ..

***

كان اليوم التالى حافلا بالعمل والنشاط ، وقد شعرت بكثير من الطمأنينة وراحة النفس حين امتطيت صهوة جوادى ، وانطلقت به أجول وأصول واتلقى الاوامر أو أصدرها ..

ثلاث ساعات قضيتها فى ميدان التدريب ، هربت فيها من نفسى ..

كنا نتدرب استعدادا للمناورات السنوية الكبرى ، فجرى كل شىء وفقا للخطة الموضوعة ، ولم يبق الا أن نمر أمام قائد الفرقة

فى صفوف منتظمة ، وسيوفنا ورءوس جيادنا ممدودة الى الامام
وكثيرا ما يحدث فى مثل هذه التدريبات ان نضطر الى اعادة بعض المراحل أكثر من عشرين مرة قبل أن يعلن القائد رضاءه عن النظام .

وكان ذلك كله يتطلب من الضباط يقظة وحضور ذهن ، ومراقبة مستمرة لكل جندى ..

ومن حسن الحظ ، اننى استطعت تركيز تفكيرى فى واجباتى فلم اقع فى اى خطأ ..

ولكن اتفق فى فترة الراحة اننى ارسلت بصرى الى الافق عبر الحقول والادغال ، فاستقرت عيناى على البرج الابيض الشاهق الذى يناطح السحاب وقلت لنفسى ، هذا برجها وهذه شرفتها .. والساعة الآن الثامنة لابد انها استيقظت وراحت تفكر فى .. ولعل اباها فى غرفتها الآن وهى تحدثه عنى ، أو لعلها الآن تسأل أيلونا او جوزيف عما اذا كان قد ورد لها الخطاب الذى تترقبه .. بل ومن المحتمل أن تكون الآن فى شرفة البرج تنظر نحوى كما انظر نحوها .

وما أن تذكرت أن هناك من يتلهف على ، حتى شعرت مرة اخرى بشىء يعصر قلبى ، وعلى الرغم من أننا عدنا الى الصفوف ، واخذت الاوامر تترامى من كل مكان فى الميدان ، والوحدات المختلفة تنفذ ما تؤمر به ، وأنا نفسى أصيح « يمينا .. يسارا .. » .. فان افكارى كانت بعيدة جدا ..

كنت أفكر فى الامر الوحيد الذى ما اردت وما كان ينبغى ان افكر فيه .

***

ــ قبحكم الله .. عودوا الى الصفوف أيها الاوغاد ...

أرسل الكولونل بوبنشيك هذه الصيحة ثم انطلق بجواده فى ميدان التدريب وقد احتقن وجهه ، وتطاير شرر الغضب من عينيه وكان هناك مايبرر غضبه ، فقد اصدر احد الضباط امرا خاطئا لصفين من الفرسان كان يجب أن يلتحما فى صف واحد ، ولكن الامر الذى تلقياه جعل كل منهما يندفع نحو الآخر ، وكانت النتيجة

أن اختلط الحابل بالنابل ، واضطربت بعض الجياد وانفلت زمامها ، ونهض بعضها الآخر على مؤخرتيه ، بينما سقط أحد الفرسان تحت سنابك الخيل واحدثت قرقعة السلاح وصهيل الجياد ووقع حوافرها ضجة تصم الآذان حتى خيل الى أننا فى معركة حقيقية .

وانقضت فترة من الوقت قبل أن يتمكن الضباط من اعادة النظام . ودوى صوت النفير فالتحمت الصفوف . ثم ساد صمت رهيب مشحون بالترقب والانتظار .. وشعر كل منا بأن هناك من سيقف موقفا لن يحسد عليه .

واقترب الكولونل من وسط الميدان .. وهو منتصب القامة على ظهر جواده .. والسوط فى يده يضرب به حذاءه بحركة عصبية ، وهى علامة نعلم جميعا انها تنذر بالشر ..

وأوقف الكولونل جواده ، وصاح بصوت كالرعد :

ـ الملازم هوفميلر .

وحينئذ فقط ادركت اننى الذى اصدرت الامر الخطأ ..

لابد اننى كنت شارد الفكر حينما اصدرته ..

ولكزت جوادى ، وانطلقت به الى حيث كان الكولونل ..

وحينما مررت بزملائى الضباط ، اطرقوا برءوسهم أو أشاحوا بوجوههم لاخفاء شعورهم بالاسف والضيق ..

ووقفت بجوادى أمام الكولونل ، وبينى وبينه المسافة التى تقضي التعليمات بألا أتجاوزها ..

وازدادت رهبة السكون الذى شمل الميدان .. كان كالسكون الذى يسبق صدور الامر باطلاق النار على المحكوم عليه بالاعدام ..

وقد يكون من الخير أن أتجاوز عن سرد ماحدث ..

صحيح ان الكولونل خفض من نبرات صوته الجاف حتى لايسمع الجنود العبارات الخشنة الجارحة التى وجهها الى ، غير أن بعض الكلمات والاوصاف ، ككلمة (غباوة) و (أوامر خرقاء) الخ .. الخ ، انطلقت من فمه بصوت مرتفع سمعه الجميع .. وحتى اذا كان هناك من لم يسمع ، فان احتقان وجه الكولونل ، وبريق عينيه . وحركة السوط فى يده وهو يضرب به حذاءه فى عنف .. كل ذلك كان دليلا كافيا على عنف التوبيخ الذى تلقيته .

وخيل الى ، والضابط العجوز ينهال على بوابل من الكلمات الجارحة ، ان ورائى مئات من العيــون ترمقنى بنظرات الهــزؤ والسخرية .. فلقد انقضت شهور طويلة منذ تلقى احــد صغار الضباط مثل هذا التعنيف الشديد ..

واهتزت يدى الممسكة بعنان الجواد انفعــالا واســتنكارا ! وحدثتنى نفسى بأن الكز جوادى وامضى به بعيدا .. ولكنى كنت مرغما على ان اظل ساكنا وان اصغى فى صمت ، ودون ان تتحرك عضلة فى وجهى ، الى ختم الكولونل .. تعنفيه بقوله : انه لا يريد للمناورات كلها ان تفسد بسبب مهرج مثلى ، واننى سأسمع منه المزيد غدا .. اما اليوم فانه لا يريد ان يرى وجهى مرة اخرى ..

ثم اهوى على حذائه بضربة عنيفة وصاح باحتقار:

ـ انصرف ..

قالها بفمه ، ولكن بطريقة جعلتها اشبه بركلة من قدمه .

وكان لزاما على مع ذلك ان ارفع يدى تحية له واحتراما قبل ان ادور بجوادى لأعود الى وحدتى ..

ومررت بزملائى مرة ثانية ، وللمرة الثانية اطرقوا برءوسهم واشاحوا بوجوههم حياء .

ومن حسن الحظ ، ان صوت النفير دوى على الفور ، وتحركت الصفوف .. وعادت الجلبة الى الميدان ..

وانتهز فيرنز فرصة مروره على مقربة منى وهمس :

ـ لا تحزن ولا تبتئس .. مثل هذا يمكن ان يحدث لأى واحد هنا ..

ولكنى كنت اتميز غيظا ، فصحت به :

ـ صه .. فلا شأن لك بهذا ..

وفى هذه اللحظــة ، ولأول مرة فى حيــاتى ، ادركت كيف ان الشفقة التى تفتقر الى الكياسة يمكن ان تجرح وتؤلم !!

***

قلت لنفسى وانا فى طريقى الى المدينة :

ـ ليذهب كل شىء الى الشيطان ، سأنطلق بعيدا .. وبعيدا

بعيدا .. الى مكان لايعرفنى فيه احد .. وبذلك اتخلص من كل شىء ، ومن كل انسان .. نعم .. يجب ان الوذ بالفرار ، ولن اسمح لاحد بعد الآن بأن يستعبدنى ، أو يحقرنى ..

بعيدا .. بعيدا ..

وراحت هذه الكلمة تتردد مع وقع حوافر الجواد طول الطريق . وما ان وصلت الى الثكنة حتى القيت عنان الجواد الى احد الجنود وغادرت المكان ..

كنت مصمما على الا أطأ قاعة الطعام بقدمى . لم اكن اريد أن يسخر منى احد او يرثى لى احد . ولكنى لم اكن اعلم الى اين اذهب .. لم تكن لدى خطة معينة او هدف معين ..

كان موقفى قد اصبح مستحيلا فى الدنيتين اللتين اعيش فيهما ، دنيا الفرقة ودنيا آل كسفالفا .

يا الهى !! كيف السبيل الى الفرار الى اى مكان بعيدا عن هذه الثكنة الملعونة ، وبعيدا عن المدينة !!

سرت لا الوى على شىء ، فى الطريق الرئيسى بالمدينة ، ولم ألبث ان سمعت صوتا على مقربة منى يحيينى ، فنظرت ، ورايت رجلا طويل القامة يرتدى الثياب المدنية ، ويقف الى جوار سيارة زرقاء ، يشتغل اثنان من العمال باصلاحها ..

لم اعرف الرجل ، ولم أذكر اننى رايته قبلا ، ويبدو ان الرجل ادرك حيرتى فاقترب منى ، وعندما تبينته ، عرفت فيه بالنيكاى .

قال وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

ـ هذه السيارة اللعينة تتعطل دائما فى كل رحلة ، أعتقد انه لابد من عشرين سنة اخرى قبل ان يستطيع الانسان الاعتماد على السيارة كوسيلة مأمونة من وسائل الانتقال .. ان ركوب الخيل ايسر ، لاننا على الاقل لانحتاج الى معرفة ما فى باطنها ..

وضحك فى بساطة ومرح ..

ولم أتمالك من الشعور بميل الى هذا الشاب المشرق الوجه ، ذى الابتسامة الدافئة ، الذى تنم كل اعماله وحركاته عن نبل خلقه ، وثقته بنفسه ، ورضائه عن الحياة . وقلت لنفسى على الفور :

هذا هو الشخص الذى استطيع ان اصارحه بما يعتمل فى نفسى ..
انه يرتدى الثياب المدنية ، فهو سيد نفسه .. وقد مر بكل ما امر به الآن .. وقد قال لى فيرنز انه ساعد احد اقاربه فى الحصول على عمل .. وانه يرحب بمساعدة كل ضابط فى الفرقة .. ومن يدرى ، فقد يمد الى يد المعونة !!

مرت كل هذه الخواطر فى ذهنى بسرعة البرق .. فجمعت اطراف شجاعتى وقلت له :

- معذرة يا صديقى .. هل تستطيع ان تمنحنى خمس دقائق من وقتك ..

فبهت قليلا ولكنه ابتسم وهتف :

- بكل سرور يا عزيزتى هوف .. هوف ..

- هوفميلر ..

- كيف لا يتسع وقتى لزميل ؟ . اننى فى خدمتك فهل نجلس فى احد المطاعم ؟ . أم لعلك تفضل مرافقتى الى غرفتى بالفندق .

- لنذهب اذن الى غرفتك ، وثق اننى لن استبيح لنفسى من وقتك اكثر من خمس دقائق .

- سأكون تحت تصرفك اى وقت تشاءه ، لابد من نصف ساعة على الأقل لاصلاح السيارة هلم بنا ، ان صاحب الفندق يصر دائما على اعطائى افضل جناح فى فندقه ، ولكنى من ناحيتى أصر - لاسباب عاطفية - على الاقامة فى غرفتى القديمة التى كنت استاجرها قبل أن إترك خدمة الجيش .

وقصدنا الى غرفته .. كانت حقا غرفة صغيرة متواضعة .. لا تليق برجل يملك مثل ثروته ..

لم يكن بها غير فراش صغير ، ومقعدين ، ومائدة .

واخرج بالينكاى علبة سجائره الذهبية وقدم لى لفافة ، وهون الأمر على بأن طرق الموضوع بنفسه ..

قال :

- والآن يا عزيزى هوفميلر .. ماذا استطيع عمله من أجلك ؟

وقررت ان أتجنب اللف والدوران .. وقلت له :

ـ انني بحاجة الى مشورتك يا بالينكاي .. اريد ان اترك خدمة الجيش واغادر النمسا .. فهل تعرف عملا يصلح لي ؟ .

فقطب بالينكاي جبينه ، واكفهر وجهه ، وقذف بسيجارته بعيدا قبل أن يدخنها وهتف :

ـ هراء ! . شاب مثلك ! . ماذا دهاك ؟ .

فتملكتني نوبة عناد زادتني اصرارا على القرار الذي اتخذته منذ بضع دقائق ..

قلت له بلهجة حاسمة ، لأقطع السبيل على كل مناقشة

ـ يا عزيزي بالينكاي ، ارجو أن تعفيني من ذكر الأسباب .. كل انسان يعرف ماذا يريد ، وما ينبغي عليه عمله .. صدقني .. انني لابد لي أن اترك خدمة الجيش ، واسترد حريتي .

فرمقني بنظرة فاحصة ، ولابد انه شعر بأنني جاد فيما اعتزمته قال :

ـ ليس لي ان أتدخل في شئونك يا هوفميلر ، ولكن صدقني اذا قلت لك انك ترتكب خطأ جسيما اذا انت تركت خدمة الجيش .. انت لا تدرك ما انت فاعل .. يخيل الى انك في الخامسة أو السادسة والعشرين من عمرك ، وقد اصبحت على وشك الترقية الى رتبة الملازم أول ، وهذه رتبة لها قيمتها ..

انت في الجيش ضابط ولك رتبتك فأنت انسان له مركزه وقيمته ولكنك لا تكاد تبدأ حياة جديدة حتى تجد ان أتفه الناس واحقرهم شأنا اثقل وزنا منك، لسبب بسيط هو انهم لا يحفلون بالتقاليد التي درجنا عليها ..

اننا معشر العسكريين متى خلعنا بزتنا ، لم يبق منا شيء ..

واني ارجوك شيئا واحدا هو الا تنخدع بالنجاح الذي احرزته ، لقد نجحت بمجرد الصدفة واني لأرتجف هلعا كلما فكرت في مصائر جميع الزملاء الآخرين الذين لم تترفق بهم الأقدار كما ترفقت بي .

كانت لهجته تنم عن الصدق والايمان ، ولكنني شعرت بأنني يجب الا اتردد ..

قلت له :

ـ انني اوافقك على انني بسبيل اتخاذ خطوة الى اسفل ، ولكن ليس لى أن أختار ، فلا تحاول أن تثنيني عما أعتزمه ..

أعلم أنني انسان عادي ، وليست لى اية موهبة بارزة ، ولكنك اذا زودتني بكتاب توصية فانني لن ادعك تندم عليه ، ثم انني اعلم انك عاونت أشخاصا كثيرين ، وانك وجدت عملا لأحد اقارب فيرنز ..

ـ هذا صحيح ولكنى اسالك ، هل تعرف اى نوع من الناس هو ؟ . انه مجرد موظف ريفي بسيط ، وليس أيسر من مساعدة من كان مثله .. كل ما فعلته من اجله ، انني نحيته عن مقعد ، وأجلسته على مقعد افضل منه قليلا . وهو لا يهمه أن يبلى بنطلونه على هذا المقعد أو ذاك ، لأنه لا يعرف لنفسه مركزا أفضل ، ولكن كيف السبيل الى ايجاد العمل الملائم لشخص كانت على كتفه نجمة ؟ . كلا يا عزيزى هوفميلر ، ان جميع الطوابق العليا قد شغلت فعلا ، ويتعين على من يريد أن يشق طريقه فى الحياة المدنية أن يبدأ من القرار .. من القبو .. وأؤكد لك أن القبو لا تنبعث منه رائحة زكية ..

ـ لا يهمني ذلك ..

فنظر الى فى دهشة ، ثم أدنى مقعده منى ، وقال وهو يلقى بيده على كتفى :

ـ اصغ الى يا هوفميلر .. انا لست ولى امرك ، وليس من شأنى أن القى عليك محاضرة فيما ينبغى وما لا ينبغى ، ولكنى أرجوك أن تصدق زميلا عركته التجارب .. انك ستهبط من القمة الى القاع فى غمضة عين ، ستهبط عن ظهر جوادك الى الوحل ، والشخص الذى يقول لك هذا الكلام ، سبق له أن جلس فى هذه الغرفة الصغيرة القذرة من الظهر حتى المساء ، وراح يقول لنفسه : : « لا شىء يهمني » ، وفى المساء قابلت الكولونل لآخر مرة .

ولم اشأ أن أقابل زملائى بعد ذلك ، ولم اشأ أن يرانى احد من اهل المدينة ، فانتظرت حتى أرخى الليل سدوله ، لكيلا

ينظر احد باشفاق الى بالينكاى وهو يتسلل من الفندق فى معطفه البالى وقبعته العتيقة ..

ووقفت امام هـذه النافذة ذاتها ، والقيت نظرة أخيرة على المـارة فى الشارع ، وبينهم ضباط كانوا يسيرون مرفوعى القامة كانهم آلهة كانوا يعرفون من هم وما هم .. وللمـرة الاولى فى حياتى شعرت بأننى لست الا قبضة من التراب على سـطح هذه الارض .. واحسست كأننى خلعت جلدى ، حـين خلعت بزتى العسـكرية ، ولك أن تقول : وما الفـارق بين ثوب ازرق وآخر اسود ؟ وما الفارق بين ان يحمل الانسان فى يده مظلة أو سيفا ؟ ؟ ولـكنى مازلت أذكر كيف تسللت الى المحطـة تحت جنح الظلام ، وكيف قابلنى اثنان من الجنود فلم يرفعا أيديهمـا بالتحية ، وكيف حملت حقيبتى الى احـدى مركبات الدرجـة الثالثة وجلست بين الفلاحات اللائى يتصببن عرقا ستقول ان هذه كلها اعتبارات لا وزن لها وان الانسان لا ينقص من قدره ان يسافر بالدرجة الثالثة أو ان يجلس بين العمال والفلاحين .. وهذا صحيح ، ولـكنك الفت مستوى من الحياة والمظاهر بعـد كل السنوات الطويلة التى قضيتها فى الـكلية العسكرية وفى خدمة الجيش ، ولا يسعك الا أن تشعر بغصة حين ترى ما انتهى اليه امرك .. بل انك ستشعر كمن فقـد ذراعا أو سـاقا .. اسال الله لك الا تمر بمثل التجارب التى مررت بها .. لو أننى اعطيت مال الدنيا لـكى اعيش امسية اخرى كتلك الامـسية ، حين حملت حقيبتى وتسللت فى الشـــوارع بعيـــدا عن أنوار المصابيح لمـا قبلت ..

ثم ان هذه لم تكن الا البداية ..

فقلت له

ـ من اجل هذا أريد الفرار من هذه المدينة ؟ بل من النمسا كلها الى حيث لا يوجد من يعرف شيئا عنى .

ـ ذلك ما كنت أقوله لنفسى ياهوفميلر .. ذلك تماما ماكنت أقوله لنفسى .. بحسبى أن اغادر هذا البلد ، لأعمل ولو ماسح

احذية فى امريكا .. لقد قرانا فى الصحف ان اكثر أصحاب الملايين بدأوا حياتهم العملية بمسح الأحذية وغسل الصحاف اليس كذلك ؟ ولكن السفر الى امريكا يتطلب مالا كثيرا يا هوفميلر .. ونحن الضباط متى خلعنا بزتنا العسكرية تعذر علينا الوقوف على أقدامنا ، فما بالك بالكلام على نحو ما تعودنا ؟ اننا نجلس مع أصدقائنا ، ومتى حان الوقت لكى نسألهم معروفا ، تلعثمت السنتنا وخنقتنا كبرياؤنا .. نعم يا صديقى العزيز .. لقد مرت بى فى هذا الصدد مواقف أفضل الا اذكرها ، مواقف مذلة مهينة لم اصفها فقط لأحد ..

وامضته الذكريات ، فنهض واقفا ، وراح يمشى فى الغرفة جيئة وذهابا ، ثم عاد الى مقعده وقال :

ـ ولكنى لا ارى ما يمنعنى من ذكرها لك ، انها لم تعد تخجلنى ، ولكنها قد تنفعك وتزيل الغشاوة عن عينيك

لاشك انك تعرف قصة زواجي من السيدة الثرية التى قابلتها فى احد فنادق القاهرة .. أنا أعلم ان كل ضابط فى الجيش يتحدث عن هذه القصة ، ويسبغ عليها من خياله ، ما يجعلها جديرة بأن تسجل ضمن أمجاد جيش صاحب الجلالة الامبراطور .. ولكن القصة ليست من الغرابة كما تتصور .. شيء واحد صحيح فى كل ما يروونه عنها ، هو أننى قابلت زوجتى حقا فى احد فنادق القاهرة ، أما كيف قابلتها فأمر لا يعرفه سوانا .. أنا وهى ، ولم يذكره احدنا لكائن من كان ..

اننى اقول لك هذا لكى تعلم ان اشجار التفاح لا تنبت فى الشوارع لمن هم على شاكلتنا .. عندما قابلت زوجتى فى احد فنادق القاهرة ، كنت أعمل ـ وارجو الا تدهش ـ خادما فى ذلك الفندق كنت اغسل الأطباق وأحمل الصحاف وأصعد درج السلم واهبطه ، وطبيعى اننى لم افعل ذلك كهواية وانما كنت فى أشد الحاجة الى العمل ؛ الى اى عمل .. نتيجة لغباوتى وعدم خبرتى ..

ذلك اننى قابلت فى احدى حانات فيينا رجلا يونانيا ، قال

لى : ان اخاه يعمل مديرا لنـادى البولو فى القـاهرة ، واننى اذا اعطيته مائتى كورون ، فانه يزودنى بكتاب توصية الى أخيـه ليلحقنى بالعمل فى النادى كمدرب بمرتب كبير ، خاصة واننى شاب مثقف ومن اسرة كبيرة . .

ولمـا كنت اجيد لعب (البولو) فقد قدرت اننى اذا عملت ثلاث سنوات بالمرتب الضخم الذى ذكره ، استطعت ان اجمـع مبلغا من المـال أبدا به عملا جديدا محترما . .

وهكذا اتفقنا . .

ولا ضرورة لأن أحدثك عن الابواب التى قرعتها ، والاعـذان المحرجة التى سمعتها من عشرات الاصدقاء القدامى قبل أن تمكن من جمع اقل قدر من المـال يساعدنى على السفر الى القاهرة . . وشراء الملابس الضرورية للظهور بالمظهر اللائق فى منتدى كبير

وعند ما وصلت الى القاهرة ، اتصلت تليفونيا بنادى البولو . . وسالت عن مديره مسيو «افروبولوس» فكان رد سكرتير النـادى انه لا يعرف شخصا بهذا الاسم ، وان النـادى ليس بحاجة الى مدرب ، واكثر من ذلك ان النادى سيغلق أبوابه تمهيدا لتصفيته.

وهكذا كنت ضحية لذلك المحتال اليونانى الذى سلبنى مائتى كورون ، وارسلنى الى القاهرة للحصول على وظيفة لا وجود لها ، وقد كنت انا من الغباء بحيث لم أطالبه بدليل يثبت صدقه . .

نعم يا عزيزى هوفميلر ، نحن لسنا أندادا لأمثال هؤلاء اللئام ، ولم تكن هـذه أول مرة اذهب فيها ضحية الاحتيال وانا بسبيل البحث عن عمل . .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الضربة الأخيرة كانت القاضية ، ذلك اننى وجدت نفسى فى بلد غريب لا أعرف فيه احدا ، وليس معى من النقود سوى سبعة قروش .

ولا ادرى فى الواقع كيف احتملت الصـدمة ، وكيف قضيت الايام الستة الأولى فى القاهرة ولـكن هنـالك محن وتجارب يجتازها الانسان بما يشبه المعجزة وأى انسان فى مثل موقفى كان يستطيع بطبيعة الحال ان يلجأ الى القنصلية النمسوية ويطلب

اليها اعادته الى وطنه ، ولـكننا معشر الضباط لا نستطيع ان نفعل شيئا كهذا ، ولا تطوع لنا نفوسنا أن نجلس الساعات الطوال مع البحارة الذى فقدوا عملهم ، انتظارا لمقابلة القنصل .

ولك أن تتصور مبلغ سعادتي ، وسط هذا الشقاء ، عندما علمت أن فندق اكسلسيور بحاجة الى خادم ..

ولما كنت أملك ثوب سهرة جديد ، وأتكلم الفرنسية بطلاقة فقد تقدمت لشغل الوظيفة ، وكتب لى التوفيق ..

وكان العمل فى ظاهره لا بأس به ، فانك ترتدى ثوبا نظيفا ، وتقوم على خدمة الزبائن وهؤلاء ينفحونك هبات لا بأس بها ، ولكنك تنام فى غرفة قذرة ضيقة مع اثنين أو ثلاثة من الخدم فى اسرة ملأى بالحشرات ..

واليك الآن قصة زواجى بالتفصيل ..

كانت زوجتى قد ترملت حديثا ، وذهبت الى القاهرة مع اختها وزوج هذه الأخيرة ..

وكان زوج الأخت رجلا قصير القامة بدينا ، وعلى جانب عظيم من القحة والسماجة ..

ولا ادرى ماذا احنقه على ، ولعل السبب اننى كنت اكثر منه اناقة ، أو أننى لم اكن اقبل الأرض بين يديه وحدث ذات يوم اننى توانيت قليلا فى احضار طعام افطاره ، فصرخ فى وجهى قائلا :

ــ لماذا تأخرت أيها الحقير ؟..

فبهت ، وهممت بأن اصفعه ، ولكنى تمالكت نفسى فى آخر لحظة ، وقنعت بأن صعدته بعينى فى ازدراء ، وانصرفت وأنا مرفوع الرأس ، وتركته يتميز غيظا وحنقا ..

وكانت السيدة التى أصبحت فيما بعد زوجتى قد رأت ما حدث وأدركت من سلوكى ــ كما اعترفت لى بعد زواجنا اننى لست الرجل الذى يقبل الاهانة .. فنهضت على الفور ، ولحقت بى فى الدهليز ، واعتذرت لى فى لطف عن خشونة زوج أختها ، بل وحاولت أن تضع فى يدى ورقة مالية ..

ولما رفضت قبول الورقة المالية ، ادركت للمرة الثانية أن

هناك سرا وراء اشتغالى كخادم فى ذلك الفندق ..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لأننى استطعت خلال الاسابيع القلائل التى عملتها فى الفنـــدق ان أدخر مبلغا من المـال يغطى نفقات عودتى دون حاجة الى القنصل ، ولكنى ذهبت الى القنصلية للاستعلام عن الاجراءات اللازمة للحصول على تأشيرة السـفر ..

ومرة أخرى لعب الحظ دورا عجيبا ، فقـد تصادف أن غادر القنصل مكتبه ، ومر بغرفة الاستقبال ، وأتيح لى أن أراه عن كثب ولشد ما كانت دهشتى حين عرفت فيه صديق الطفولة والصبا ، ايلمر فون جواكز ..

وبهت القنصل بدوره حين رآنى ، ثم انقض على مقبلا معانقا ، وصمم على اصطحابى معه الى ناديه لتناول العشاء ..

وللمرة الثالثة يتدخل الحظ بصورة غير مألوفة .. فقد كانت زوجتى المقبلة هنـــاك فى النادى ، وعندما قـدمنى اليها القنصل بصفتى صديقه البارون بالينكاى ، عـــرفتنى على الفور ، واحمر وجهها ، ولابد انها تذكرت الورقة المـالية ، فشــعرت بالخجل ، ولـكنها لم تنطق بكلمة ..

وما حدث بعـــد ذلك كان أشبه بدوامة ولا صلة له بما نحن بصدده ..

انما يجب أن تعلم انمثل هذه السلسلة العجيبة منالمصادفات لا يحدث كل يوم .. وصدقنى ، اننى رغم ثروتى ، ورغم زوجتى التى اشكر الله عليها صباح مساء ، فاننى لا أود أن أواجـــه مرة اخرى ما سبق أن واجهته مهما يكن الجزاء ..

فشددت على يده بحرارة وأنا أقول :

ـ شكرا لك على هذا التحذير .. فاننى اعرف الآن على الاقل نوع المتاعب التى تنتظرنى .. ولـكنى لا أجـــد مخرجا آخر خبرنى ، الا يمكنك حقا أن تدلنى على عمل ؟ قيل لى انك وزوجتك تشرفان على مشروعات ضخمة ..

فصمت بالينكاى لحظة ثم تنهد وقال :

ـ يخيل الى انك فى مأزق فعلا أيها الصديق المسكين .. كلا .. لا تنزعج فليس فى نيتى أن أستجوبك ، لقد فهمت ما فيه الكفاية واعتقد أن الأمور متى تحرجت الى هذا الحد ، فلن ينفع الاقناع ؟ سأحاول أن امد لك يد المساعدة أيها الصديق .. ولا أحسب انني بحاجة الى أن أؤكد لك انني سأبذل قصارى جهدى ، انما يجب الا تتوهم ان فى مقدورى أن أرفعك الى القمــة بدفعة واحدة .. ذلك مستحيل فى المؤسسات المحترمة ، فضـــلا عن أنه يوغـر صدور الموظفين القدامى .. لذلك يجب ان توطن نفسك على أن تبدأ من البداية ، وقد ندربك بضعة شهور قبل ان نبعث بك الى مزارعنــا فى آسيا ، مهما يـكن الأمر فاننى ساجـــد لك عملا سأسافر مع زوجتى غدا الى باريس حيث نقضى بعض الوقت ، ومن ثم نذهب الى « الهافر » ، و « انتوبرب » لتفقد العمل فى وكالاتنا هناك ؟ ولكننا سنعود الى روتردام بعد ثلاثة اسابيع ، وسأكتب اليك حالما نصل الى هناك .. كلا . كن مطمئنا فلن أنسى .. ان بالينــكاى لا ينسى أصدقاءه ،

ـ أنا واثق من ذلك ..

ولابد أنه لاحظ من صوتى دلائل شعورى بخيبــة الامل ، لانه قال على الفور .

ـ هل ثلاثة أسابيع مدة طويلة ؟..

ـ كلا .. دمت واثقا من النتيجة ، ولـكنى كنت أوثر لو انك..

فقاطعنى قائلا

ـ هل لديك متســع من الوقت اليوم ؟ ان زوجتى مازالت فى « فيينا » وهى صاحبة العمل ، ولها الكلمة الأخيرة ..

فقلت بسرعة ، وقد تذكرت ما قاله الكولونل من انه لا يريد ان يقع بصره على اليوم :

ـ نعم .. نعم .. أنا حر اليوم ولا عمل لى ..

ـ اذن فخير ما يمكن عمله فى هـذه الحالة هو ان تذهب معى بالسيارة الى فيينا ، حيث تقيم زوجتى بفندق بريستول ، فأحدثها فى موضوعك ونحسم الأمر ..

انها لم ترفض لى قط رجاء بشأن احد اصدقائى ..

فشددت على يده مرة أخرى شاكرا وغادرنا الفندق ، وكان العاملان قد فرغا من اصلاح السيارة ، فانطلقنا بها توا فى الطريق الى « فيينا » ...

***

ومن عجب ان يكون للسرعة الفائقة كل هذا التأثير على الانسان انها تنشط العقل والجسم معا ، وتفريهما فى ذات الوقت بالراحة والاسترخاء ...

ولم تكد السيارة تترك شوارع المدينة وتخرج الى الطريق الزراعى الكبير حتى خالجنى شعور عجيب بالارتياح والانطلاق ...

وكان السائق يقود السيارة بسرعة رهيبة ،حتى خيل الى ان البيوت والأشجار وعلامات الطريق المتلاحقة يتمايل بعضها على بعض وتوشك على السقوط ...

وطافت بذهنى أحداث اليومين الأخيرين ، وعجبت كيف أمكن أن يتغير مجرى حياتى بهذه السرعة المذهلة كما يحدث فى الأحلام ؟ فقد كان كل شبر تجتازه السيارة فى الطريق الى «فيينا» يزيد المسافة والقطيعة بينى وبين جميع العناصر التى كانت تتألف منها حياتى اليومية .. السكنة والعمل ، وزملائى وآل كسفالفا ، والاستقرار ، والمستقبل المأمون ...

***

وحول منتصف الساعة السادسة ، وقفت بنا السيارة أمام فندق بريستول ، فغادرتها والغبار يغطى ثيابى ووجهى .
قال بالينكاى ضاحكا

ـ لا اظنك ستأتى لمقابلة زوجتى وأنت على هذه الحال ؟ ان من يراك يظن ان بعضهم قد افرغ عليك زكيبة من الدقيق ، ثم اننى استطيع التحدث الى زوجتى بمزيد من الحرية اذا انا حدثتها على انفراد ... ولهذا اقترح عليك ان تدخل الفندق وتغتسل وتصلح من هندامك وتتناول شرابا فى المقصف وسألحق بك بعد بضع دقائق لأنبئك بالنتيجة ... ولكن كن مطمئنا ...

والواقع أنه لم يدعنى انتظره طويلا ، فقد عاد بعد نحو خمس دقائق ووجهه مشرق بالابتسام ، وقال :

ـ انتهى الامر .. ولم تعـد بك حاجة الى القلق .. على انه لا يزال فى استطاعتك أن تقبل او ترفض .. الحق ان زوجتى امرأة ذكية ، وقد فكرت فى الحاقك باحدى بواخرنا ، لـكى تتعلم اللغات الضرورية وتعرف المزيد عن الهند الهولندية ، وسـتكون وظيفتك فى الباخرة مساعد صراف ، فترتدى بزة رسمية ، وتتناول الطعام مع ضباط الباخرة ، وتساعد فى اداء بعض الأعمال الكتابية ، وبعد بضع رحلات ، تلحق بوظيفة اخرى اهم ..

ـ شكرا لك الف شكر ..

ـ لا حاجة بك الى ان تشكرنى .. فقـد كان من الضرورى ان امد اليك يد المساعدة ، ولكن دعنى ارجوك مرة اخيرة يا هوفميلر .. لا تتخذ مثل هذه الخطوة دون تفـكير وتدبر .. وفيما يختص بعملك الجديد ، فانك تستطيع ان تتسلمه بعد غد اذا شئت ، لاننى سابرق اليوم الى روتردام ، لـكى يدرجوا اسمك فى سجل الموظفين .. ولـكننى افضل لك الا تترك الجيش .. ان الأمر بيـدك ، اذا جئت فاهلا بك وسهلا ، واذا عدلت فلن الومك ، ومهما يكن قرارك فقد سعدت بخدمتك .. والى اللقاء ..

***

وكان تأثرى بالغا وانا اشيع ببصرى هذا الرجل الذى ارسلته الاقدار لمساعدتى ..

لقد استطاع فى بساطة ومرح ان يحمل عنى اثقـل جانب من العبء .. وان يجنبنى عذاب القلق والتردد ومـذلة السؤال .. ولم يترك لى من المهمة الا ان اكتب استقالتى ، واقدمها لاصبح حرا طليقـا ..

***

وانتحيت ركنا فى احد المقاهى وشرعت فى كتابة الاستقالة ..

والمقاهى فى « فيينا » هى الأماكن الرئيسية التى تعقد فيها اهم الأعمال والصفقات ، وانى مازلت اذكر ـ كما لو كان بالامس ـ تلك

للمائدة الصغيرة المستديرة التى جلست اليها فى ركن المقهى ..
وشرعت فى تنفيذ اهم قرار اتخذته فى حيـــاتى .. واذكر كيف
تناولت القلم ، وكيف كنت حريصا على كتـابة الاستقالة بخط
واضح انيق ..

وشرد ذهنى وانا اكتب فوضعت القــلم ، ورحت اتخيــل
ما سوف يحدث عندما تصل استقالتى الى مركز ادارة الفرقة .

لا شك أن الـكاتب الذى سيتلقاها ، سيقراها بدهشة بالغة
ثم يهمس بمضمونها الى أحد زملائه .. ولا تمضى لحظـات حتى
تكون استقالتى موضوع حديث الجميع ، فليس من المألوف فى كل
يوم أن يتقدم أحـــد الضباط باستقالته ، ويترك منصبــه بهذه
البساطة ..

ثم تمضى الاستقالة فى طريقها الرســـمى حتى تصــل الى
الكولونل .. فيضع نظارته على انفه ويقراها ، ثم يضرب المكتب
بقبضة يده فى عنف وغضب ..

لقد اعتاد هذا العجوز المتعجرف ان يمرغ صغار الضبــاط
فى الوحل ، ثم يرضيهم فى اليوم التالى بكلمة أو ابتسامة ولكنه
سيجد امامه الآن ضابطا صغيرا يدعى هوفميلر لا يقل عنه صلابة
وقوة شكيمة ، ولا يرضى لنفسه أن يذل ويهان

وعندما يذاع نبأ الاستقالة ، سيهز بعض الضباط رءوسهم
دهشا وعجبا ، وسيقول بعضهم الآخر هو ذا فتى صلب العود
لا يرضى بالهوان .. ولم يسبق أن ترك ضــابط خدمة الجيش
وخرج مرفوع الراس موفور الـكرامة كما خرج هوفميلر .

***

ولا يخجلنى ان اعترف بأننى شعرت براحة نفسية لا مثيل
لها وانا اتخيل كل هذا .. ومن عجب أن يكون الغــرور من أهم
الحوافز فى حياة البشر ؟ وليس بين ضعــاف النفوس من يقوى
على مقاومة الرغبة فى عمل شىء يلفت اليه الأنظار ، ويسبغ عليه
مظاهر الشجاعة والقوة .

وها هى قد حانت لى ، لأول مرة فى حياتى ، فرصة فريدة لكى اظهر لزملائى اننى انسان يخدم نفسه ، ويضحى بكل شىء فى سبيل كرامته ..

***

وفرغت من كتابة الاستقالة ولم يبق الا ان اذيلها بتوقيعى .

وكانت الساعة قد بلغت منتصف السابعة ، فقررت أن أدفع الحساب ، واختال فى شوارع المدينة بالزى العسكرى لآخر مرة .. ثم اعود أدراجى بقطار الليل ، وفى الصباح أقدم الاستقالة .

***

وطويت كتاب الاستقالة ، ووضعته فى جيبى ، وحينئذ حدث شىء عجيب غير متوقع ..

واليك ما حدث :

خلال نصف الثانية التى غاصت فيهـا يدى فى جيبى لأودع كتاب الاستقالة وانا اشد ما أكون ارتياحا وثقة بنفسى ، مست يدى شيئا فى جيبى فأجفلت أولا .. ثم أخرجت ذلك الشىء فاذا هو رسالة اديث او بالأحرى رسالتاها

ولا استطيع أن أصف بالدقة ما عرانى من الانفعال حينمـا تذكرتها فجأة ، واكبر ظنى أن شعورى وقتئذ كان مزيجا من الهلع والخجل .

وفى خلال هذه اللحظة الخاطفة ، ارتفعت السحب عن عينى وحواسى ، وأدركت أن كل ما فعلته وفكرت فيه خلال الساعات الأخيرة كان خداعا وزيفا ، وكذلك كان ضيقى بتعنيف الكولونل ، وشجاعتى فى ترك خدمة الجيش .. واننى اذا كنت أريد الفرار من الجيش ومن أرض الوطن ، فليس ذلك لأن الكولونل اهاننى (فهذا يحدث لبعض زملائى كل أسبوع تقريبا) وانما لأننى فى الحقيقة أريد الفرار من آل كسفالفا ، ومن خداعى ومسئوليتى .. أريد الفرار لأننى لا أطيق أن يحبنى احد رغم ارادتى ، كان مثلى مثل انسان يعانى سكرات الموت ، فيتناسى ماهو فيه ليشكو من ألم فى أسنانه .. لقد نسيت (أو حاولت أن انسى) المصدر

الحقيقى للآلام التى تحملنى على الفرار فى جبن ونذالة ، واتخذت من حادث الصباح فى ميدان التدريب ذريعة للاستقالة

واذن فهذه الاستقالة ليست عملا من أعمال الجرأة والبطولة ولكنها مجرد فرار فى جبن ونذالة ..

***

ولكنى كنت قد اتخذت قرارى وانتهى الأمر . قلت لنفسى فى غضب : ماذا يضيرنى اذا كانت اديث تنتظرنى الآن فى لهفة وقلق ؟ ماذا يضيرنى اذا كانت امراة لا أكاد اعرفها مولعة بى ؟..

انها تستطيع ــ بملايينها العديدة ــ أن تجد من هو أفضل منى ، واذا لم تستطع ، فالذنب ليس ذنبى ، الا تكفينى اننى تركت كل شىء واستقلت من عملى ؟..

ولماذا كل اهتمامى هذا بمرضها وشفائها ؟ انى لست طبيبا ..

***

وعند ذكر كلمة «طبيب» توقف تفكيرى كما تتوقف احدى الآلات بغتة ..

وتذكرت الدكتور كوندور ، وقلت لنفسى ان هذا عمله ، وهو يتقاضى أجرا لمعالجتها ، انها مريضته وليست مريضتى ، ويجب ان يحصد ما زرع .. ولعل خير ما ينبغى عمله ، أن اذهب اليه توا لأنبئه باننى قد نفضت يدى من الموضوع تماما ..

***

وكانت الساعة قد بلغت السابعة ، بينما قطار الليل لا يغادر «فيينا» قبل العاشرة .. ومعنى ذلك ان لدى متسعا من الوقت لمقابلة كوندور .. ولن تستغرق المقابلة وقتا طويلا ، سأقول له باختصار ان لا شأن لى بابنة كسفالفا ومرضها .. ولكن أين أجد كوندور ؟ انه لم يعطنى عنوانه .. ولعله اعطانيه ونسيته ..

ونهضت الى دليل التليفون .. وبحثت عن اسم كوندور ..

انطوان كوندور .. تاجر .. امريش كوندور ــ طبيب ــ

٩٧ شارع (فلوريانجاس ؟ .. لا يوجد طبيب آخر بهذا الاسم ..
لابد انه هو

وغادرت المقهى مهرولا ، ووثبت الى احدى المركبات ، وذكرت العنوان للحوذى وفكرت فى الطريق فيما يجب عمله .. المهم أن اتكلم بايجاز وأتكلم فى الموضوع مباشرة .. بغير لف أو دوران واشعره بأن استقالتى كانت أمرا مقررا منذ وقت طويل ولا صلة لهـا بآل كسفالفا .. واننى كنت فقط انتظر ردا من من هولندا بشأن الوظيفة الجديدة التى ساشغلها

ووقفت بى المركبة ..

يا انهى هل اخطأ الحوذى .. أم ترانى أخطأت فى ذكر العنوان ؟

كيف يمكن ان يقيم رجل مثل كوندور فى حى فقير كهذا ، وهو الذى تقاضى اجرا ضخما من كسفالفا وحده ؟

ولكن لا انه يعيش هنـا فعلا ، وها هو اسمه منقوش على الباب

دكتور امريش كوندور

بالطابق الثالث

مواعيد العيادة من ٢ الى ٤ مساء

ولكن الساعة الآن السابعة لا شك انه سيقابلنى على الرغم من ذلك ..

ونقدت الحوذى أجره ، واجتزت فناء الدار ، واخذت ارقى درجات السلم .. وما كان أقذره من درج ! ! كانت درجاته بالية محطمة ، ورائحة الأطعمة الرخيصة تنبعث من مطابخ البيت ، والشرفات المطلة على الفناء تموج بالملابس المنشورة .. والنساء يتبادلن الحديث ويتناقلن الانباء من مطابخهن عبر فناء البيت .

ووصلت اخيرا الى الطابق الثالث وكان الدهليز معتما ، فهممت بأن اشعل عود ثقاب لأتبين موقع شقة الدكتور كوندور ولكن بابا فتح فى تلك اللحظة ، وخرجت منـه خادمة تحمل

آنية فارغة ، ولعلها كانت فى طريقها لابتياع جعة فسألتها عن الدكتور كوندور فأجابت برطانة تشيكية :

ـ نعم .. انه يقيم هنا ، ولكنه لم يعد بعد ، وقد قال لسيدتى انه سيعود فى موعد العشاء .. ادخل وانتظره .

وقبل ان يتسع لى الوقت للتفكير ، قادتنى الخادمة الى الردهة المظلمة ، ومنها الى قاعة الاستقبال ، وكانت غرفة فسيحة بها بضعة مقاعد ، ومائدة صغيرة .. وحول جدرانها صف من دواليب الكتب ..

قالت لى وهى تشير الى مقعد نظيف :

ـ تفضل بالجلوس هنا ..

وادركت مما رأيت ، أن عملاء كوندور جميعا من طبقة العمال ودهشت لهذا الرجل العجيب الذى فى مقدوره ان يجمع ثروة كبيرة من وراء كسفالفا وحده ..

***

وانتظرت وانتظرت وانا متوتر الاعصاب ، كما يحدث دائما لمن ينتظر الطبيب ، ولما تعبت من الانتظار تناولت احدى المجلات القديمة واخذت اتصفحها ..

ثم ضقت بذلك ايضا ، فنهضت الى النافذة ونظرت منها الى الفناء ..

رايت رجلا عجوزا ـ لعله البواب ـ يحاول اصلاح عربة صغيرة ورايت من خلال احدى النوافذ ، امراة تشتغل بكى الملابس واخرى تغسل طفلها ..

ونظرت الى الساعة المثبتة فى الجدار ..

كانت منتصف الثامنة ..

يا الهى .. لماذا لم يعد ، واذا كان قد عاد فلماذا لا يأتى لمقابلتى ؟ ترى هل نسيت تلك الخادمة البلهاء أن تنبه بوجودى ؟

وسمعت وقع اقدام فى الغرفة المجاورة .. ولكن انها ليست أقدامه .. فانا أعرف مشيته منذ تلك الليلة التى قطعنا فيها الطريق بين القصر والمحطة سيرا على الاقدام ..

واصغيت السمع جيـداً ، وخيل الى ان الشخص الذى كان يمشى فى الفرفة المجاورة ينصت بدوره ..

وفجاة ، رايت مقبض الباب يتحرك ، ثم فتح الباب قليلا .. ولمحت يدا تدفعه ببطء وهدوء ، وسمعت صوت سيدة تسأل :

ـ هل يوجد احد هنا ؟..

وهممت بالاجابة ، ولكن الالفاظ تلاشت على شفتى ..

ان المكفوفين وحدهم هم اللذين يتكلمون بهـذه الطريقة .. ويتلمسون طريقهم بمثل هذا الهدوء ..

وهنا تذكرت كل شىء ..

الم يقل كسـفالفا ان كوندور اقترن بامراة كفيفة عجـز عن شـفائها ؟

اذن لا بد ان تكون هذه هى الزوجة ..

ونظرت نحوها بحيرة لأتبينها فى الظلام .. ورايتها امراة طويلة نحيفة مشعثة الشعر ، ترتدى غلالة واسعة .

يا الهى !! هل يمكن ان تكون هذه المراة الدميمة زوجته ؟

صمت لحظة قصيرة ، ثم نهضت واقفا ، وقلت فى أدب :

ـ اننى انتظر الدكتور كوندور ..

وعندئذ فتحت السيدة الباب على مصراعيه وتقدمت خطوة وهى لا تزال تتلمس الجدار وقالت بخشونة :

ـ لقد انتهى موعد العيادة ... ويجب حين يعود زوجى أن يتناول طعـامه ويحصـل على بعض الراحة .. الا تسـتطيع القـدوم غدا ؟

وكان وجهها يزداد صلابة مع كل كلمة تنطق بها ، وادركت من ملامحها انها مخلوقة عصبية المزاج ، سريعة الانفعال .

اجبتها :

ـ معذرة يا سيدتى ، فما اردت ان أستشير زوجك فى مثل هذه السـاعة المتأخرة ، .. كل ما اريده هو ان اتحـدث اليه بشأن احد مرضاه .

فصاحت فى ضجر وفروغ صبر !

ـ مرضاه ... دائما مرضاه .. لقد استدعاه احد المرضى في الساعة الثانية صباحا وفي الساعة السابعة خرج مرة حرى .. ولم يعد للآن .. انني لن اسمح لكم بان تقتلوه قلت لك أن مواعيد العيادة قد انتهت وفي استطاعتك ان تترك له رسالة ، واذا كان الأمر عاجلا فاذهب الى طبيب آخر .. وما أكثر الاطباء في هذه المدينة ! . يوجد أربعة منهم في كل شارع .

واستمرت تتحسس طريقها وتدنو مني ، ولم اتمالك من التراجع حين رأيت وجهها الغاضب وعينيها المكفوفتين .

صاحت :

ـ اذهب ، ودعه يأكل وينام كغيره من الناس .. لا تنشبوا اظافركم في جسده ليلا ونهارا انه يقتل نفسه ، وانتم تقتلونه لأنكم تشعرون بضعفه ... تبا لكم من وحوش ... انكم لا تفكرون الا في متاعبكم وامراضكم ... اتركوا له ولو ساعة واحدة في المساء يخلو فيها الى نفسه ..

ولا بد انها اكتشفت مكاني بغريزتها ، لأنها تحولت بوجهها الي ، وشعرت بشيء من الخجل واجبتها :

ـ معذرة يا سيدتي ... انني أفهم جيدا ضرورة حصول زوجك على قسط من الراحة ... سانصرف فورا ، ولكن هل تسمحين لي بأن اترك له رسالة .. او أن اتصل به تليفونيا بعد نصف ساعة ؟

ـ كلا ... كلا ... لا تتصل به تليفونيا ، ان التليفون يدق طول النهار ... كل انسان يريد منه شيئا ... تعال غدا في موعد العيادة ... اما الآن يجب ان تذهب .

وتقدمت الى الامام ويداها مبسوطتان حتى خيل الى انها توشك أن تنشب اظافرها في وجهي ..

ولكن حدث في هذه اللحظة ان فتح باب الردهة واغلق ... فارهفت المرأة اذنيها وتغيرت ملامحها على الفور ، وارتجف بدنها .

همست تقول .. وقد عقدت يديها فوق صدرها في ضراعة :

ـ لا تعوقه ، ولا تقل له شيئا ، انه لم يذق طعم الراحة طول اليوم ... كن رحيما .

وفتح الباب ، ودخل كوندور .

***

كان من الواضح ان الرجل الم بحقيقة الموقف بنظرة واحدة .. ولكنه لم يفقد هدوءه ولم ينفد صبره .

قال لزوجته فى بساطة ، حجب بها انفعاله :

ـ شكرا لك يا كلارا .. لابد انك كنت ترحبين بالسيد الضابط .

ومشى الى المراة الكفيفة وربت بلطف على شعرها الاشيب المشعث ، وحينئذ طرا على المراة تحول عجيب ، فقد انبسطت اسارير وجهها على الفور ، وتلاشت دلائل قلقها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة خجل ، ويبدو انها نسيت وجودى تماما ، لانها ما كادت تبسط يدها فى الفضاء وتلمس معطفه ، حتى راحت اصابعها تجرى على ساعده صعودا وهبوطا فى رفق وحنان ، وكانها ترسل اليه مع كل انملة من اناملها قبلة رقيقة .

قالت بلهجة من يستجدى:

ـ معذرة .. فقد اوضحت للسيد انك فى اشد الحاجة الى الطعام والراحة بعد الساعات الطويلة التى قضيتها فى عمل متواصل ، لقد دق جرس التليفون عدة مرات ... ارجو ان تغفر لى اننى طلبت الى السيد ان يعود غدا ... ولكن ...

فقاطعها قائلا وهو يضحك :

ـ اعتقد انك اخطات هذه المرة يا بنيتى العزيزة ... فالكابتن هوفميلر ليس احد مرضاى ، ولكنه صديق وعدنى منذ وقت طويل ان ياتى لزيارتى متى قدم الى المدينة ... ولما كان عمله يشغله طول النهار فانه لا يستطيع القدوم الا فى المساء ... ولكن دعينا من ذلك الآن .. اى طعام شهى ستقدمينه الينا الآن ..

فارتسم القلق على وجه المرأة مرة أخرى ، وأدركت من إجفالها الفجائي انها تودالانفراد بزوجها بعد غيابه الطويل فقلت:

ـ كلا كلا .. شكرا لك .. يجب أن أبادر بالانصراف حتى لا يفوتني القطار . انما جئت لأحمل اليك تحية آل كسفالفا ولن يستغرق حديثي معك أكثر من دقيقة أو دقيقتين .

فسأل كوندور وهو يرمقني بنظرة فاحصة

ـ هل كل شيء على ما يرام هناك ؟

ولابد انه لاحظ ان في الامر شيئا لأنه استطرد قائلا بسرعة:

ـ اصغ الي يا صديقي ... ان زوجتي تعرف من امري دائما أكثر مما اعرف من أمر نفسي .. والواقع انني أكاد أن أموت جوعا ، ولا خير مني قبل أن أتناول طعامي وأدخن سيجارتي .. فهل لك في أن تنتظر قليلا ريثما اتناول العشاء مع زوجتي ؟... تستطيع ان تتناول كتابا . واذا كنت متعبا ، كما يبدو لي ، فتمدد على أحد المقاعد حتى أوافيك .

***

لم يخطىء كوندور فقد كنت متعبا منهوك القوى بعد ليلة قلقة ويوم حافل بالاحداث . فانتظرت حتى قاد زوجته في رفق الى الخارج ، ثم تمددت على مقعد كبير ، وحاولت أن أبحث عن سبب محدد لقدومي الى ذلك البيت ..

وقبل أن أهتدي الى السبب ، شعرت بيد توضع على كتفي وسمعت صوت كوندور وهو يقول :

ـ ابق حيث أنت ، وسأجلس بجانبك ... ان الظلام يوفر على المتحدث كثيرا من الحرج . فلنتحدث في الظلام اذن ... تكلم .. ولا تخف عني شيئا .

***

وحدثته بكل شيء .. في صراحة تامة

حدثته عن انفجار أديث الفجائي ، وعن الذي استولى

على ... والمشاعر والاحساسات التى اضطربت بها نفسى ولم اخف عنه شيئا ..

وبعد ان فرغت من حديثى ، وقلت كل ما عندى ، ساد بيننا صمت عميق ، قطعه كوندور اخيرا بقوله :

ـ يالى من مغفل ! . كيف لم الاحظ ذلك على الفور ؟ . لقد حرصت على فحص الأعراض الظاهرة ، وغاب عنى ان اتغلغل فى أعماقها لاكتشاف الأعراض الداخلية .

لقد أحسست بأن هناك تغيرا .. ولعلك تذكر اننى سألت أباها عما اذا كان قد استقدم طبيبا آخر ولكنى لم أفطن قط الى التفسير المنطقى البسيط ان الفتاة فى سن المراهقة ... سن الحب ومن المحزن ان يقع لها ذلك فى هذا الوقت، وبهذا العنف ! . مسكينة هذه البنية ! .

ونهض من مكانه ، وسمعت وقع خطاه فى الغرفة ..

قال :

ـ من المحزن حقا أن يحدث هذا فى الوقت الذى تم الاتفاق فيه على رحلة سويسرا .. وبعد ان اقنعت المسكينة نفسها بأنها يجب ان تشفى من اجلك لا من أجل نفسها .. سوف يكون رد الفعل رهيبا ، وهى لن تقنع بعد الآن الا بالشفاء الكامل ...

فما اثقل المسئولية التى حملناها ، وما أهولها

ولكن روح التمرد دبت فى جسدى فجأة ، واغضبنى أن استدرج واقحم فى هذه الامور رغم ارادتى ، انا الذى جئت الآن لاسترد حريتى ..

قلت له :

ـ اننى اقرك على هذا الراى ، فالمسئولية خطيرة وثقيلة ، ويجب أن نضع حدا لهذا الجنون فى اقرب وقت .. عليك ان تكون حازما وصريحا .. وأن تقول لها :

ـ ماذا أقول لها ؟

ـ قل لها ان هذا الافتتان ... أو هذه النزوة العارضة هى مجرد شعور صبيانى لا جذور له ... نعم ... يجب ان تقنعها بذلك ..

ـ اقنعها بماذا ؟ . بأن تتخلى عن الحب ؟ . هذا أسوأ واغبى ما يمكن عمله ... هل سمعت ان المنطق استطاع مرة ان يتغلب على العاطفة ؟؟ هل سمعت مرة انسانا يقول للحمى«لاتضطرمى» أو يقول للنار « لا تشتعلى » .. وهل من الرحمة ان تقول لفتاة مريضة كسيحة لا تخدعى نفسك ، فلن يسمح لك بالحب المباح للآخرين ، وليس من حقك ، وانت كسيحة ، ان تعبرى عن شعورك ، او ان تنتظرى من الآخرين أن يبادلوك هذاالشعور ... اذهبى الى ركن قصى وتخلى عن فكرة الحب ، فان الحب لم يوجد لامثالك ؟!

هل هذا ما تريدنى على ان اقوله للفتاة المسكينة ، وهل فكرت فى نتائج مثل هذه الخطوة المدمرة ؟؟

ـ اعتقد ان هذا شأنك أنت ..

ـ كيف ؟ . ألم تأخذ على عاتقك المسئولية كلها ؟ . لماذا تريدنى على أن اعفيك منها الآن ؟ .

ـ لأننى لا أستطيع أن أقول لها بنفسى أن ...

ـ ولا يجب ان تقول لها فليس من المنطق ولا من الرحمة ان تحيى آمالها اليوم وتميتها غدا !! لقد جنت بك فلا تتوقع ان يعود اليها الصواب بين يوم وليلة !! ان خير ماتفعله هو الا تنطق بكلمة واحدة ، او تأتى باشارة واحدة تشعر الفتاة المسكينة بأنك تمجها وتستنكر عواطفها اذا فعلت فأنك اهويت على راسها بفأس ..

فقلت بلسان متلعثم

ـ ولكن لابد لأحد ما ان يفتح عينيها لترى ...

ـ ترى ماذا ؟ هل لك ان تعبر عن وجهة نظرك فى وضوح ؟

ـ لترى ان هذه عاطفة عقيمة لا رجاء فيها

فصمت كوندور ، ثم مشى الى الجدار فجأة واضاء النور وهو يقول :

ـ الآن أستطيع أن اراك جيدا يا عزيزى الضابط .. ان من اليسير ان يتوارى الانسان فى الظلام ، ولكن من الخير فى بعض الحالات ان ينظر الناس فى عيون بعضهم بعضا ..

دعنا من اللف والدوران .. ولا تزعم انك انما جئت الى هنا خصيصا لتطلعني على رسالة الفتاة .. انك تخفي شيئا وراء هذا كله .. وأستطيع ان اقول لك دون ان أخشى الزلل ؟ ان لديك خطة محددة ، فاما ان تذكرها لى فى صراحة او تتفضل بالانصراف .

قال ذلك ونظر الى بعينين يتطاير منهما الشرر ، فاطرقت براسى ولم أجب ..

ثم استطرد قائلا :

ــ ان صمتك يثير ريبتى يا سيدى الضابط .. ولا يدل على انك طاهر الضمير .. ولكنى أستطيع ان أرى ما هنالك فى وضوح ، فهل فى نيتك ان تقطع صداقتك للفتاة بسبب هذه الرسالة ؟ .

ــ وصمت وانتظر ، ولكنى لم ارفع راسى ولم احر جوابا ..

سأل بلهجة المحقق :

ــ هل تعلم ماذا ستكون النتيجة اذا انسحبت بانتظام او بغير انتظام ؟ . هل تعلم ماذا ستكون النتيجة بعد ان أطحت بعقل الفتاة شفقتك الحمقاء ؟!

فلم أجب ..

قال :

ــ اذن دعنى أقول لك رأيى بصراحة فى مثل هذه السلوك ..

ان الفرار على هذا النحو يكون عملا من أعمال الجبن والنذالة .. كلا .. كلا .. دع الشرف العسكرى جانبا فلا شأن لى به .. ان حياة انسان وسعادته فى خطر ، وانا المسئول عن هذا الانسان ، فلا تنتظر منى أن اكون مهذبا .

دعنى أوضح لك بصراحة ، اذا كنت تخدع نفسك ، مدى المسئولية التى تقع على عاتقك اذا حاولت الفرار الآن .. ان الفرار فى مثل هذه الظروف الدقيقة يعد جريمة ضد هذه المخلوقة المسكينة ، جريمة قتل .

واقترب منى وقد قبض اصابع يده بشدة واستطرد :

ـ هل سمعتني ! . انه جـريمة قتـل .. قتـل .. وانت تعـلم ذلك جيـدا .

هل تتصور ان هذه الفتاة المتكبرة المفـرطة الحسـاسية تستطيع الحياة بعد ان تفتح مغاليق قلبها لاول مرة في حياتها للرجل الذى تحبه ، اذا ولى هذا الرجل الباسل الادبار في هلع وكأنه قد رأى الشيطان ! .

الم تقرأ رسالتها ؟ . أم انك بلا قلب على الاطلاق ؟ ! .

ان المراة الطبيعية السليمة لا تقوى على احتمال مثل هذه الاهانة ... وقد تفقدها قوة الصـدمة عقلها واتزانهـا لعـدة أعوام ، فما بالك بفتـاة عليلة تعيسـة تتعلق حيـاتها بالعـلاج الموهوم الذى لوحت لها به ؟؟

ان الصدمة اذا لم تقتلها ، فانها تقتـل نفسـها .. اؤكد لك انها ستفعل ذلك ... ان مخلوقة فى مثل حالتها اليائسة لايمكن ان تحتمل هذا الهوان .. وانت تعلم ذلك جيـدا كمـا اعلمـه يا سيدى الضـابط .. ولذلك فان فرارك لا يكون عملا من اعمال الضعف والجبن فحسب ،وانما يكون جريمة قتل بشعة متعمدة

***

وحينما ذكر كلمة (قتل) ، تمثلت سـور شرفة البـرج ، والفتاة المسكينة ممسكة بها ، وانا احاول اللحـاق بها قبـل ان تقذف نفسها من حالق ..

كنت أعلم ان كوندور لم يبالغ ، وان ذلك تماما ما ستفعله الفتاة ..

واستطرد كوندور قائلا :

ـ هل تنكر ذلك؟ والآن دعنا نرى شيئا من شجاعتك كجندى!!

ـ ولكن ماذا استطيع ان افعل يا سيدى الطبيب ؟ . ليس فى مقدورى ان ارغم نفسى على ... ليس فى مقدورى ان ارغم نفسى على ان اقول شيئا لا اعنيه .. كيف يمكن ان اشجعها على أوهامها ؟ كلا .. كلا .. لا استطيع ذلك ولا اريده ..

ولابد انني تكلمت بصوت مرتفع ، لانني شعرت على الفور بأصابع كوندور حول ساعدي

همس

تكلم في هدوء بحق السماء !!

واطفأ النور مرة أخرى واستطرد قائلا :

ـ ارى انني يجب أن أعاملك كما اعامل المرضى ... هدىء روعك وعد الى مقعدك.... تقول انك لا تستطيع ذلك ولا تريده، فما ذلك الذي لا تستطيعه ولا تريده ؟ اي شيء مخيف في غرام هذه الطفلة المسكينة بك ؟

فتاهبت للاجابة ، ولكنه مضى يقول :

ـ لا تتعجل .. واهم من ذلك لا تخجل ، انني افهم لماذا ينزعج الرجل اذا فوجىء بامرأة تصارحه بحبها ... المغرورون والحمقى وحدهم ، هم الذين يفخرون بانتصاراتهم مع النساء ، ويختالون عجبا بأنفسهم اذا صارحتهم امرأة بغرامها اما الرجل الرزين العاقل فانه يشعر بالانزعاج متى وجد انه لا يستطيع ان يبادل المرأة حبا بحب .. انني لا أفهم ذلك تماما .. ولكني الاحظ ان انزعاجك يتجاوز المألوف، فهل ذلك بسبب الظروف الخاصة؟

ـ اية ظروف ؟ ».

ـ ظروف اديث ... حسنا ، ساطرح عليك السؤال بصيغة خرى هل كساح الفتاة يثير نفورك ؟

ـ كلا ... ابدا ..

وكنت صادقا .. الم يكن عجزها ما جذبني اليها ؟ . الم يكن اشفاقي عليها في بعض الأحيان ارق من حنان العاشق ؟ ».

قلت مرة أخرى :

ـ كلا .. كلا .. كيف خطر لك امر كهذا ؟ .

ـ ذلك يطمئنني الى حد ما ، فان النفور الذي يحس به بعض الناس حيال المشوهين وذوى العاهات هو نفور غريزي لا يمكن السيطرة عليه ... وقد طابت نفسي الآن حين علمت ان عرج اديث في ذاته لا ينفرك ...

وفى هذه الحالة اظن ... هل اتكلم بصراحة ؟ »
ـ طبعا .
ـ وفى هذه الحالة أظن ان شعورك بالهلع والانزعاج ليس سببه العرج فى حد ذاته ، وانما سببه النتائج والتبعات ...
وبمعنى آخر ان وقوع الفتاة المسكينة فى غرامك لا يزعجك بقدر ما يزعجك الخوف من كلام الناس وسخريتهم .
والرأى عندى ان تهويلك لمتاعبك ليس فى الواقع الا نوعا من الخوف .. الخوف من أن تصبح اضحوكة فى نظر زملائك الضباط .

* * *

واحسست كما لو كان الرجل قد غرس فى قلبى ابرة طويلة حادة ...
ذلك لأننى ادركت بعقلى الباطن منذ وقت طويل كل هذا الذى قاله الآن .. ولكنى لم اكن أجرؤ حتى على مجرد التفكير فيه .

ـ نعم ... كنت اخشى منذ البداية أن يهزأ بى زملائى وأن يسخروا من الصلة الغريبة التى تربطنى بالفتاة الكسيحة فلطالما سخروا من كل ضابط شوهد مع امرأة دميمة ، وقد كان ذلك هو السبب الوحيد فى اننى رسمت خطا واضحا يفصل بين حياتى فى الفرقة وحياتى فى دنيا آل كسفالفا .

لقد اصاب كوندور كبد الحقيقة ، فاننى ما كدت اعرف بغرام الفتاة ، حتى شعرت بالخجل مما قد يظنه الآخرون ، كسفالفا ، وايلونا ، وجوزيف ، واصدقائى الضباط .. لا . لقد خجلت من نفسى ومن الشفقة التى تفعم قلبى .
ومضى كوندور يقول :
ـ كلا ، لا تخجل ، لأنه اذا كان هناك شخص يفهم مدى خوف الناس من كلام الناس وآرائهم فانا ذلك الشخص .
انك رأيت زوجتى ... أليس كذلك ؟ ..
لا أحد يدرك لماذا تزوجتها .... ان أى شىء فى الحياة يشذ عن المألوف يثير فضول الناس اولا ، ثم استنكارهم ثانيا .

وقد ذاع بين زملائي الاطباء على الفور ، انني اخطات في علاج زوجتي واضطررت أن اتزوجها خوفا من النتائج والتبعات ، بينما أشاع اصدقائي — سامحهم الله — انها تملك ثروة طائلة ، او تنتظر ميراثا ضخما ...

وأمي .. امي نفسها ، ظلت عامين كاملين ترفض مقابلتها ، لأنها أعدت لي زوجة أخرى وهي ابنة احد كبار الاساتذة الاخصائيين ولو انني تزوجتها لأصبحت استاذا في الجامعة ولعشت بقية حياتي سعيدا قرير العين ...

ولكني كنت أعلم أن زوجتي ستنهار تماما اذا تركتها .

كانت تؤمن بي ، وبي وحدي ، فلو انني سلبتها هذا الايمان ، لعجزت عن الاستمرار في الحياة ...

وأؤكد لك انني لم أندم قط على انني اخترتها ، لأن الطبيب ، من دون الناس جميعا ، قلما يكون طاهر الضمير .

ان في الدنيا بؤسا كثيرا . وليس في وسع الطبيب ان يخفف من الآلام البشرية الا قطرات من محيط ، وأولئك الذين يعتقد انه ردهم الى الصحة اليوم ، قد يصابون بالمرض غدا . صفوة القول ان الطبيب لا يتمالك من الشعور دائما بأنه اهمل ، اضف الى ذلك أخطاء المهنة التي لا سبيل الى اتقائها .. ولهذا يسعد الطبيب ان يعلم انه انقذ على الاقل شخصا واحدا .. وانه اتى على الأقل عملا واحدا طيبا ... وصدقني انه لا يوجد انبل من ان يضطلع الانسان بمهمة شاقة ، يعلم ان اضطلاعه بها سيهون الحياة على انسان آخر ...

***

تأثرت بصوته العميق المتهدج ، وشعرت بتلك العاطفة الملتهبة الطاغية تغمر قلبي : عاطفة الاشفاق على الفتاة المسكينة وهي في محنتها ...

وخشيت ان يجرفني هذا الشعور وقلت لنفسي :

— تجلد .. ولا تستسلم .

ورفعت راسي .. وقلت أحدث كوندور في حزم :

ـ ان كل انسان يعرف حدود قدرته يا سيدى الطبيب ، ولذلك ارجوك الا تسرف فى الاعتماد على ، ان أمر اديث موكول اليك ، لا الى ، وقد انزلقت الى هذا الموضوع أكثر مما قدرت فى البداية ، ولذلك اصارحك بأننى لست من طيب القلب وانكار الذات كما تتوهم ، لقد وصلت الى آخر جهدى ، ولن أستطيع قبول حب هذه الفتاة ، أو مجرد التظاهر بقبوله .

ان من الخير ان تفهم الموقف على حقيقته الآن بدلا من ان تصاب بخيبة أمل فيما بعد .. واقسم لك بشرفى كجندى اننى مخلص فى تحذيرى لك بألا تعتمد على ، أو تبالغ فى تقديرى .

ولابد اننى تكلمت بشدة وحزم ، لأن كوندور نظر الى فى حيرة وقال :

ـ يبدو لى انك اعتزمت أمرا ..

ثم وقف فجأة واستطرد :

ـ أريد الحقيقة ، لا نصفها ، فهل اتخذت خطوة لا يمكن الرجوع فيها ؟

فوقفت بدورى ، واجبت وأنا أقدم اليه كتاب الاستقالة :

ـ نعم ، خذ واقرأ ..

فتردد قليلا ، ونظر الى فى قلق ، ثم تناول الكتاب واقترب به من المصباح وراح يقرأه فى صمت وسكون ، ثم طواه وقال فى هدوء :

ـ اظن اننى اوضحت لك النتائج ، واننا اتفقنا على أن فرارك سيؤدى الى قتل الفتاة او انتحارها .... فهل تدرك ان استقالتك لا تعنى فقط انك تترك خدمة الجيش ، وانما تعنى كذلك الحكم بالاعدام على الفتاة المسكينة .

فلم اجب ..

قال :

ـ لقد القيت عليك سؤالا يا سيدى الضابط ، وهانذا اكرره .

هل تدرك نتائج عملك ، وهل تقبل مسئوليتها على ضميرك ؟

فلزمت الصمت ، وحينئذ دنا مني وقدم الى كتاب الاستقالة وهو يقول

ـ انني انفض يدي من الموضوع كله .. اليك كتاب الاستقالة ولكني لم أمد يدي ، ولم اقو على مواجهة نظراته .

قال :

ـ هل تنوي المضي ... في تنفيذ حكم الاعدام !

فأشحت بوجهي ، وعقدت يدي وراء ظهري، ففهم وقال:

ـ هل امزقها ؟

فأجبته :

ـ نعم ..

فمزق كتاب الاستقالة ، والقى به في سلة المهملات ، ثم عاد الى وهو يقول :

ـ اعتقد اننا منعنا حدوث مأساة كبرى .. نعم ، مأساة كبرى .. والآن ، هلم الى العمل ، أعتقد انني اصبحت أعرفك حق المعرفة بعد اتصالي بك في هذا الموضوع .. وليس بوسعي ان ابالغ في اطرائك كما يفعل كسفالفا ، ولا أن أردد قوله عنك انك انسان طيب الى أبعد حد ، ولكني أظن انه على الرغم من عدم استقرارك عاطفيا، فانه يمكن الاعتماد عليك الى حد ما .

انني سعيد لانني استطعت افساد خطتك الخرقاء ولكني لا أشعر بالارتياح الى تعجلك في اتخاذ القرارات ، ثم عدولك عنها ، ومن كان مثلك عبدا لأهوائه ونزواته لاينبغي أن يضطلع بمسئوليات كبيرة .. انك آخر من استطيع الاعتماد عليه في مهمة تتطلب المثابرة والقرارات الحازمة .

والآن ، اصغ الى ، انني لن اطالبك بالكثير ، وسأقتصر على الضروري والضروري جدا .

لقد اقنعنا اديث بتجربة العلاج الجديد ، أو على الاصح ، العلاج الذي تعتقد انه جديد ، ولأجلك قررت أن تذهب بعيدا ، وأن تقضي في سويسرا بضعة شهور .. ورحلتها ـ كما تعلم ـ ستبدأ بعد أسبوع .

انني سأحتاج الى معونتك خلال هذا الاسبوع ، وأؤكد لك ـ

لكى تطمئن بالا – بأن حاجتى الى معونتك لن تتجاوز هذا الاسبوع .. وكل ما أطالبك به ، هو ان تعدنى بألا تقدم على اى عمل طائش خلال الايام السابقة على الرحيل ، وبألا تشعر الفتاة سواء بالقول او بالاشارة . بأنك متبرم بها ، زاهد فى حبها .

هذا كل ما أطالبك به فى الوقت الحاضر ، واظن أن اسبوعا واحدا من ضبط النفس ، هو مطلب متواضع حتى اذا كان الامر يتصل بحياة انسان .

– هذا صحيح .. ولكن ماذا سنفعل فيما بعد ؟

– دعنا لا نفكر فى ذلك فى الوقت الحاضر ، اننى عندما اقوم بجراحة لازالة خراج ، لا اضيع الوقت فى التفكير فيها اذا كان هذا الخراج سيعود للظهور بعد شهر أو شهرين وعندما ادعى لمساعدة انسان ، اجد ان واجبى ينحصر فى شيء واحد .. هو ان أعمل بلا تردد .. ذلك هو السلوك الوحيد السليم ، لأنه السلوك الانسانى الوحيد .. وكل ما عدا ذلك متروك للعناية الالهية .

ان اى شيء يمكن أن يحدث خلال بضعة شهور .. فربما تتحسن حالها فعلا بأسرع مما نظن ، وربما تفتر عاطفتها نحوك .. ليس فى مقدورى أن أتنبأ بجميع الاحتمالات ، ويحسن بك انت أيضا الا تحاول ذلك .. وعليك أن تركز جهودك خلال الفترة الحاسمة المقبلة على عدم اشعارها من قريب أو بعيد أنك تضيق بحبها لك .

قل لنفسك باستمرار بعد أسبوع ، بعد ستة ايام ، بعد خمسة ايام .. الخ يتم لى انقاذ حياة انسان ، يجب الا اضايق او ازعج أو اخدش شعور هذا الانسان ..

اسبوع واحد فقط من الصبر والحزم والرجولة !! فهل أستطيع الاعتماد عليك ؟

– نعم ..

واثلج صدرى أن أعلم أن هناك حدودا لمهمتى ، فقلت مؤكدا :

– نعم ، بغير شك

فتنهد كوندور بارتياح وقال :

– شكرا لله على ذلك ، الآن استطيع أن اقول لك كم كنت

منزعجا ، أنا واثق أن اديث ما كانت لتحتمل الصدمة لو انك قابلت اعترافها بالفرار ، ان الايام القلائل المقبلة هي اهم فترة .. فدعنا نمنح الفتاة المسكينة السعادة لبضعة ايام ، لأسبوع واحد .

ـ سنفعل ذلك .

ـ الآن اظن اننا اتفقنا على كل شيء .. فهلم بنا الى حيث تنتظرنا زوجتي ..

ولكنه لم ينهض واقفا ، ولاحظت أن هناك شكا يخامره .

استطرد قائلا بصوت خافت :

ـ شيء آخر ، لقد تعودنا نحن الاطباء على ان نتأهب لكافة الطوارىء والاحتمالات ، فاذا حدث خلال هذا الاسبوع ما ليس في الحسبان كأن تخونك شجاعتك او تثور شكوك اديث ، مما قد يؤدى الى ازمة ، فيجب أن تخطرنى فورا ..

ولا ينبغي مهما كانت الظروف والاحوال . أن تتعرض الفتاة لأية صدمة فجائية خلال الفترة الحاسمة المقبلة .. واذا شعرت بعجزك عن اداء مهمتك ، او كشفت للفتاة عن حقيقة شعورك بكلمة أو اشارة غير مقصودة . فلا تخجل ، واتصل بي في اية ساعة من الليل او النهار . وستجدنى دائما على استعداد لمعاونتك .. لأننى أدرك خطورة النتائج .

والآن هلم بنا ، لقد أطلنا الحديث واخشى أن تكون زوجتى قد قلقت .. انها تقلق لأتفه الاسباب .. شأنها فى ذلك شأن جميع من صدمتهم الحياة ، ونكتهم الاقدار .

***

وامسك بيدى ، وقادنى الى خارج الغرفة ..

وكان النور يسطع فى الردهة ، فرأيت وجهه مليا ، وهالنى تجعده وامتقاعه ، ودلائل التعب والاجهاد التى تبدو فى قسماته .

كان من الواضح أن الرجل يعطى من نفسه الكثير للآخرين ولم اتمالك من أن انظر اليه فى اكبار واجلال .

ويبدو انه لاحظ ذلك ، فابتسم وقال :

ـ كان جميلا ان تأتى ، وأن تبحث الموضوع مليا . تصور ما كان يمكن أن يحدث لو انك ركبت رأسك وهربت من المشكلة

دون تفكير في العواقب ؟ اكبر ظني انك ما كنت لتنجو من عذاب الضمير بقية حياتك .. فالانسان يستطيع ان يفر من كل شيء الا من نفسه .. تعال أيها الصديق العزيز ..»

وكان في صوته ، وهو يدعوني صديقه العزيز ، حرارة هزت وجداني .

كان يعلم كيف كنت ضعيفا وجبانا ، ومع ذلك لم يحتقرني ! واستطاع ، وهو الشيخ المجرب ، أن يرد على بهذه الكلمات البسيطة . الثقة التي فقدتها .

***

وفتح كوندور باب الغرفة المقابلة . وكانت زوجته جالسة الى مائدة صغيرة ، وبيدها شيء تطرزه ، وكان من المستحيل على من يرى حركة أصابعها أن يظن أنها أصابع امرأة كفيفة .

قال كوندور بذلك الصوت الرقيق الذي يتحدث به دائما اليها :

ـ ها نحن قد جئنا أيتها العزيزة كلارا .. أنت لاتعلمين كم تسرني قدوم هذا الصديق العزيز .. يجب أن أقول لك بهذه المناسبة ، انه من ضباط الحامية في المدينة التي يقيم بها آل كسفالفا .. الا تذكرين مريضتي الصغيرة !!

ـ آه .. هل تعني تلك الصبية الكسيحة المسكينة ؟

ـ نعم ، انني أتلقى أنباءها من هذا الصديق العزيز ، فهو يزورها كل يوم تقريبا ليرفه عنها ويدخل السرور على نفسها .

فحولت السيدة الضريرة وجهها نحوي وهتفت :

ـ ما أنبلك يا سيدي الضابط !! انني استطيع ان اتصور مدى ارتياحها وسعادتها .

فقال كوندور :

ـ وارتياحي أنا أيضا ، فلولاه لاضطررت الى زيارتها بنفسي لأشجعها واطمئنها .. وقد علمت ببالغ السرور ان الملازم هوفميلر سيتردد عليها ويراقبها طيلة الاسبوع القادم حتى ترحل الى سويسرا .. انها قوية الشكيمة الى حد ما ، ولكنه يعرف كيف يسوسها وانى اعتمد عليه اكثر مما استطيع الاعتماد على احد من زملائي .

فادركت انه يريد الحصول منى على وعد امام زوجته ، واجبت على الفور :

ـ لا شك انك تستطيع الاعتماد على يا سيدى الطبيب ، ساذهب لزيارتها كل يوم ، وساتصل بك اذا اقتضت الضرورة ..

وقالت الزوجة :

ـ انني لم أعتذر لك بعد يا سيدى الضابط .. واخشى ان اكون قد استقبلتك بشيء من الجفاء ، ولكنه خطأ تلك الفتاة الغبية التي لم تنبئني بوجودك .

ـ بل يخيل الى انك كنت على حق يا سيدتى العزيزة فان زوجك يعطى من نفسه اكثر مما ينبغي .

فصاحت بحدة ، وهي تدنو بمقعدها منى :

ـ انه يعطى كل شيء .. وقته واعصابه وماله .. الجميع يستغلونه واني عاجزة عن حمل بعض مسئولياته .. ليتك تعلم مبلغ قلقى عليه .. انني اقول لنفسى طول اليوم انه لم يتناول طعاما .. انه الآن في القطار .. انه في الترام .

ان وقته يتسع لكل انسان الا نفسه .. انه بحاجة الى من يحد من نشاطه .. فالانسان لا يستطيع مساعدة الناس جميعا .

فقال كوندور :

ـ ولكن على الانسان ان يحاول .

وسمعت السيدة حركة مقعدى وانا اهم بالوقوف . فهتفت بصوت ينم عن الاسف :

ـ أيجب أن تذهب حقا ؟ هذا امر يؤسف له . ولكنك ستاتى لزيارتنا مرة اخرى .. أليس كذلك ؟

***

سألت نفسي في عجب : ماذا يحمل جميع الناس على الثقة بي والاطمئنان الى ؟

ماذا يحمل هذه السيدة مثلا على أن ترفع الى عينيها المكفوفتين ووجهها مشرق بالابتسام ؟

وماذا يحمل هذا الرجل ـ وهو الغريب عنى ـ علام يحيطنى بساعده في مودة واخلاص ؟

وهبطت السلم وانا لا ادرى لماذا جئت الى هذا البيت منذ ساعة ..

هل جئت لأن الكولونل العجوز اسرف في تعنيفي ؟ أم جئت لأن فتاة كسيحة مسكينة وقعت في غرامي واصبحت لا تجد السلوى والعزاء الا في قربها مني ؟

وبعد ، أليست القدرة على مساعدة الآخرين هي اجمل شيء في الوجود ؟

لقد تعلمت ذلك اليوم فقط ، ولذلك سأفعل اليوم باختياري ما كنت اعتبره امس تضحية كبرى لا قبل لي بها ، فأعبر عن امتناني لفتاة مريضة ، على حبها العظيم لي ..

***

لقد حدد كوندور مهمتي باسبوع واحد ، فاشعرني هذا التحديد بالطمأنينة ، ورد على ثقتي بنفسه ..

شيء واحد كنت أشفق منه واحسب له ألف حساب .

كنت أشفق من اللحظة الاولى في اول لقاء بيني وبين اديث بعد ان اعترفت لي بحبها .

كان من المستحيل ان يخلو هذا اللقاء من بواعث الحرج ، فهناك اولا القبلة الملتهبة التي طبعتها على شفتي في ذلك اليوم المشئوم ، ثم هناك نظراتها التي سوف تسألني هل غفرت لي ؟ الا تستطيع أن تبادلني الحب ؟!

ستكون اللحظة الاولى ، حين تنظر الى ووجهها مضرج خجلا ، لحظة حاسمة مفعمة بالاخطار ، لأن كلمة واحدة طائشة ، أو حركة واحدة غير مقصودة ، قد تميط اللثام عن الحقيقة المؤلمة التي احرص على كتمانها ، فتصاب الفتاة بالصدمة الفجائية التي حذرني كوندور من عواقبها .

واذا مرت هذه اللحظة بسلام ، كتبت لي ولها السلامة والنجاة

***

على أنني ماكدت ادخل القصر في اليوم التالي حتى ادركت ان اديث قد راودتها نفس مخاوفي وانها اشفقت من اجتماعنا على انفراد

فى أول لقاء قدعت بعض صديقاتها لزيارتها فى نفس الوقت الذى تعودت أن تقضيه معى على انفراد .

فلما اقتربت من قاعة الاستقبال ، سمعت اصوات سيدات ثم اقبلت ايلونا (بايحاء اديث او من تلقاء نفسها ، لا أدرى) فرحبت بى فى حماسة غير مالوفة ، وقدمتنى الى زوجة مدير بوليس المدينة وابنتها .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى قاعة الطعام ، حيث تناولنا الشاى ، وكانت اديث تتشاغل طول الوقت بالحديث مع زوجة مدير البوليس . وقد شعرت مرة او مرتين بنظراتها تطوف بوجهى ، ولكنى تعمدت الا انظر اليها حتى لا تلتقى عيوننا .

واخيرا نهضت الضيفتان للانصراف . وارادت ايلونا أن تجنبنا الحرج ، فعمدت الى حيلة سريعة بارعة ..

قالت :

ـ سأرافق السيدتين الى الباب وفى استطاعتكما أن تلعبا الشطرنج حتى اعود . هناك بعض شئون خاصة بالسفر سأفرغ منها خلال ساعة ، ومن ثم أنضم اليكما .

فسألت اديث فى هدوء :

ـ هل ترغبين فى لعب الشطرنج ؟

فأجابت وهى مطرقة برأسها :

ـ اننى أحب هذه اللعبة .

وظلت تنظر الى حجرها .

فنهضت من مكانى ، واحضرت الشطرنج ، وشرعت فى وضع القطع فى أماكنها على الرقعة .. وفعلت ذلك ببطء وتؤدة ، كسبا للوقت .

وبدأنا اللعب دون أن ننطق بكلمة واحدة . وكأنما كان بيننا اتفاق على تجنب الكلام ..

وتركز كل تفكيرنا فى رقعة الشطرنج ، وفى القطع الاربع والستين التى تتحرك فوقها ، واستغرقنا فى اللعب استغراق أساتذة الفن الذين ينسون كل شىء حولهم ، ويتصرفون بكل حواسهم الى اللعب .

ولكن اللعبة ما لبثت أن فضحتنا ، فانهارت اديث تماما ، وارتكبت عدة أخطاء فى اللعب ، ولاحظت من اضطراب أصابعها وتشنجها ، أنها لم تعد تحتمل وطأة الصمت والتوتر .

وفى وسط الشوط الثالث ، دفعت الرقعة بعيدا وقالت :

ـ كفى !! اعطنى لفافة تبغ .

فقدمت اليها علبة السجائر . واشعلت عود ثقاب وحينئذ لم استطع أن اتجنب نظرتها .

كانت عيناها تحملقان الى الامام ، ولكنهما لاتنظران الى ، ولا الى أى شىء بعينه ، فقد تجمدت الحدقتان فى محجريهما غضبا ، وحملقتا فى الفضاء بينما تقوس الحاجبان فوقهما وراحا يختلجان .

وشعرت بالعاصفة المقبلة . فهذه علاماتها التى لاتخطىء .

قلت لها فى جذع :

ـ كلا .. كلا .. ارجوك .

ولكنها اعتدلت فى مقعدها ، ومرت بجسدها رعدة ، وراحت تغرس اظافرها بعنف فى جانبى المقعد .

وقلت لها متوسلا مرة أخرى :

ـ كلا .. أرجوك .

ولم يسعفنى لسانى وفكرى بغير هذا الرجاء ، ولكن الدموع كانت قد تفجرت من عينيها وراحت تسيل على وجنتيها ، ولم تقترن الدموع بأنين ونشيج ولكنه كان بكاء صامتا ، ودموعا هادئة اخجلتها غير أنها لم تقو على ضبطها .

قلت لها ضارعا :

ـ كلا .. كلا .. اتوسل اليك .

وانحنيت فوقها ، ووضعت يدى على ساعدها لأهنئها ، ولكن هذه اللمسة كانت أشبه بتيار كهربائى سرى من ساعدها الى كتفها . ثم انتقل من كتفها الى سائر جسمها .

وفجأة سكنت تشنجاتها ، وتصلبت اعضاؤها ، وكفت عن الحركة ، وبدت كأن جسدها كله قد تحفز وحواسها جميعا قد انتفضت لتعرف معنى هذه اللمسة ، وهل هى علامة حب أو علامة عطف وشفقة .

كانت لحظة انتظار رهيبة تلك اللحظة التى سكن فيها جسدها؛ وهو يحاول بكل عصب من اعصابه وكل حاسة من حواسه أن يستشف معنى تلك اللمسة ..

ولم اجد الشجاعة لسحب اليد التى أحدثت هذه المعجزة وأسكتت عاصفة الدموع ، وفى الوقت نفسه لم اجد القدرة على أن ارغم اصابعى على الطواف بجسدها الملتهب وتدليله على النحو الذى احسست بأن جميع حواسها تتلهف شوقا اليه .

وهكذا تركت يدى على ساعدها ، وكأنها ليست جزءا منى ؟ وخيل الى ان كل ما فى جسدها من دماء انحدرت دافئة متدفقة الى البقعة التى استقرت عليها يدى .

ولا ادرى كم انقضى من الوقت ويدى فوق ساعدها ، فقد توقف الزمن خلال هذه الفترة كما توقف الهواء فى الغرفة ، ثم شعرت بتصلب طفيف فى عضلاتها ، وامتدت يدها اليمنى الى يدى ، وسحبتها فى رفق الى موضع القلب من صدرها ، ثم اطبقت عليها بيدها اليسرى فى حياء شديد .. وبدأت يداها الرقيقتان تناجيان يدى الخشنة الغليظة ، وجعلت اناملها تطوف براحة يدى فى رقة النسيم ، ثم تتحرك عليها من المرفق الى الانامل ، وتتحسس شكل كل اصبع ، وكل مفصل فى الاصبع ، ثم تتسلل الى المرفق مرة أخرى ، عن طريق الشرايين النافرة فى يدى ، كل ذلك فى رقة بالغة لم تعنف قط الى حد الامساك بيدى وضغطها .

وخيل الى انها شعرت حين استولت على يدى ، ذلك الجزء الصغير من جسدى ، بأنها استولت على الجسد كله ، لأنها لم تلبث أن استرخت فى مقعدها ، كأنما لتستمتع بلذة تدليل يدى ، واغمضت عينيها ، وانفرجت شفتاها قليلا ، وأشرق وجهها بنضارة وسكينة وهناء لم ار لمزيجها مثيلا على وجه انسان من قبل .

كل ذلك وأصابعها لاتكف عن الطواف بيدى من المرفق الى الانامل ، وهى جد سعيدة هانئة بأننى سمحت لها اخيرا بجزء من جسدى تناجيه وتدلله وتهمس له بحبها العظيم

***

ولا أعلم كم استمر ذلك كله فان هذا النوع من التجرب

لايقدر بمقاييس الزمن العادية ، ولقد احدث هذا التدليل الصامت البرىء فى نفسى من التأثير ما لم تحدثه قبلتها الملتهبة المجنونة الاولى .. ولا اية قبلة من اية امراة اخرى ، بل لقد فعل بحواسى فعل المخدرات .

كل ذلك وانا مازلت لا أجد القدرة على سحب يدى .

وتذكرت كلماتها : « كل ما أطالبك به ، هو أن تسمح لى بأن أحبك » .

وهأنذا أسمح لها ، وانا مسلوب الارادة ، عاجز عن الدفاع ، بل وعن الحركة .

***

ولكنى لم البث أن ضقت بهذا الجمود ، لا لأن لمساتها وتدليلها والحب الذى يتفجر من جسدها ، ويسيل من اصابعها ازعجنى وضايقنى ، وانما لأن وجود يدى على ساعدها بلا حركة كأنها ليست جزءا منى ، وكأن هذا الشخص الذى يدللها لا اهمية له فى حياتى .
كل ذلك كان عذابا لى اى عذاب .

كنت اعلم فى قرارة نفسى ان هذا الحب وهذه المناجاة يجب أن يكون لهما صدى ، اما بالاستجابة أو بالصد . ولكن لم تكن لدى القوة لكى افعل هذا او ذاك .. وشعرت بضرورة انهاء هذه اللعبة الخطرة على وجه السرعة ، واخذت اخلص يدى من قبضتها الرقيقة فى بطء وهدوء . وبطريقة رجوت الا تلحظها اديث ، ولكنها لاحظتها بحساسيتها المفرطة ، ولاحظتها من اول حركة بدرت من يدى ، وفى الحال ، وبحركة فجائية ، تراخت أصابعها ، وافلتت يدى ..

وقبل ان أسترد يدى ، كان وجهها قد تجهم ، وبدأت شفتاها ترتجفان كما ترتجف شفتى الطفل حين يهم بالبكاء فهمست قائلا :

ــ كلا .. كلا .. ان ايلونا قد تاتى فى اية لحظة ..

كان ذلك هو كل ما استطعت أن أقوله ، ولكن هذه الكلمات لم تزدها الا ارتجافا ، فأخذتنى الشفقة بها ، وانحنيت فوقها ، وطبعت على جبينها قبلة سريعة .

بيد انها رمقتنى على الفور بنظرة صارمة باردة ،.. نظرة خيل الى انها وصلت الى قرارة نفسى ، وقرات مايدور بخلدى ..

وادركت على الفور انها من شدة الحساسية ونفاذ البصيرة بحيث يستحيل على خداعها . وانها قد فهمت حين سحبت يدى من يدها ، اننى انما اريد ان أنأى بنفسى عنها ، وان هذه القبلة السريعة التى طبعتها على جبينها ليست دليلا على الحب ، ولكنها قبلة ارتباك واشفاق ..

***

ان الخطأ الخطير الذى ارتكبته فى ذلك اليوم والايام التالية ، الخطأ الذى لا يمكن اصلاحه او اغتفاره . هو اننى عجزت رغم الجهود التى بذلتها ، عن أن أعبىء كل ما عندى من صبر وقوة فى محاولة أخيرة لاخفاء حقيقة شعورى . فعبثا صممت على الا أقول كلمة أو أبدى اشارة تشعرها بأننى زاهد فى حبها ، وعبثا استرجعت فى ذهنى تحذير كوندور من النتائج الخطيرة والمسئوليات الجسيمة التى قد تترتب على خدش شعور هذه المخلوقة البائسة ، وعبثا قلت لنفسى : حاول أن تكون طبيعيا ، وضع فى صوتك بعض الحرارة وفى لمساتك بعض العطف والحنان..

ذلك لأن الجو بين الرجل ، والمراة التى باحت له بحبها ، يظل دائما مشحونا بتوتر خطير غريب . ولعل من اهم مايمتاز به اولئك الذين يحبون ، تلك البصيرة الحادة التى تنفذ الى اعماق الشخص المحبوب لتقرا ادق افكاره ، وتحيط بكل خلجات نفسه ، ولا بد أن تصرفاتى واقوالى كان فيها من الاضطراب والافتعال ما لم يغب عن فطنة اديث أو يخدع حواسها المرهفة ، خاصة واننى لم افعل الشىء الوحيد الذى كانت تترقبه ، وهو ان ابادلها الحب ..

وكان يحدث فى بعض الاحيان ، وأنا منهمك فى الحديث ، وبى رغبة صادقة فى اكتساب ثقتها ، أن ترمينى بنظرة حادة ثاقبة ، ترغمنى على ان اطرق براسى وتشعرنى بأنها قد سبرت اغوار نفسى .

***

واستمر الحال كذلك طيلة ثلاثة أيام كانت كلها عذابا لى ولها كنت أحس طول الوقت بما فى عينهاوصمتها من ترقب وانتظار وفى اليوم الرابع بدات ارى فى سلوكها شيئا من العداء والتحدى ، لم أجد له تعليلا ..

وكنت قد ذهبت اليها فى ذلك اليوم ، ومعى باقة من الورود ، فتناولت الباقة من يدى ، ووضعتها جانبا فى غير مبالاة ، ودون أن تنظر اليها .. وكأنما لتشعرنى بأننى لن أستطيع تخديرها بالهدايا .. وقالت بشىء من الازدراء :

ــ يا الهى .. ما أجمل هذه الورود !!
ثم لاذت بالصمت ..

وحاولت أن أدخل السرورعلىنفسها ببعض الاحاديث المرحة، ولكنها أصرت على الجفاء والقطيعة ولم تكن تزيد على قولها : « أحقا تقول !! » « ما أعجب هذا .. »

كان من الواضح أنها تتعمد أن توحى الى بأن احاديثى تضجرها .. كذلك كانت تتعمد التظاهر بعدم الاكتراث ، فتتناول أحد الكتب وتتصفحه ثم تلقى به ، وتتناول شيئا آخر ، أو تتثاءب ، أو تقطع حديثى بأن تدعو اليها جوزيف لتسأله هلوضع معطفها الجديد فى الحقيبة استعدادا للسفر ، ثم تتحول الى وتسألنى فى فتور :

« ماذا كنت تحكى ؟؟ » تقولها ببرود وبلهجة من يريد أن يستطرد : « سيان عندى أى شىء تقوله » .

واخيرا شعرت بأن صبرى يوشك أن ينفد ، وبأن مقاومتى توشك أن تتلاشى ، وارسلت بصرى الى الباب متمنيا قدوم أيلونا او كسفالفا أو أى انسان آخر يخرجنى من هذا المأزق .

ولكن حتى هذه النظرة لم تفتها فسألتنى فى رفق ولكن بلهجة ساخرة :

ـ هل تبحث عن شيء ؟

ولا شك ان خير ما كان يجب عمله فى هذا الموقف، هو أن أقبل التحدى واصرخ فى وجهها قائلا :

ـ ماذا تريدين منى ؟ ولماذا تعذبيننى هكذا ؟ اذا كنت لاتريديننى هنا فدعينى أذهب .

بيد اننى وعدت كوندور بألا أقول لها شيئا يصدمها ، أو يؤدى الى مناقشة بينى وبينها .

ولكنى بدلاً من أن الوذ بالصمت . كنت من الحماقة بحيث مضيت فى حديثى زهاء ساعتين . فى جو مشحون بالتوتر ، الى أن جاء كسفالفا أخيرا ليدعونا لتناول العشاء .

وجلسنا حول المائدة ، واتخذت اديث مكانها أمامى . ولكنها لم ترفع رأسها . ولم تتحدث الى أحد منا ، حتى شعرنا جميعا بثقل وطأة صمتها وعنادها .

وحاولت أن الطف الجو وابدد الوجوم ببعض الاحاديث المرحة .. حدثتهم عن الكولونل وكيف يصاب فى شهر يونية ويولية كل عام بنوبة مناورات وكيف يزداد توتر أعصابه كلما اقترب موعد هذه المناورات . ثم حكيت لهم بعض طرائفه ، فضحك كسفالفا ، وضحكت أيلونا . وكانت ضحكاتهما محاولة واضحة لتغطية صمت أديث ، التى راحت تتثاءب وتتململ فى مكانها ..

قلت لنفسى : استمر فى الحديث عسى ان تتمكن آخر الامر من حملها على الكلام .

وتحدثت عن المتاعب التى نلقاها من وهج الشمس وحرارة الصيف ، وقسوة التدريبات ، وقلت ان اثنين من الجنود اصيبا أمس بضربة الشمس .. ولكن ذلك لم يزد الكولونل الا اصرارا على مواصلة التدريب اطول وقت ممكن حتى اصبحنا لا نعلم متى يمكن أن ننصرف من الطابور .

ثم استطردت قائلا أننى استطعت الافلات اليوم بصعوبة لكى اصل الى القصر فى الوقت المناسب ، وأن الله وحده يعلم ما اذا كنت سأستطيع ذلك غدا .

كانت هذه ملاحظة عابرة بريئة لاينبغى أن تضايق احدا . وكنت أوجه الحديث الى كسفالفا دون ان انظر الى اديث ، ولكن هذه القت ملعقتها فجأة وصاحت بى :

ـ اذا كان يضايقك الى هذا الحد ان تأتى لزيارتنا . فيحسن بك أن تلزم ثكنتك أو مقهاك .. اننا نستطيع الحياة بدونك .

فذهلنا جميعا وحبسنا انفاسنا كما لو كنا قد فوجئنـــا بطلق نارى من النافذة .

وغمغم كسفالفا وهو يبلل شفتيه الجافتين :

ـ اديث !!

ولكنها اعتدلت فى مقعدها ، واستطردت قائلة فى سخرية :

ـ ان الانسان لايتمالك من الشعور بالاسف لشخص يمر بمثل هذا الوقت العصيب .. أنا شخصيا لا امانع فى منحه أجازة .

فتبادل كسفالفا وايلونا نظرة تنم عن الاسى والاستنكار ، ولاحظت من نظراتهما القلقة الى ، أنهما يخشيان أن أقابل الخشونة بمثلها .

ولكنى بذلت جهدا كبيرا للسيطرة على مشاعرى ، وقلت فى ادب :

ـ يبدو أنك على حق يا اديث .. ان الشخص المتعب المكدود لاتطيب صحبته لأحد ، ولقد شعرت طول الوقت بأننى أضايقك

واسمك ، ولكنى أرجو أن تفسحى صدرك لشخص مثقل بالمتاعب بضعة أيام أخرى وعما قريب ترحلون فلا أعود الى مضايقتك .. والواقع انه لم يبق سوى أربعة ايام ، أو على الاصح ثلاثة أيام ونصف ثم ..

ولكنها قاطعتنى بضحكة ثاقبة تفجرت من شفتيها كالزئير وصاحت :

ـ هل سمعتم ؟! ثلاثة أيام ونصف يوم ؟؟ انه يحصى الايام والساعات انتظارا للحظة الخلاص منا .. ومن يدرى فلعله اشترى تقويما وراح يضع علامة حمراء على كل يوم يمر .. ولكن يحسن بك ان تكون على حذر ياصديقى فان بعض الناس قد يكون لهم حساب آخر ها ها ثلاثة أيام ونصف ثلاثة ايام ونصف .. ونصف .

واستمرت تضحك وهى ترتجف ، ضحكة اقرب الى الهستيريا منها الى المرح .

وشعرت بأنها تود لو تثب من مقعدها ، ولكنها كانت مشدودة اليه ، وليس الى الوثوب من سبيل .

وأضفى هذا العجز على غضبها شيئا من الوحشية فكانت اشبه بحيوان حبيس فى قفص .

وشحب وجه أيلونا وهمست :

ـ صبرا لحظة .. سأدعو جوزيف .

كانت قد ألفت من خبرة السنين ، نزوات أديث وطباعها وحركاتها ، وعرفت ماذا سيكون بعد هذه الضحكة الهستيرية .

وخف كسفالفا الى ابنته ، ولكن لم يكن هناك ما يدعوه الى الجزع ، اذ ما كاد جوزيف يدخل الغرفة مهرولا حتى انتهت الأزمة ، وخرجت اديث فى هدوء برفقة أبيها وجوزيف ، دون ان توجه اى كلمة وداع أو اعتذار .

وبقيت وحدى مع أيلونا ، وشعرت كأنى انسان سقط من طائرة

ونهض واقفا على قدميه وهو مذهول مضعضع الحواس ، لا يدرى ماذا حدث ..
وهمست أيلونا قائلة :

ـ حاول ان تفهمها .. انها لا يغمض لها جفن طول الليل .
وفكرة الرحيل تزعجها وتسمم حياتها ، وأنت لا تعلم ما
ـ بل أعلم كل شيء يا أيلونا .. ولهذا ساحضر أيضا غدا .

***

« اثبت .. ولا تتراجع » .
هذا ما كنت اتحدث به الى نفسي وانا فى طريقى الى الثكنة .
« نعم .. اثبت مهما كانت الظروف ، انك وعدت كوندور بذلك واقسمت بشرفك .. لا تدع هذه التوبات العصبية تفت فى عضدك ، وتذكر ان هذا العداء ليس الا مظهرا من مظاهر يأس انسان يحبك .

« اثبت جيدا حتى آخر لحظة .. لم يبق سوى ثلاثة أيام ونصف تستريح بعدها بضعة شهور .. فصبرا .. صبرا .. لقد وصلت الى المرحلة الأخيرة ، فلا تتراجع »

لقد كان كوندور على حق .. فليس ما يرعب الانسان ويخيفه كالأمور المطلقة التى لا نهاية لها ولا حدود .. أما الامور الواضحة المعالم ، المعروفة الحدود ، فانها تعد تحديا لقوانا ، ومقياسا لقدراتنا ..

***

اديت واجباتى فى اليوم التالى كأحسن ما يكون الأداء ، ولشد ما كانت دهشتى حينما خرج الكولونل عن مألوف عادته وقال لى :
ـ احسنت ..

ولكنه صب جام غضبه فى هذه المرة على صديقى شتاينهوبل .

ويبدو أن شتاينهوبل ، وهو من أبرع فرسان الفرقة واعظمهم خبرة بالجياد ، اقول يبدو انه اشترى فى اليوم السابق جوادا جديدا واهمل فى تدريبه اعتمادا على مقدرته الشخصية .. ثم حدث ، بينما كان الكولونل يتفقد الصفوف ، أن رأى الجواد ظل طائر يحلق فى الفضاء فأجفل ونهض على ساقيه الخلفيتين ، ولولا يقظة شتاينهوبل وبراعته لألقاه الجواد أرضا .

وكانت هذه هى الفرصة التى يترقبها الكولونل لاطلاق العنان لغضبه ..

* * *

ودار الحديث بين الضباط فى قاعة الطعام عن حادث الجواد ، واقسم شتاينهوبل ليجعلن منه خير جواد فى الفرقة كلها .

واننا نتناول الطعام ، ونسخر من شتاينهوبل وجواده اذا بأحد الجنود يهمس فى اذنى بأننى مطلوب فى التليفون .

ووثبت من مكانى فى قلق ، فان الرسائل والبرقيات والمحادثات التليفونية لم تحمل الى فى المدة الأخيرة سوى المتاعب .

ترى ماذا تريد منى الآن ؟. اتراها آسفة على ما بدر منها ؟.

وأوصدت باب كشك التليفون جيدا كأنما لأقطع كل اتصال بين الدنيتين اللتين أعيش فيهما .

كانت المتكلمة هى أيلونا ..

قالت :

ـ أردت فقط أن أقول لك انه يحسن بك الا تأتى اليوم .. فان اديث ....

ـ ماذا بها ؟ . ارجو الا يكون أصابها سوء ؟ .

ـ كلا .. ولكنى اعتقد أن من الأفضل أن ندعها تستريح اليوم .. ثم أن يوما ...

وصمتت وقتا طويلا ، ثم استطردت :

ـ ان يوما واحدا لن يقدم الآن أو يؤخر .. لأننا اضطررنا الى ارجاء السفر ..
فصحت فى ذعر :

ـ ارجاء السفر ؟ .
ـ نعم .. لبضعة أيام فقط ، سوف نتحدث فى ذلك غدا أو بعد غد ، وربما اتصلت بك تليفونيا مرة أخـرى .. لا تأت اليوم اذن .. أتمنى لك أطيب الأمسيات والى اللقاء ..
ـ ولـكن ...
بيد أنها أنهت المحادثة ووضعت السماعة ..

ترى لمـاذا فعلت ذلك ؟. هل خشيت أن ألقى عليها مزيدا من الاسئلة ؟. لابد أن وراء الأكمة ما وراءها !.
ثم لمـاذا أرجىء السفر ؟ ..

لقد حدد كوندور الموعد ، وقال ان السفر سيكون بعد أسبوع ، فوطنت نفسى على الانتظار أسبوعا .. كلا .. كلا .. هذا مستحيل .. اننى انسان ، ولطاقتى حدود ..

* * *

وأحسست بأنى أختنق ، فغادرت غرفة التليفون وقصدت الى قاعة الطعام ..
وكان الضباط ما زالوا يتندرون بحكاية شتاينهوبل وجواده ، فقلت لصديقى :

ـ هل تسمح لى بجوادك ساعة أو بعض ساعة يا شتاينهوبل ؟ سأرى اذا كنت أستطيع ترويضه ! .
ولا أدرى ماذا جعلنى أقول هذا .. لعلها الرغبة فى أن أصب رجام غضبى على شيء ما ..
قال شتاينهوبل ضاحكا :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا .. انك ستؤدى لى خدمة عظيمة ،

لأننى اصبت بتقلص احدى عضلات ساقى ؟ واحسب اننى لن استطيع ترويضه اليوم ..

وحول منتصف الساعة الرابعة ، انطلقت بالجواد العنيد وسط هتاف زملائى وتمنياتهم لى بالتوفيق ..

وارخيت للجواد العنان حتى خرجنا من شوارع المدينة الى الطريق الزراعى الكبير ، ثم بدأ بينى وبينه نضال طويل شاق ؛ استنفد كل غضبى وكل عناده ، فلما انقضت الساعة ، كان قد صار اطوع لى من بنانى ..

لقد كان شتاينهوبل على حق حين قال انه جواد خفيف الحركة سريع الفهم .. وانه سيصبح إفضل جواد فى الفرقة .

وعدنا فى الطريق الى الثكنة والعرق يتصبب منا ، وكل منا احسن حالا مما كان منذ ساعة .

وفجأة سمعت صوت نفير سيارة يدوى ورائى ، فأرهف الجواد اذنيه ، وكاد أن يجمح ، لولا أننى شددت عنانه فى الوقت المناسب ، وانتحيت به ناحية من الطريق فى ظل احدى الأشجار ..

وكان سائق السيارة من حسن التقدير ، بحيث أبطأ بدوره ، ومر بنا فى حذر ..

وما كدت اعود بالجواد الى عرض الطريق . حتى رأيت شخصا يلوح لى بيده من السيارة ، فعرفت فيه الدكتور كوندور ، وبجواره كان يجلس كسفالفا .

ولا ادرى هل انا الذى ارتجفت ، أو ان الجواد كان يرتجف تحتى ..

كل ما أعلمه اننى شعرت فى تلك اللحظة بمزيج من الحيرة والدهشة ..

كيف جاء كوندور دون ان ينبئنى ؟ . لابد انه ذهب لمقابلة كسفالفا ، لأن هذا الأخير كان معه فى السيارة .

ولكن لماذا لم يتحدثا الى ؟ لماذا مرا بى فى برود وبقلة اكتراث ؟ .

وماذا جاء بكوندور الآن فى حين ان عيادته بفيينا بين الثانية والرابعة ؟ .

لابد انهم أرسلوا فى طلبه .. ولعلهم اتصلوا به فى ساعة مبكرة جدا صباح اليوم .

ترى هل حدث شيء ؟ .

وهل لما حدث اية صلة بارجاء السفر ، وبالنصيحة التى اسدتها لى أيلونا بعد زيارتهم بعد ظهر اليوم ؟ .

لا شك انهم يخفون عنى شيئا .. ومن المحتمل ان تكون الفتاة قد الحقت بنفسها اذى ..

ان تصرفاتها امس كانت تدل على انها مصممة على أمر .
يجب ان انطلق فورا الى القصر .. ولكن لا ...
افضل من ذلك ان الحق بكوندور فى المحطة ..

على انه اذا كان قد حدث أمر ذى بال ، فانه ما كان ليعود الى فيينا قبل ان ينبئنى .. ومن يدرى لعله يترك لى رسالة فى الثكنة .. من المحقق انه سيترك لى رسالة .

المهم ان أعود الى الثكنة على وجه السرعة .. وسأجده هناك او أجد رسالة منه ..

***

وما ان وصلت الى الثكنة حتى وثبت عن ظهر الجواد ، وأسرعت الى غرفتى قبل أن يدور الضباط بى للاستفسار عن رأيى فى الجواد ..

ووجدت تابعى فى انتظارى ، ولاحظت من اطراقة رأسه ، وانحناء كتفيه ان هناك شيئا ليس على ما يرام .

قال لى ان هناك سيدا ينتظرنى فى غرفتى ، وانه لم يسمح له بالدخول الا حينما أكد لى انه يريدنى لأمر هام .

والواقع .. اننى كنت اصدرت امرى الى تابعى بألا يسمح لأى كائن بدخول غرفتى ، ولكن يبدو أن كوندور اغراه بمنحة مالية حملته على عصيان أوامرى .

ومهما يكن من امر فقد دهش الفتى حين لم أعنفه ، وحين سمعنى اقول :

ـ احسنت صنعا ..

حمدا لله ، لقد جاء كوندور ، وسيصارحنى الآن بكل شىء .

وما أن فتحت الباب ، وهممت بتحية كوندور ، حتى رايت امامى شخصا آخر .. هو آخر من توقعت أن أراه ..

رايت أمامى كسفالفا براسه الاصلع ، وظهره المقوس ،وعويناته الذهبية ..

قال وهو يحنى قامته باحترام شديد :

ـ معذرة عن اقتحامى غرفتك يا سيدى الضابط ، ولكن كوندور الح على فى أن ابلغك تحيته واعتذاره من عدم الوقوف بالسيارة ، والواقع انه لم يكن لدينا متسع من الوقت ، اذ كان لابد له أن يلحق بالقطار السريع .

وظل واقفا أمامى وراسه منكس وكأنه يحمل على منكبيه عبئا ثقيلا ..

كان خنوعه العجيب يضايقنى ويزعجنى ، وقد شعرت شعورا مبهما بأن وراء قدومه وخضوعة غرضا آخر ، وانه ، وهو المريض بقلبه ، لا يمكن أن يصعد الى الطابق الثالث لمجرد أن ينقل الى تحية شخص آخر ..

لقد كان بوسعه أن يفعل ذلك غدا حين اذهب لزيارته .

قلت لنفسى :

ـ كن على حذر .. فهذا العجوز يريد منك شيئا .. انه يصطنع المذلة حتى يصعد الى كتفيك كما فعل ذلك الجنى الذى قرأت قصته ..

حذار من الوقوع فى فخ جديد ، لا تلق عليه أسئلة ، وتخلص من قبضته بأسرع ما تستطيع .

* * *

قدمت له مقعدا وأنا أقول :

ـ شكرا لك يا هر كسفالفا .. تفضل بالجلوس .

فجلس ، وخلع نظارته ، وراح يمسحها فى عناية وبطء .

ـ قلت احدث نفسى :

ـ هذه حيلة أعرفها أيها الصديق .. انك تريدنى على أن ابدأ الحديث .. تريدنى على أن ألقى الأسئلة : .. عن اديث ومرضها .. والوحلة واسباب ارجائها .. ولكنى سأكون على حذر ، فاذا كان لديك شىء تقوله فقله لأننى لن أبدأ الحديث ولن أقابلك فى منتصف الطريق .. اننى أرفض التورط من جديد .. والشفقة لها حدود وقد آن لى أن أضع حدا لكل هذا ..

***

ويخيل الى أن الرجل ادرك ما يدور بخلدى ، وفهم أننى لا أنوى البدء بالحديث ، لأنه وضع نظارته على المنضدة ، وقال دون أن ينظر الى :

ـ اننى أعلم جيدا يا سيدى الضابط .. انه ليس من حقى أن استبيح لنفسى بعض وقتك ولكن ما حيلتى ! ! لم يعد فى مقدورى أن أفعل شيئا .. ليس فى مقدور أحد أن يفعل اى شىء .. الله وحده يعلم ماذا دهاها .. انها لا تريد أن تسمع أو تفهم .. ولكنى

اعرف السبب .. السبب هو انها تعيسة ، ويائسة.. وليس هناك اى سبب آخر ..

لم اجب ..

ترى ماذا يعنى ؟! لماذا يتكلم بالألغاز ، ولا يفصح عما فى نفسه ؟

قال وهو لا يزال ينظر الى المنضدة :

ـ لقد اعددنا العدة للرحيل .. أعددنا كل شيء .. وحتى أمس كانت تتلهف على السفر ، وذكرت اسماء الكتب التى ستأخذها معها ، وجربت الثياب الجديدة التى سترتديها والمعطف الثمين الذى جلبته لها من «فيينا» ، ولكننا لم نكد نفرغ من تناول طعام العشاء حتى تغير كل شيء .. راحت تصيح قائلة انها لن ترحل ، وانه لا توجد قوة على الارض تستطيع ارغامها على الرحيل ، وانها ستبقى .. وستبقى حتى ولو انهار البيت عليها قالت انها لن تنخدع وان هذا العلاج الجديد ليس الا حيلة للتخلص منها .. وابعادها ، ولكنها لن ترحل .. لن .. لن ..

***

فمرت بجسدى رعدة شديدة ..

اذن فهذا هو سر ضحكتها الغاضبة أمس .. ترى هل فطنت حقا الى الخدعة ؟ أم تراها تريد فقط ان تحصل منى على وعد باللحاق بها الى سويسرا ؟ ؟

قلت لنفسى :

ـ لا تدع الرجل يشعر باضطرابك ، لا تدعه يحس بأن بقاءها سيضايقك ..

قلت له بقلة اكتراث :

ـ هذه نزوة عارضة ، وستمر بسلام .. لقد اتصلت بى ايلونا تليفونيا ، وقالت ان السفر ربما يرجأ يوما او يومين .

فتنهد الشيخ وقال :

ـ ليت الأمر يكون كذلك .. ان أخوف ما نخافه الا ترحل على الاطلاق .. لقد فترت حماستها للعلاج الجديد فجأة .. ولم يعد يهمها أن تبرأ من سقمها أو لا تبرأ وهى تردد دائما قولها : لم يعد فى مقدوركم أن تخدعونى ، اننى أفهم كل ما يدور بخلدكم ..

ـ الحق ان هذا أمر محير .. لقد كانت ثقتها بكوندور لا حد لها ، وقد أوصى كوندور بالعلاج الجديد وأوصى بالسفر فماذا حدث ؟ ..

ـ لا أدرى .. لا أدرى .. انها الآن ترفض العلاج وترفض السفر ، هل تعلم ماذا قالت ؟ قالت : لن أرحل مهما كانت الظروف لقد سئمت هذه الأكاذيب .. اننى أوثر الكساح مع البقاء هنا على الرحيل الى أى مكان .. لا فائدة الآن ..

وارتجفت يدا الرجل ، واغرورقت عيناه بالدموع واستطرد :
ـ انها تقول : لا فائدة الآن من الشفاء لأنه .. لأنه .. لأنه لا يشعر نحوى بغير الشفقة ..

***

كانت هذه أول مرة يلمح فيها الى شعور ابنته ، وقد لاحظت فى المدة الأخيرة انه كان يتجنب مقابلتى وهو الذى كان دائما يحوم حولى ..

ولكنى فهمت الآن انه لم يفعل ذلك الا خجلا وحياء ..
لابد ان الرجل أصيب فى كبريائه اصابة قاتلة يوم علم ان ابنته تلاحق بغرامها رجلا لا يبادلها الحب ..

ساد بيننا صمت عميق بعد هذا التصريح .. ولم يحاول أحدنا ان ينظر فى وجه صاحبه ..

واستمر الصمت وقتا طويلا ، حتى خيل الى اننى أوشك على الاختناق ..

وفجأة حدث شيء .. فقد تحرك الرجل قليلا الى الأمام .. ثم سقط الى الارض وانقلب المقعد فوقه ..

ترى هل أصيب الرجل بنوبة قلبية ؟ لقد قال كوندور انه مصاب بمرض القلب ..

واستولى على الذعر ، وانحنيت فوقه لأساعده على النهوض ؟ ولكنى ماكدت افعل ذلك حتى أدركت ان الرجل لم يسقط من مقعده ، وانما القى بنفسه القاء ..

كان جاثياً على ركبتيه ، وما أن دنوت منه حتى تناول يدى وقال ضارعا :

ـ اتوسل اليك أن تنقذها .. أنت الوحيد الذى تستطيع انقاذها .. حتى كوندور نفسه قال ذلك .. كن رحيما بها .. ان الأمور لا يمكن أن تمضى على هذا النحو .. انا واثق انها ستقدم على عمل من اعمال اليأس .. وانها قد تقتل نفسها ..

فساعدته على النهوض ، ولكنه ظل ممسكا بيدى بأظافر كالمخالب .. كمخالب ذلك الجنى الذى استعبد الشاب الذى اخذته الشفقة به ..

صاح وهو يلهث :

ـ أنقذها بحق السماء .. لا ينبغى أن تدعها فى هذه الحال .. وأقسم لك انها مسألة حياة او موت .. وليس فى مقدورك أن تتصور الى أي مدى يمكن أن يدفعها اليأس .. لقد سبق لها أن حاولت الانتحار مرتين وأنقذناها فى اللحظة الاخيرة .. انت وحدك الذى تستطيع انقاذها الآن .. انت وحدك ولا احد سواك ..

ـ طب نفسا يا هر كسفالفا ، لا شك اننى سأبذل غاية جهدى واذا شئت فاننا نعود الآن فورا الى القصر .. سأذهب معك وسأحاول التحدث اليها .. فقط قل ماذا يجب أن أفعل ، وماذا يجب أن اقول لها ..

فترك ساعدى وقال وهو يحملق فى وجهى :

ـ ماذا يجب ان تفعل ؟ هل حقا انك لم تفهم ، أم انك لا تريد أن تفهم ..

الم تفتح لك مفاليق قلبها وتهبك نفسها ؟ انها لا تستطيع أن تغفر لنفسها انها فعلت ذلك ..

لقد كتبت اليك ، ولكنك لم تجب ، وهى تعتقد الآن انك تريد ابعادها ، لأنك تحتقرها وتريد التخلص منها .. وتكاد أن تجن خوفا من أن يكون نفورك منها بسبب .. بسببى .. لا تدرك أن اهمال فتاة فى مثل مركزها يعد قتلا لها ؟..

لماذا لا تمنحها بعض الأمل ؟ لماذا لا تقول لها كلمة واحدة .. لماذا كل هذه القسوة ؟ ! لماذا تعذب الطفلة البريئة المسكينة كل هذا العذاب ؟..

ـ لقد فعلت كل ما بوسعى للترفيه عنها ، وتهوين نكبتها ، واحسب اننى قلت لها ..

ـ انك لم تقل لها شيئا .. ويجب أن تعلم انك بهذه الزيارات انما تسوقها الى الجنون .. انك تسوقها الى الجنون بصمتك ، فى الوقت الذى تنتظر منك فيه شيئا واحدا .. تنتظر الكلمة التى تتوق كل امرأة الى سماعها من الرجل الذى تحبه ..

انها ما كانت لتجرؤ على مجرد التفكير فيك لولا أملها فى الشفاء .. وأنت تعلم ان شفاءها أصبح ممكنا الآن ، وانها ستشفى بعد بضعة أسابيع ، فلماذا لا تنعم بما تنعم به الفتيات الأخريات ؟.. انها لاتستطيع أن تذل نفسها اكثر مما فعلت ، وأنت صامت لاتتكلم ولا تريد أن تنطق بالكلمة الوحيدة التى تسعدها .. فهل هى مقتية الى هذا الحد ؟ وبعد ، فانها ستقدم اليك كل ما يمكن أن تصبو اليه نفس شاب مثلك .. اننى رجل مسن مريض ، وكل ما امتلكه سيؤول اليك واليها .. القصر ، والمزارع ، والبيوت وثروة تتراوح بين ستة وسبعة ملايين جمعتها خلال أربعين عاما .. كل هذا لك .. وتستطيع أن تحصل عليه غدا ان شئت ..

كل ما أريده هو أن تجد ابنتى من يرعاها بعد موتى ، وأنا أعلم انك خير من يستطيع ان يفعل ذلك ..

***

وتهالك فى مقعده وهو لاهث الأنفاس .. وبعد قليل ، سقط رأسه على المائدة ، فأدركت مدى ما يعانيه هذا الشيخ المسكين ، وأخذتنى الشفقة .. ووددت مخلصا أن أرفه عنه ..
قلت له :

ــ أرجو أن تثق بى يا هر كسفالفا ، دعنا نفكر فى الأمر مليا ، وستجدنى طوع بنانك .. سوف أفعل كل ما استطيع .. أما ذلك الذى ألححت اليه الآن فانه مستحيل .. مستحيل ..

فارتجف بشدة ارتجافة الحيوان الجريح حين يلفظ انفاسه الأخيرة ، وفتح شفتيه ليتكلم ، ولكنى لم أمهله ..
قلت :

ــ نعم مستحيل ، ولذلك يحسن الا نتحدث فيه مرة أخرى .. فكر انت فى الأمر مليا .. فكر فيمن اكون ! ! اننى مجرد ضابط صغير يعيش من مرتبه الضئيل ، وليس له ايراد آخر .. فهل يقيم مثل هذا المرتب أود اثنين ؟..

فحاول ان يقاطعنى ولكنى استطردت قائلا :

ــ نعم .. نعم .. أنا اعرف ما ستقوله .. ستقول ان المال لا اهمية له ، لأنك غنى ، ولأننى أستطيع الحصول منك على كل ما اريد .. بيد اننى لا استطيع أن أتجاهل انك غنى جدا ، واننى فقير جدا ، وان الناس جميعا سيعتقدون اننى تزوجت من اجل المال .. بل ان اديث نفسها سوف ترتاب طول حياتها فى اننى انما اقترنت بها من أجل مالها ..

صدقنى يا هر كسفالفا ، ان هذا الزواج مستحيل .
فلم يبد الرجل حراكا ، وخيل الى أول الأمر انه لم يفهم ماقلت

.. ولكنه ما لبث أن رفع رأسه ونظر فى الفضاء وامسك حافة المائدة بيديه ، ونهض واقفا وهو يقول :

ـ اذن قد انتهى كل شيء ..

وتحسس المائدة باحثا عن نظارته ، ولما وجدها ، دسها فى جيبه ولم يضعها على انفه ثم تناول قبعتــــه السوداء ، وسار الى الباب وهو يقول دون أن ينظر الى :

ـ معذرة عن ازعاجى لك ..

ومشى الى الباب وهو يترنح ، حتى اذا بلغه ، رفع قبعته عن رأسه ، واحنى قامته وقال مرة اخرى :

ـ معذرة عن ازعاجى لك ..

كانت هذه الانحناءة المهذبة ، رغم الشقاء الذى يعانيه الرجل هى علة ضياعى ، فقد احسست بقلبى يذوب رحمة به واشفاقا عليه .. ولم تطوع لى نفسى ان أدعه يذهب على تلك الحال ، وهو الذى جاء يقدم لى ابنته ، أعز ما عنده فى هذه الدنيا ..

ـ كلا .. لا يجب ان ادعـه يموت يأسا وكمدا .. ولا اقل من أقول له كلمة تخفف عنه .

***

وهرولت فى أثره وأنا أقول :

ـ صبرا يا هر فون كسفالفا .. ارجو الا تسيء فهمى ، لاينبغى أن تذهب هكذا لتقول لها .. ستكون الصدمة رهيبـة .. ثم ان ما ستقوله ليس هو كل الحقيقة ..

وزاد اضطرابى حين رايت ان الرجل لا يصغى الى .. لقد أحاله اليأس الى تمثال من الحجر .. فوقف جامدا فى مـكانه كظل بين الظلال ، أو كجثة فيها حياة ..

واشتدت بى الرغبة فى ارضائه فقلت :

ـ نعم .. إن ما ستقوله لها ليس كل الحقيقة .. فليس آلم لنفسي من أن أهين ابنتك أو أن أدعها تعتقد انني لا أحبها حقا .. وأقسم لك انه لا يوجد في الدنيا من يعطف عليها كما أفعل ، وهي تخطىء اذا توهمت انها لا أهمية لها عندي .. ان الأمر عكس ذلك تماما .. كل ما هنالك انني لم أر ضرورة لأن أقول لها شيئا في الوقت الحاضر .. المهم الآن أن تعنى بنفسها ، وتشفى ..

فتحول الى فجأة وسأل :

ـ ومتى شفيت ؟..

وتألقت عيناه في الظلام كحبتين من الفسفور ..

وذعرت ، واحسست بالغريزة بالخطر الذى يهددنى ..
اذا وعدته الآن بشيء فيجب أن ابر بوعدى ..

ولكنى تذكرت أن جميع آمالها في الشفاء هي مجرد وهم وخيال ..

انها لن تشفى بهذه السهولة ، واذا شفيت فلن يكون ذلك قبل انقضاء سنوات وسنوات ..

لقد قال كوندور : دعنا لا نفكر في المستقبل ، ان اهم شيء في الوقت الحاضر هو تهدئتها ..

فلماذا لا أفسح لها في الأمل ؟ لماذا لا امنحها السعادة لفترة قصيرة .. ! ؟

قلت له :

ـ متى شفيت ، فانني أتقدم اليك بطبيعة الحال لأطلب يدها.

فنظر الى كمن لا يصدق اذنيه ، وقال :

ـ هل أقول لها .. هل أقول لها ذلك ؟..

ومرة أخرى شعرت بالخطر ، ولكنى لم أقو على احتمال نظراته الضارعة ..

اجبت بصوت ثابت النبرات :

ـ نعم .. قل لها ذلك ..

وبسطت له يدى ..

فامتلأت عيناه بدموع الشكر وعرفان الجميل ، وامسك يدى بأصابع ترتجف ، وانحنى فوقها .. وحينئذ تذكرت يوم قبل يدى .. فتراجعت خطوة الى الوراء وقلت :

ـ نعم ، ارجوك ان تقول لها ذلك .. قل لها الا تحزن .. وانها يجب أن تشفى عاجلا .. من اجل نفسها .. ومن أجلنا جميعا ..

ـ نعم ، يجب أن تشفى عاجلا .. أنا واثق من انها سترحل فورا .. وستشفى لأجلك .. لقد شعرت منذ البداية أن الله بعث بك الينا لتدخل السعادة على بيتنا .. كلا .. ليس فى مقدورى أن أشكرك .. فليجزك الله عنا خير الجزاء .. سأذهب الآن .. كلا .. ارجوك ان تبقى حيث انت ..

ومضى ، وهو منتصب القامة مرفوع الراس ، وبقيت فى مكانى حائرا مذهولا كما يحدث للانسان دائما حين يتخذ قرارا دون تفكير أو تدبر ..

على اننى لم أشعر بخطورة الوعد الذى قطعته على نفسى فى لحظة ضعف واشفاق الا بعد ساعة ، حين جاءنى تابعى وبيده رسالة زرقاء كتبت بذلك الخط المألوف ..

قرات فيها :

سنرحل غدا ، اننى وعدت أبى بذلك ، فمعذرة عما قاسيته بسببى فى الأيام الأخيرة .. فقد الح على الخوف من ان اكون عبئا ثقيلا عليك ..

« اننى اعلم الآن لماذا ولمن يجب أن اشفى ، ولم أعد اشعر بالخوف ..

« تعال غدا بأسرع ما تستطيع .. فاننى اترقب قدومك بفروغ صبر » ..

المحبة الى الأبد

« أديث »

« الى الأبد » ..

وارتجفت لهذه الكلمة التى تربط انسانا بآخر رباطا أبديا لا فكاك منه ..

ولكن لم يكن ثمة سبيل للنكوص . . لقد ثبت مرة اخرى ان شفقتى اقوى من ارادتى ..

***

قلت لنفسى :

ـ تشجع ، فذلك أقصى ما تستطيع ارغامك عليه .. وهذا الوعد لن يكتب له النفاذ

صبرا يوما آخر او يومين ، ثم يرحل الجميع ، وتسترد حريتك

***

ولكنى كنت أرتجف هلعا من ساعة اللقاء حين يجب ان انظر فى عينيها البريئتين وفى قلبى كذبة كبيرة !!

ومشيت الى القصر وانا اقدم رجلا واؤخر اخرى .. ولكنى وجدت الأمر اهون كثيرا مما توقعت ..

كان كل شيء يوحى بالفرح والمرح ، ويعكس الشعور بالوفاء وعرفان الجميل ..

واستقبلنى جوزيف بكل مظاهر التوقير ، وهتف وهو يغص بريقه :

ـ اهلا بك يا سيدى الضابط ..

ونظر الى كما ينظر الى تماثيل القديسين فى الكنائس .. واستطرد قائلا :

ـ هل يتفضل سيدى الضابط بالذهاب الى قاعة الاستقبال ؟
ان الآنسة اديث تنتظر هناك منذ بضعة ساعات ..

وسرت بقدم ثابتة فى الطريق الى قاعة الاستقبال وخفت ايلونا لمقابلتى ووجهها يتألق فرحا وابتهاجا ، وعيناهـــا الســـوداوان الساحرتان تنظران الى فى عطف وحنان ..

شدت على يدى بحرارة لم أعهدها من قبل وهمست قائلة :
ـ شكرا لك .. انك لاتعلم ماذا فعلت من أجل البنية المسكينة انك انقذتها ورددت عليها الحياة والسعادة .. ولـــكن أسرع .. انها تنتظرك على احر من الجمر ..

وفتح احد الأبواب ، ودخل كسفالفا ووجهه مشرق بالابتسام ، هتف قائلا وهو يشد على يدى :

ـ شكرا لك على قدومك ، سوف يدهشك مدى التغيير الذى طرأ عليها .. اننى لم أرها منذ بداية مرضها مرحة سعيدة كما هى اليوم .. يا الهى .. اية معجزة فعلت من اجلها .. بل من اجلنـــا جميعا ! !
وتهدج صوته ، وأشاح بوجهه ليخفى دموعه ..

***

وفى هذه اللحظة ، احسست بكل مخاوفى وشـــكوكى تتلاشى وتتبـــدد .. !
لمـــاذا لا ادعها تحبنى .. ما دام الحب يدخل الســـعادة على قلوب كل هؤلاء الناس ؟..

وتاقت نفسى الى دخول الغرفة التى تركتها منذ يومين واليأس يخيم عليها ..
دخلت ، وما اعجب ما رأيت ! ! !
رأيت فى المقعد فتاة كدت أن لا اعرفها ..

فتاة مرحة باسمة الثغر ترتدى ثوبا من الحرير الأزرق زادها

فتنةوبراءة ، وتحيط بمقعدها سلال متعددة مليئةبالورود الجميلة .

لم أر فى عينيها تلك النظرة القلقة التى اعتادت أن تطالعنى بها كلما دخلت عليها ، وانما رأيت نظرة مرح وثقة ووفاء ..

ولاحظت كيف بهرنى جمـالها ، وطابت نفسـها لذلك وهتفت قائلة :

ـ اخيرا .. اخيرا .. تعال واجلس هنا بجـانبى .. ولا تقل شيئا فان عندى ما أسره اليك ..

فجلست الى جوارها ، وأشـعرنى صـوتها الهادىء وكلماتها الودية بطمأنينة لم أحس بمثلها قط فى حضرتها ..

قالت :

ـ اصغ الى لحظة قصيرة ، وارجو الا تقاطعنى .. لقد ذكر لى أبى كل ما قلته له .. وانى أرجوك أن تصدقنى حين اعدك بأننى لن اسألك لمـاذا فعلت ذلك .. وهل فعلته من اجل أبى ، أم من أجلى .. وهـــل فعلته بدافع الشفقة أم .. كلا .. لا تقاطعنى ، فاننى لا اريد أناعرف .. اننى ارفض أن أعرف .. لأننى لا اريد أناعذب نفسى واعذب الآخرين معى .. بحسبك أن تعـــلم اننى انما أعيش الآن وسأعيش دائما من أجـــلك .. واذا شفيت فالفضل فى ذلك لشخص واحد هو أنت ..

وترددت لحظة ثم استطردت قائلة :

ـ والآن ، اصغ الى ما سأعدك .. لقد فكرت أمس فى كل شيء وفكرت للمرة الأولى بوضوح تفكيرا سليما لا تخالطه حمى القلق والشك .. وقررت أن افعل كل ما يطالبنى به الأطباء لـكى أصبح مخلوقا آدميا غير المسخ الذى تراه الآن ، سأجالد المرض بكل قطرة من دمى ، وبكل خلية فى جسدى ، لـكى أشفى وأصبح جديرة بك

فاذا فشل هذا العلاج الذى أوقفت عليـه كل آمالى .. فثق إنك لن ترانى بعد ذلك ولن تسمع منى ..

اقسم لك انني لن اصبح عبئا عليك ولا على اى انسان آخر ..
هذا ما اردت ان اقوله لك ..

وثمة كلمة اخرى .. لم يبق امامنا قبل الرحيل سوى بضع ساعات .. فارجو ان تقضيها فى سعادة ووئام

***

كانت تتكلم بصوت هـادىء متزن غير ذلك الصوت الثاقب اللاهث الذى تعودت ان اسمعه ، وتنظر بعينين صافيتين غير العينين المحمومتين اللتين كانتا تطالعانني من وجه الطفلة المريضة ، وشعرت بأن فى قلبها حبا آخر هادئا متزنا غير ذلك الحب المعذب الجشع الذى اثار موجدتى وهلعى ..

وبدات بدورى احس نحوها بشعور آخر غير مجرد الشفقة عليها والرثاء لمحنتها واتحدث اليها بصراحة وفى غير قلق او حذر ..
وادنيت مقعدى من مقعدها وتناولت يدها فلم ترتجف تحت لمستى كما اعتادت ان تفعل ، كل ما هنالك اننى شعرت بنبضاتها تسرع قليلا ..

***

وتحدثنا عن الرحلة .. وعن حوادث المدينة والثكنة ، وعن آلاف الأمور الأخرى دون ان اشعر بضيق او حرج ..

ثم انتقلنا الى قاعة الطعام ..

كان كل شىء كالعهد به انيقا ، فاخرا ، يوحى بالرفاهية والهناء

وتصدر كسفالفا المائدة وجلس مرفوع الرأس وقورا ، كما يجلس الراهب بين تلاميذه ومريديه ..

ولست اذكر اننى رأيت ايلونا واديث اشد مرحا واوفر شبابا وفتنة مما كانتا فى ذلك المساء .

واكلنا وشربنا وتحدثنا فى سعادة ووئام .. وملأ جوزيف الكؤوس بالشمبانيا فرفعت كأسي وشربت نخب صحة اديث ...

وحينئذ فقط ساد الصمت لحظة الى ان قالت اديث وهى تنظر الى فى ثقة وايمان :
ــ نعم يجب ان اشفى من أجلك ...

ومسح كسفالفا دمعة انحدرت على وجنته ، وهنا رأيت من واجبى ان أفعل شيئا على سبيل الوفاء وعرفان الجميل ، فنهضت اليه وعانقته .. ولما عدت الى مقعدى ، لاحظت ان اديث تنظر الى وشفتاها ترتجفان فانحنيت نحوها ، وقبلت فمها ..

كانت هذه القبلة بمثابة اعلان الخطوبة .. وقد طبعتها على شفتيها باختيارى ، وتلقت شفتاها قبلتى فى خضوع وتواضع ..

وفجأة ، سمعت صوتا منبعثا من أحد اركان الغرفة كصوت سعلة خفيفة ، فنظرت فاذا جوزيف يجفف دموعه ، وقد اشاح بوجهه حتى لا نرى انفعاله ..
وقالت اديث وهى تتحسس يدى :
ــ اعطنى يدك لحظة ..

ولم أدر ماذا كان فى نيتها ان تفعل الى أن شعرت بشىء بارد ناعم ينزلق فى أصبعى ، وأدركت انه خاتم
قالت بلهجة من يعتذر عن خطأ اقترفه ..
ــ لكى تذكرنى حين ارحل ..
فلم انظر الى الخاتم ولكنى تناولت يدها ، وقبلتها

* * *

شعرت فى تلك الامسية كما لو كنت الها .. الها خلق امرأة يفيض وجهها بشرا وهناء .. وخلق السعادة واودعها قلوبا لم تعرف قبلى غير الشقاء والقلق

نعم .. كنت الها فى ذلك المساء ، ولكنى لم انظر من علّ الى ما خلقت ، بل جلست مع سائر المخلوقات ، أسعد بما يسعدهم وانعم بما ينعمون ..

ولأول مرة منذ عرفت هذه الاسرة ، لم أشعر بالرغبة فى مفارقتها ، وحاولت اكثر من مرة أن ارجىء موعد انصرافى ، فقد عز على ، كأى عاشق ، أن أفترق عمن أحب ..

ولكن لابد مما ليس منه بد .

وعندما هممت بالانصراف ، أحطت أديث بساعدى وطبعت على شفتيها قبلة ، واحسست بأنها حبست أنفاسها انتظارا لقبلتى ..

***

عدت أدراجى فى الطريق الى الثكنة وأنا أشعر بسعادة لم أشعر بمثلها منذ عدة شهور .. وشاءت الاقدار أن أمر بالمقهى الذى تعودت الاختلاف عليه مع أصدقائى ، وان ألتقى وجها لوجه مع اولئك الاصدقاء وهم يغادرون المقهى ..

وكان جوسى أول من رآنى فصاح قائلا
ــ انظروا من القادم ؟.. انه هوفميلر بلحمه ودمه ..

ثم حملق فى وجهى واستطرد بلهجة ذات مغزى :
ــ هل أهنئك ؟

فبهت ، وسألت :
ــ تهنئنى ؟ لماذا ؟

ــ كان صديقك الصيدلى هنا منذ لحظة ، وهو يسرد عنك قصة عجيبة قال ان كبير الخدم هناك فى قصر كسفالفا ، اتصل به تلفونيا وانبأه بأنك خطبت خطبت حبيبة هناك

ونظروا جميعا الى .. عينان .. اربعة .. ستة عيون تعلقت جميعها بشفتى ..

واشفقت أن أذكر الحقيقة فأقابل بعاصفة من الضحك والصفير والتهنئات الساخرة الماجنة

قلت :

ــ كلام فارغ ..

فنظر فيرنز فى عينى كأنما ليستشف الحقيقة وسأل ؟

ــ هل أنت واثق ؟ !

هل كان يجب أن أتناول هذا الموضوع بالحديث على قارعة الطريق ؟ !

وهل كان فى استطاعتى أو أوضح لهم الظروف والملابسات ؟

وهل كانوا سيفهموننى ؟ ؟

اجبت فى بساطة :

ــ قلت لك ان هذا كذب

فالتفت فيرنز الى الآخرين وقال فى خيلاء ؟

ــ ألم اقل لكم ذلك ، انني أعرف هوفميلر كما أعرف محتويات جيبى ، لقد كنت واثقا من أن ذلك الصيدلى يكذب .. سيكون لى معه شأن غدا ..

فصاح جوسى :

ــ قبحه الله .. كيف يتجاسر على الاساءة الى سمعة الفرقة بهذه القحة ؟ ؟

وقال ستشاينهوبل :

ــ يسعدنى أن اسمع منك ذلك ياهوفميلر .. الحق اننى لم أصدق أذنى .. وقلت لنفسى ، كيف يرضى هوفميلر بمصاهرة هذا المرابى الذى خرب بيوت عشرات الناس ؟؟

واذا أردت رأيى صريحا يا هوفميلر ، فاننى أقول لك أننى لم أقر منذ البداية صداقتك لأولئك القوم ، فنحن معشر الضباط يجب أن نحسن اختيار من نخالطهم ..

ثم من هى تلك المخلوقة التى زعم الصيدلى اللعين انك خطبتها ؟

اليست هى تلك الفتــاة الكسيحة التى يدفعونها أمامهم على مقعد ذى عجلات ؟

* * *

واصغيت الى هذه الحملة الظالمة وانى أود لو تنشق الارض وتبتلعنى ..

وحدثتنى نفسى أكثر من مرة بأن أصرخ فيهم :

ــ اقفلوا افواهكم القذرة ، انالصيدلى لم يذكر غير الحقيقة وانا وحدى الذى كذبت .. انا وحدى الجبان الكاذب ..

ولكنى كنت أعلم ان أوان التكذيب قد فات ، واننى اقدمت على عمل من اعمال النذالة سوف يحطم سـعادة اديث البريئـة المسكينة ، بل وقد يحطم حياتها ..

لم يكن هناك غير سبيل واحد لاصلاح ما افسدت ..

السبيل الذى يتعين على الضابط الشريف ان يسلكه ليسترد اعتبــاره ..

* * *

وافترقت عن أصدقائى فى فناء الثكنة ، وصعدت درج السلم ركضــا ...

واننى اجتاز الدهليز الطويل الموصل الى غرفتى ، اذا بى المح الكولونل وهو فى طريقه لتفقــد عنابر النوم ..

وخطر لى خاطر فجائى .. فسرت فى أثره ، وما أن سمع وقع خطواتى ، حتى نظر خلفه ورآنى ، فتوقف عن السير واستــدار لى قائلا :

ــ كابتن هوفميلر !!

فأديت له التحية العسكرية وانتظرت ..

قال وهو يصعدنى من قمة رأسى الى اخمص قدمى :
ــ ماذا تفعل هنا فى مثل هذه الساعة من الليل ؟.

ــ معذرة ياسيدى .. لقد لحقت بك لأتحدث اليك فى أمر يخصنى .

فقطب حاجبيه الكثيفين وصاح :
ــ فى منتصف الليل ؟

ويبدو انه رأى فى وجهى ما أقلقه لأنه استطرد قائلا فى هدوء :
ــ حسنا ... تعال معى الى غرفتى ..

* * *

فتح الكولونل باب غرفته ودخل ، فتبعته ..

كانت غرفة بسيطة الاثاث .. بها فراش من الحديد ، ومكتب صغير وثلاث مقاعد ، وقد زينت جدرانها بطائفة من الصور تمثل ضباط الفرقة فى بعض الحفلات والمأدبات ..

ووقف الكولونل أمام مكتبه ، وراح يفتل شاربه الكث بحركة عصبية ثم قال :

ــ والآن قل ماعندك ياهوفميلر .. هل لديك متاعب مالية .. أو متاعب مع النساء ؟ ؟

فأجبت :
ــ كلا ياسيدى .. ليست لدى متاعب مالية ..

ــ اذن فمتاعبك مع النساء .. أو بسبب النساء ، وهذا أمر يسهل علاجه .. تكلم اذن وأوجز ..

فقلت له فى اختصار اننى خطبت ابنة كسفالفا ، ثم انكرت الخطوبة بعد ثلاث ساعات ، واننى لا التمس لنفسى عذرا يبرر هذا السلوك المشين ، فأنا أعرف مايمليه على واجبى فى هذه

الظروف كضابط شريف ، وقد جئت لانبئه ، بصفته ضابطى الاعلى بأننى سأؤدى واجبى .

* * *

فحملق الكولونل فى وجهى كمن لم يفهم شيئا وصاح :

ـ ما كل هذا الهذيان ؟ وعن اى سلوك مشين تتكلم ؟ ؟ قلت انك خطبت ابنة كسفالفا ؟ اننى رأيتها مرة ، ولا شأن لى بميولك وذوقك ، ولكنى اعلم أنها مخلوقة كسيحة شوهاء .. أليس كذلك ثم تقول انك فكرت فى الامر مليا بعد ذلك ورايت ان تفسخ الخطوبة ! ! فماذا فى ذلك ؟ كثيرون غيرك فعلوا هذا ولم يوصفوا بالغش والخداع .. أم لعلك أسأت استغلال ضعف الفتاة و ... و ... فى هذه الحالة يكون الامر خطيرا ..

ـ كلا ياسيدى الكولونيل .. اننى لم أفسخ الخطوبة ، ولكنى انكرتها امام أربعة من ضباط الفرقة فى المقهى .

لقد كذبت على زملائى الضباط لأتجنب الحرج .. وغدا سيذهب الملازم جوسى ليؤدب الصيدلى بدعوى انه اذاع فرية عن أحد ضباط الفرقة .. بينما النبأ صحيح تماما .. وغدا ستعلم المدينة كلها اننى كذبت على زملائى وجلبت العار على الفرقة

فقطب الكولونل حاجبيه وسأل :

ـ اين حدث هـذا ؟

ـ فى المقهى

ـ تقول انه حدث على مسمع من زملائك ؟

ـ نعم ياسيدى

ـ وهل علم الصيدلى انك انكرت الخطوبة ؟

ـ سيعلم بذلك غدا .. هو والمدينة كلها .

فراح الكولونيل يسير فى الغرفة جيئة وذهابا وهو يفتل

شارته . ثم توقف امامي بغتة وسأل :
ــ وماذا فى نيتك ان تفعل ؟

ــ لا يوجد غير سبيل واحد . انت تعرفه يا سيدى الكولونيل ، وقد جئت لأودعك وارجوك بكل احترام ان تتولى الامر بحيث ينتهى كل شيء بأقل فضيحة ممكنة ، فلست أريد للفرقة أن يلطخ اسمها بسببى

ــ كلام فارغ ... كلام فارغ ، أيقتل شاب مثلك نفسه من أجل تلك المخلوقة الكسيحة ؟ ان أمرها لا يهمنى . انما المهم هو موضوع زملائك الاربعة وذلك الصيدلى القذر ..
وفكر لحظة ثم قال :

ــ اصغ الى ، هذا الموضوع يجب أن يحسم بسرعة فائقة قبل ان تتناقله الالسنة .. والآن ، من هم الضباط الذين سمعوك تنكر الخطوبة ؟

فذكرت له اسماءهم ، فدونها فى ورقة أمامه .
قال :
ــ حسنا ، سأتحدث اليهم فى الصباح المبكر قبل الخروج للمناورات ، والويل بعد ذلك لمن يذكر منهم انه رآك أو سمعك .

أما ذلك الصيدلى القذر ، فاننى اعرف كيف ارهبه ...
ــ معذرة يا سيدى ... ولكن ذلك لا يحسم الامر بالنسبة الى ، أنا أعلم اننى كذبت ، وتصرفت بنذالة ، ولن أقوى بعد الآن على مواجهة اى انسان شريف فى هذه المدينة .

ــ صه ... لقد فهمت وجهة نظرك ، والرأى عندى ان تتوارى فترة من الوقت حتى ينسى الجميع هذا الحادث المؤسف .. سأنقلك غدا الى حامية (زاسلو) ، وسأزودك برسالة توصية الى قائد الحامية ... وسأعلن غدا فى المناورات انك كلفت بمهمة سرية عاجلة ، وبذلك ينتهى الأمر ... هل فهمت ؟ عليك بمقابلتى فى مكتبى غدا .. فى الساعة الخامسة صباحا ...
ــ شكرا لك يا سيدى

كان أول شيء شعرت به وأنا في القطار الذي ينهب بي الأرض في الطريق الى (زاسلو) هو الدهشة لأنني ما زلت على قيد الحياة فلم أقتل نفسي ولم تصرعني أحداث اليوم السابق ..

لقد قال الكولونيل انه سيضع الامور في نصابها فيما يتصل بسمعة الفرقة ، وانه سيرهب الصيدلي ليحمله على الصمت .. ولكن ماذا سيكون من امر أديث وكسفالفا والآخرين ؟!

من ذا الذي سينبئهم بما حدث ، ويوضح لهم الموقف على حقيقته ؟

في الساعة السابعة ستستيقظ أديث ، وستتجه أفكارها فورا الى ... وقد تذهب الى شرفتها في البرج ... يا الهي ... لماذا أرتجف كلما تذكرت الشرفة واسوارها ؟؟

سوف تتوجه المسكينة بمنظارها نحو ساحة التدريب ، ولكنها قد لا تفطن الى أن ضباط الفرقة قد نقصوا واحدا

ولكنها ستنتظرني في المساء ، ولن أذهب ، ولن تجد من يوضح لها سبب تخلفي

ستتصل تليفونيا ، وسيقال لها انني نقلت الى حامية أخرى .. فتفهم على الفور ...

وتخيلت كوندور حين قال :

ـ انها جريمة .. وجريمة قتل ..

ولاحت لي صورة أخرى .. صورة أديث وهي تقذف بنفسها من مقعدها نحو سور الشرفة ...

كلا ... يجب أن أفعل شيئا ... وفورا ..

يجب أن أبرق اليها من المحطة التالية لأقول لها كلمة تطمئنها وتمنعها من أن تورد نفسها مورد التهلكة .

وكوندور ؟؟ ألم أعده بشرفي بأن أتصل به اذا حدث ما ليس في الحسبان ؟؟

من حسن الحظ أن القطار سيتوقف فى فيينا ساعتين ،يجب أن أقابل كوندور فى هذه الفترة واوضح له الموقف

* * *

ما ان وقف بنا القطار فى فيينا ، حتى تركت حقائبى مع تابعى ، ووثبت فى أول مركبة صادفتنى وقصدت الى بيت الدكتور كوندور ...

لم اكف طول الوقت عن الابتهال الى الله أن أجد كوندور فى بيته ... انه الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى .. الوحيد الذى يستطيع انقاذ الموقف .

واستقبلتنى الخادمة ..

قالت ان سيدها خرج ولن يعود قبل الظهر .. كلا ... انها لا تعلم اين ذهب ؟

قلت لها وانا اتميز غيظا :

ــ حسنا ، هل أستطيع ان أترك له رسالة ؟؟

وقادتنى الى قاعة الاستقبال ... وهناك كتبت له رسالة طويلة تتألف من خمس صفحات . رجوته فيها أن يذهب فورا الى قصر آل كسفالفا ، وأوضحت له الموقف باختصار وصراحة . قلت له اننى أنكرت خطوبتى اشفاقا من سخرية زملائى ، واننى كدت انتحر لولا ان تدخل الكولونيل فى الأمر ، واننى حتى تلك اللحظة لم أفكر الا فى نفسى ، ونسيت أن سلوكى سيجلب الشقاء على مخلوقة بريئة ... ورجوته للمرة الثانية ان يذهب فورا الى آل كسفالفا لينبئهم بالحقيقة ... قلت له اننى مذنب ولا ينبغى أن يرسم لهم عنى صورة تخالف الحقيقة . فاذا غفرت لى أديث الذنب الذى ورطنى فيه ضعفى ، فاننى يسعدنى أن أعتبر الخطوبة قائمة واعظم قداسة مما كانت قبلا ، واذا سمحت لى أديث باللحاق بها الى سويسرا ، فاننى على استعداد لترك خدمة الجيش ... واننى سأفعل كل ما استطيع للتكفير عن نذالتى وأكاذيبى ..

وتوسلت اليه ان يذكر لها كل شيء في صراحة وان يؤكد لها انني لم ادرك الا الآن ان الروابط التي تشدني اليها اقوى واقدس الف مرة من كل صداقة تربطني بزملائي .

ورجوته للمرة الثالثة ان يحرص على الوصول الى القصر قبل منتصف الساعة الخامسة ، وهو الموعد الذي تنتظرني فيه اديث عادة ...

* * *

وشعرت عندما وضعت القلم ، بانني كنت امينا مع نفسي لأول مرة في حياتي ، وان القرار الذي اتخذته ، هو اول قرار طابت له نفسي ، وارتاح له ضميري

* * *

وتركت الرسالة مع الخادمة ، ورجوتها ان تسلمها للدكتور كوندور حال وصوله .

وعدت الى المحطة ، وانا اشعر كان عبئا ثقيلا قد ازيح عن صدري .

بيد ان القطار ما كاد يتحرك بنا ، حتى الحت على الهواجس والمخاوف مرة اخرى ..

هب ان كوندور لم يعد في الوقت المناسب ليستقل القطار الى (كسفالفا) ؟

هب ان اديث انتظرت وانتظرت ... ثم القت بنفسها من الشرفة ؟

يا الهي ... يجب ان اخطرها بطريقة او باخرى ، قبل ان يدركها اليأس وتقتل نفسها

وفي محطة (برون) ، وهي المحطة التالية ، تركت مكاني في

القطار وهرولت الى مكتب التلغراف . وارسلت الى اديث البرقية التالية :

الآنسة اديث فون كسفالفا ..

سافرت فى مهمة ، وساعود عاجلا ، سيوضح لك كوندور كل شيء ، وسأكتب اليك حالما أصل ، أطيب التمنيات

المخلص
انطوان

* * *

وعدت الى القطار بعد جهد ، فقد غصت المحطة بأناس كثيرين كانوا يتزاحمون أمام لوحة الاعلانات ، وكدت اسأل عن سبب الزحام ، لولا ان سمعت صفير القاطرة ، فشققت طريقى وسط الجمهور ، واضطررت الى استخدام بعض العنف لكى أصل الى القطار قبل تحركه .

وقد وصلت الى زاسلو فى المساء ، وصعدت الى غرفتى بأحد الفنادق وأنا أترنح من فرط الاجهاد والتعب وما كدت أضع رأسى على الوسادة حتى استغرقت فى نوم عميق

* * *

استيقظت من نومى على صوت طرق شديد ، فنظرت حولى فى الظلام ثم نهضت وفتحت الباب فاذا بخادم الفندق يقول لى :

ــ مكالمة تليفونية لك يا سيدى الضابط

مكالمة لى ؟ ممن ؟ انا لا أعرف أحدا فى هذه المدينة ..
قال الخادم :

ــ أرجو الاسراع يا سيدى .. ان المكالمة من فيينا ، ولم اتمكن من سماع اسم المتكلم

لا بد انه كوندور

صحت بالخادم :

ــ اسرع ، قل للمتكلم اننى قادم ..

والقيت معطفى على كتفى ، وهرولت فى اثر الخادم وتناولت منه السماعة ...

وعلى الرغم من انه قال ان الاتصال قطع ، فقـد ظللت انصت باهتمام واصيح :

ــ آلو ... آلو ..

وانتظرت وسمعت عامل التليفون يسألنى :

ــ هل اتصلت بالمتكلم

كلا

ــ ولكنك كنت تتحدث اليه منـذ قليل ... انها مكالمـة من قيينا ، صبرا لحظة ...

وسمعت جلبة ، ثم ساد الصمت مرة اخرى ..

وبعد قليل عادت الجلبة وقال صوت :

ــ براج ، القيادة العامة تتكلم ... هل هذه وزارة الدفاع ؟

فصحت فى غيظ :

ــ كلا ...

وعاد السكون ..

وبعد قليل ، تحدث عامل التليفون ، قال :

ــ معذرة يا سيدى ، لقد استعلمت عن مكالمتك ، لقد قطعت المكالمة بسبب اتصالات رسمية عاجلة .. ارجوك ان تضع السماعة ، وساتصل بك عندما تستأنف المكالمة ..

فوضعت السماعة ، وجلست انتظر

لا شك أن المتكلم هو كوندور ، ولكن لماذا يتصل بى فى منتصف الساعة الواحدة صباحا ؟

وطال انتظارى نحو نصف ساعة ، ولما فرغ صبرى ، اتصلت بعامل التليفون :

ــ الم تستأنف المكالمة ؟

ــ اية مكالمة ؟

ــ مكالمة فيينا

ــ صبرا لحظة

وبعد بضع دقائق ، دق جرس التليفون ، فتناولت السماعة فى لهفة شديدة ...

قال عامل التليفون :

ــ المكالمة الغيت

ــ الغيت ؟ ما معنى هذا ...

ولكن العامل لم يجب

* * *

الغيت ؟.. لماذا ؟

لماذا يتصلون بى بعد منتصف الليل ، ثم تلغى المكالمة ؟

لا بد ان شيئا رهيبا قد حدث .. ترى هل اتصل بالدكتور كوندور فى بيته ؟

كلا .. ان ذلك سوف يزعج زوجته ...

كانت ليلة رهيبة ، قضيتها كأسوأ ما تقضى الليالى ...

واستيقظت فى منتصف الساعة الحادية عشرة .. وكان يتعين على ان اقدم نفسى الى ضابط الحامية فى الساعة العاشرة ، فارتديت ثيابى على عجل ، وقصدت الى الثكنة وقدمت رسالة الكولونيل الى الضابط المنوب ، ولكنه لم يفضها ولم يقرأها ، بل قال :

ــ ارجوك ان تسرع ، فقد امر القائد بعقد اجتماع عام لجميع الضباط والجنود فى تمام الساعة الحادية عشرة

فهرولت الى فناء الثكنة ، واحتللت مكانا بين الضباط قبيل وصول القائد بلحظة قصيرة ..

ووقف القائد على منصته فى وسط المكان ، وبسط ورقة بين يديه ، وقرأ فيها بصوت مرتفع :

« لقد ارتكبت جريمة مروعة ، افزعت الامبراطورية النمسوية الهنغارية والعالم المتمدين كله ... »

جريمة ... اية جريمة ؟

وارتجفت على الرغم منى ، كما لو كنت انا المجرم

ومضى القائد فى قراءة الوثيقة التى بين يديه :

« واعنى جريمة قتل صاحب السمو الامبراطورى الارشيدوق فرانز فرديناند ولي العهد المحبوب ، وصاحبة السمو الامبراطورى»

ما هذا ؟

هل قتل ولى العهد ؟ ومتى ؟

آه ... ذلك اذن هو سبب الزحام الذى لاحظته فى محطة (برون) ؟

* * *

ولم اسمع اكثر من ذلك ، فقد افزعتنى كلمتى (جريمة) و (قتل) وهما الكلمتان اللتان استخدمهما كوندور ..

وفجأة ، تذكرت الحديث التليفونى ، وعجبت لماذا لم يحاول كوندور الاتصال بى صباح اليوم

وانتظرت فى الثكنة حتى فرغ القائد من القاء بيانه ثم قفلت عائدا الى الفندق ، وهناك قدم لى كاتب الفندق برقية قال انها وصلت منذ قليل ، ففضتها ، ومررت ببصرى على مضمونها ،ولم افهم لها معنى ...

ثم تبينت بعد انعام النظر ، انها رسالة من مكتب التلغراف تنبئنى بأن البرقية التى بعثت بها من محطة (برون) فى اليوم السابق قد تعذر تسليمها

تعذر تسليمها ؟ لماذا

كيف يتعذر تسليم البرقية لاديث فون كسفالفا ؟؟ ان الجميع يعرفون قصرها ..

ولم أطق صبرا بعد ذلك ، وطلبت مكالمة تلفونية عاجلة مع الدكتور كوندور بفيينا .

وتم الاتصال التليفونى بعد نحو عشرين دقيقة ، ومن حسن الحظ أن كوندور كان فى بيته وقد تحدث الى بنفسه ...

لقد لعبت الاقدار دورا عجيبا فى افساد جميع خططى ، فلم تعلم الفتاة المسكينة شيئا عن القرار الذى اتخذته ، ولا عن ندمى على النذالة التى اقترفتها

ويبدو أن جميع الاجراءات التى اتخذها الكولونيل لتلافى الفضيحة لم تجد فتيلا .. وان فيرنز وزملاءه لم يأووا الى فراشهم بعد أن تركتهم وانما عادوا لتناول بعض الشراب فى احدى الحانات . واتفق لسوء الحظ انهم وجدوا الصيدلى هناك فأشبعوه ضربا ، ولم يستطع الصيدلى صبرا على هذه الاهانة ، فقصد فى الصباح الى الثكنة ليرغمنى على الاعتراف بصدق روايته ، ولما علم بأمر سفرى ، قصد لتوه الى القصر وقابل جوزيف ، واتهمه بالكذب والتضليل وبأنه تسبب فى عدوان الضباط عليه

وشاء الحظ العاثر أن تسمع أديث القصة كلها كما رواها الصيدلى بصوته الثاقب ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمع شيئا ، وطلبت رؤية ثيابها الجديدة مرة أخرى وكانت طول الوقت تضحك مع ايلونا وتداعب أباها ، وتسأل عن أمور كثيرة خاصة بالسفر ، ثم أوعزت سرا الى جوزيف بأن يتصل بالثكنة تلفونيا ليستفسر عن موعد عودتى ، وعما اذا كنت قد تركت لها رسالة . ولما أنبأها بأننى

نقلت من الحامية ولم اترك رسالة ، رفضت الانتظار يوما آخر ؟ او ساعة اخرى . بعد ان خيبت آمالها ، وطعنتها بضعفي ونذالتي تلك الطعنة التي افقدتها كل ثقة بي .

وبعد الغداء ، طلبت الصعود الى الشرفة ، ويبدو ان ايلونا اوجست شرا وصممت على مرافقتها

وفى منتصف الساعة الخامسة ، وهو موعد زيارتي ، وقبل ربع ساعة من وصول كوندور والبرقية التى بعثت بها ، طلبت اديث من ايلونا ان تاتيها بكتاب ذكرته ، وانصرفت ايلونا ببساطة وسذاجة لتجيب مطلبها ، وحينئذ القت اديث بنفسها من فوق سور الشرفة ، بالطريقة التى اوضحتها لى ذات يوم .

وكانت لا تزال على قيد الحياة عندما وصل كوندور ، ومن عجب ان جسدها الضعيف العليل لم يصب باية اصابة ظاهرية ، ونقلت على الفور الى احد مستشفيات فيينا ، وظن الاطباء انه يمكن انقاذها ، فطلب كوندور الاتصال بى تليفونيا فى الساعة الثامنة ، ولكن جميع وزارات الخارجية كانت فى تلك الليلة ــ وهى ليلة مقتل الارشيدوق ــ فى حالة طوارىء ، وشغلت السلطات المدنية والعسكرية جميع الخطوط التليفونية ، فظل كوندور اربع ساعات ينتظر المكالمة . واخيرا ، حول منتصف الليل ــ قرر الاطباء الا أمل فى انقاذ اديث ، وعندئذ فقط الغى كوندور المكالمة

* * *

انى واثق ان مئات الالوف ممن ذهبوا الى ميدان القتال فى شهر اغسطس من ذلك العام ، كانوا مثلى يتحرقون شوقا الى الحرب .. لا لانهم من هواة الحروب . وانما لانهم مثلى ، يريدون الفرار من دنياهم ، والهروب من واقعهم .

ولقد كانت الاسابيع الاربعة التى سبقت اعلان الحرب من اسوأ ما مر بى فى حياتى .. ذلك لاننى كنت اعلم عن يقين ، اننى قتلت بضعفى ونذالتى المراة الوحيدة التى احبيتها

لزمت غرفتي ، ولم اجرؤ على الخروج ..

وكتبت الى كسفالقا ، لاعبر له عن عطفي ولكني لم اتلق ردا

وكتبت الى كوندون ، أسأله مزيدا من الايضاح ، ولكنه لم يجبني .

ولم اتلق كلمة واحدة من أخواني الضباط

وشعرت بأن هذا الصمت الجماعي ، هو بمثابة قرار بادانتي .. وبأن الجميع يعتبرونني ، كما أعتبر نفسي ، قاتلا ..

وبينما كانت الدنيا كلها تهتز بأنباء الحرب ، وجيوش أوروبا كلها تعبأ وتحشد .. لم أكن أنا أفكر الا في الجريمة التي ارتكبتها بنذالتي .

وهكذا كانت الحرب التي قوضت العروش وقتلت ملايين الابرياء بمثابة طوق النجاة بالنسبة الى .

انها انقذتني من اليأس أو وخز الضمير .

ولست أزعم انني بحثت في ميدان القتال عن الموت ، ولكني أقول انني كنت أقل الناس خوفا منه ..

كان خوفي من العودة الى ارض الوطن ، ومقابلة اولئك الذين يعرفون جريمتي ، اعظم من خوفي من اهوال الحرب ، ومن الموت في ميدان القتال ..

واذا كان الموت لم يقطع على الطريق ، فليس الذنب في ذلك ذنبي .. لانني ترصدته في كل مكان ، وترقبته في كل خطوة ، وتعمدت التطوع في كل مهمة تفوح منها رائحة الخطر ، ولكن دون جدوى .

ولما انقضت سنوات الحرب الأربع الرهيبة ، اكتشفت ، لفرط دهشتي ، انني مازلت استطيع الحياة في دنياي التي ألفتها ، وان جريمة القتل التي اقترفتها ، قد تلاشت آثارها في المذبحة الرهيبة التي ازهقت فيها ارواح الملايين .

وأهم من ذلك انني لم اجد في دنياي التي عدت اليها من يستطيع اقامة الدليل على جريمتي ، أو يجرؤ على اتهام بطل من ابطال الحرب بالكذب والنذالة ، وجميع الذين عاصروا الجريمة لم يبق لهم اثر ، فقد مات كيسفالفا بعد مصرع ابنته بأيام قلائل ، واقترنت ايلونا بصديقها ورحلت معه الى احدى مدن يوغوسلافيا ، وانتحر الكولونل بوبنشيك عقب معركة نهر (الساف) .

أما اصدقائي الضباط ، فقد قتل بعضهم في الحرب ، ومن بقى على قيد الحياة لم يعد يتكلم بشيء مما حدث قبل الحرب .

((تمت))

العدد القادم ..

وجوه في الظلام

للكاتبين الفرنسيين

بيير بوالو

وتوماس نارسيجاك

ترجمة أحمد عادل

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية ـ الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثون جنيها

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى اى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور »



الدار القومية للطباعة والنشر

العدد القادم

وجوه في الظلام




Exclusive
For
www.ibtesama.com